بين التاريخ والآثار

بقلم
عبد القدوس الأنصاري

بين التاريخ والآثار

الطبعة الأولى – بيروت ، ١٩٦٩

الطبعة الثانية – بيروت ، ١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نحمدُ الله حمد الشاكرين ، ونصلي ونسلم على أفضل خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه .

أما بعدُ فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب « بيْنَ التاريخِ والآثار » أقدّمُها للقراء بعد نفاد طبعته الأولى ، وبعد ورود الطلب المتوالي ، إليّ ، من القراء الراغبين في اقتنائه .

ولعل من المناسب الإشارةَ إلى مزايا الطبعة الجديدة هذه . فقد أجْرَيْتُ بها تصحيح ما لاحظتُ حدوثه من السهو في بعض العبارات في طبعته الأولى ، كما وضَعْتُ بها « زيادات » خفيفة اقتضاها ادراكي لزومَ القيام بها . وكلّ ذلك لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة لا كمّاً ولا كيفاً .

ومن تلك الزيادات وضع « مُصَوَّرَيْن » بالكتاب لمدينة الجارِ (البُرَيْكَةِ) التي ورد ذكرها في الكتاب بمناسبة تاريخية ، وكانت ميناءَ المدينة المنورة العالمي الكبير قبل ميناء ينبع بأزمان . وأحدُ الرسمين هو « خريطة » أثرية لبلاد العرب ، ذُكِر فيها ميناء « الجار » وعُيِّن موضعه على ساحل البحر الأحمر ، وقد وضعها الرحالةُ العربيّ الشهير (ابن حوقل) الذي عاش في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وقام بجولات واسعة في أنحاء العالم الإسلامي ، وكان كتابه (صورة الأرض) ثمرة رحلاته تلك . وثاني الرسمين خريطة « تقريبية » لمدينة الجار المجاورة

لمينائها ، وقد وضعتُ هذا المصور التقريبي للمدينة المندثرة بعد وقوفي على أطلالها في الرحلة الثانية اليها بشهر ربيع الأول ١٣٩١ هـ ، الموافق يوليه ١٩٧١ م .

هذا وقد استلزم اثباتُ تلك التنقيحات والزيادات في صُلْبِ الكتاب إثباتَها أيضاً في فهارس أعلامه وأمكنته . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل ، ومنه وحده نستمد المعونة والسداد وتحقيق الآمال .

عبد القدوس الأنصاري

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذه بحوث متفاوتة ، بالنسبة للزمن الذي كتبتْ ونُشرتْ فيه ، وبالنسبة لما نُشرتْ فيه . ولكنها مع هذا التفاوت المزدوج مترابطة في هياكلها وفي جواهرها .. وفي موضوعاتها .. وإني لأرجو أن أكون قد نجحتُ في ربط أواصر الصلة بين مادتي التاريخ والآثار اللتين تقدمان ثماراً ناضجة للباحثين والمستطلعين عن حقائق العصور القديمة في عصرنا الحديث . وموضوعات هذا الكتاب لا تخرج عن دائرة البحث في بعض آثار هذه البلاد العربية وهي : المملكة العربية السعودية ، وما يقع بمشرقها ، مثل الكويت ، وما يقع بشمالها ، مثل الأردن وسورية ولبنان . وهذا البحث الأثري ، كما تراه ، مقرون بالبحث التاريخي المجرد في نفس إطار الأقطار المشار اليها ، ولا أدعي انها أبحاث مستقصية شاملة وإنما هي غالباً لمحات .

وقد دعاني إلى اقتحام ميدان هذه البحوث العويصة التي لا يزال الغموض يكتنفها في كثير من أبعادها وحقائقها ، دعاني إلى ذلك محاولة إبراز ذلك الإسهام الكبير الذي قامت به حضارة العرب في جاهلية وفي إسلام ، حيال الحضارة الإنسانية الشاملة .

وإني بهذه المناسبة — أدعو باخلاص وبحرارة علماء العرب والمسلمين

إلى مزيد من هذه البحوث ، الأثرية التاريخية الكاشفة .. كما أدعو أيضاً إلى تخصيص وافر الأموال والجهود والرجال للبحوث الأثرية التنقيبية في أعماق أرضنا المعطاء ، حتى تخرج لنا من ينابيعها الثرة كنوزها الثمينة المطمورة في باطنها .. على أن نقوم نحن أيضاً بهذه المهمة العلمية ، ونقوم بعدها بمهمة دراسة تلك الآثار بأنفسنا وبوسائلنا العلمية الخاصة غير معتمدين على اهتمامات غيرنا في هذا السبيل اللهم إلا بالنصيب الضروري فيما لا بدّ منه من التعاون البشري العام على تقدُّم العلوم وتوسعة آفاقها .. كما أدعو في نفس الوقت إلى مزيد من البحث في بطون الكتب التاريخية والأثرية والعلمية والأدبية ، لاستخلاص حقائق تاريخنا القديم المبعثرة .

هذا وقد اعتمدت في البحوث هذه على جملة مراجع .. في طليعتها القرآنُ المجيد وتفاسيره ، ثم كتبُ بعض المؤرخين والجغرافيين الغربيين القدامى كهيرودتس ، والمحدثين ، وكتبُ بعض المؤرخين والجغرافيين العرب ، والرحالين العرب القدامى ، كالهمداني في الإكليل ، وصفة جزيرة العرب ، وكالاصطخريّ ، وياقوت الحموي ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وكبعض المصادر اللغوية مثل المخصص لابن سيده ، ولسان العرب ، والقاموس ، وتاج العروس ، وكالمعجم الوسيط تأليف المجمع اللغوي بالقاهرة ، ومعجم متن اللغة لأحمد رضا ، وكمؤلفات بعض العرب المحدثين في التاريخ مثل كتابَيْ : العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان ، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ، وكهف أهل الكهف لرفيق وفاء الدجاني ، وكتب بعض المستشرقين في الآثار العربية ككتاب هاردنج المترجم إلى اللغة العربية بقلم سليمان موسى وزميله . يضاف إلى ذلك بعض مؤلفات الباحثين السعوديين مثل صحيح الأخبار لابن بليهد ، وبحث المعادن لرشدي ملحس ، وقلب جزيرة

العرب لفؤاد حمزة ؛ وجزيرة العرب لحافظ رهبة ، وكتاب في ربوع عسير لعمر رفيع ، والعرب في أحقاب التاريخ لأمين مدني . ولا أنسى كتابَي ابن بشر وابن غنام في هذا الصدد .. وكتابَيْ تاريخ مدينة جُدّة ، وآثار المدينة المنورة لكاتب هذه السطور .. وغير ذلك مما اشتملت عليه بحوث استكشافية أثرية قمتُ بها أثناء رحلاتي وتجولاتي .

وهكذا يصدر هذا الكتاب مُزدوجَ الشخصية موحّدَ الكيان والأسلوب والهدف . إن شخصيته مكوّنة من جماع البحوث الأثرية ، والبحوث التاريخية الخبرية المصفاة من الشوائب بقدر اجتهادي .

وكنت حينما بَدَأتْ « هوايةُ تتبع الآثار » تداعبُ مخيلتي في أول عهد الشباب ، قد شممت من أريجها العبق أنّ لها فائدة تذكر في دعم مرويات التاريخ النظري ، ولذلك فهي جديرة بالاهتمام وقمينة بالتقدير والاستمرار .. إني لمست بالدقة أن كثيراً من الأمور المهمة في معرفة تاريخنا العريق قد أهملها تاريخنا النظري المكتوب دفعة واحدة . ولعل ذلك يعود إلى أنه كان يراها تافهة بالنسبة لوقته ، أو لأنها لم تدخل في إطار ما ألَمّ به من الحوادث . فمثلاً نُقِرَ على صخرة ملساء كبيرة مربعة في جبل يقع شمال سد وادي رانوناء في ضاحية المدينة المنورة الجنوبية الشمالية بَيْتا شِعْرٍ قديمان ، لمجهول ، سجل لنا فيه عمراناً مزدهراً للمكان الذي نراه الآنَ قفراً يباباً بين جبال سود جُرْد ... ومثلاً اكْتَشَفْتُ في جنوب المدينة المنورة ، جبلاً متوهجاً صغيراً ، بأعلاه كُلّه قُبيباتٌ واطئة مبنية من الحجر (الدبش الصغار) وفي داخلها مقابر منقورة في الحجر ممددة فيها هياكل قوم ضخام الأجسام . وقد أدركْتُ في نفس الوقت أنه لا بدّ أن يكون بجانب هذه المقبرة النائية عن العمران ، مدينةٌ قديمة مجهولة . والصويدرة المملوءة بالنقوش الأثرية ما بين خطية ورسوم حيوان وأناسيّ ، لم أجد لها ذكراً فيما اطلعتُ

عليه من المصادر ، مع أنها في طريق المدينة ــ القصيم ، وطريق المدينة ــ بغداد ، أي طريق الحجاج في الزمن الغابر . وكمدينة بني سليم التي أدركت انها كانت موجودة في بلادهم ، عامرة زاهرة ، من مقبرتها التي جلب إلى جدة بعض بني سليم الشواهد منها ووصفوها لي بالاتساع وكثرة حجارة الشواهد المنقور بها الخطوط الرائعة القديمة . وجُلّ هذا وغيره أهمله تاريخنا المكتوب ولم يعرج عليه فيما اطلعتُ عليه حتى الآن .

كما فطنت لحقيقة علمية كبيرة ، ساقتني إلى مزيد الحرص على تتبع ما أمكن تتبعه من الآثار واستنطاقها عن ماضي الأخبار . والحقيقةُ الماثلة للعيان هي أنه إذا اتفق التاريخُ الخبريّ والشاهدُ الأثريّ على حدوث أمر ما ، فإنّ ذلك يكون حقيقةً مؤكّدة ، لا شبهة فيها ولا التواء .

وإذا انفرد التاريخ الخبريّ بحدوث أمر ما ، فإنه لا بدّ أن يوضع تحت مجهر الفحص والدراسة المستوعبة .. ليتوصل إلى رجحان وقوعه أو نفي وقوعه .. وهذا باستثناء كلام الله تعالى ، الثابت ، وهو القرآن المجيد وباستثناء الحديث النبويّ الصحيح . أما إذا انفرد الشاهد الأثريّ بحدوث أمر ما ، فإن الغالب أن يكون حدوثه صحيحاً .. لأنه تصوير صامت لا يتأثر غالباً بالدعاية أو الملق ، ومع ذلك فليس كل ما تتحدث به الآثار صحيحاً ، مائة في المائة . وقد دلنا الاستقراء على أن من الآثار الخطية والرسمية المنقورة على الصخور ما لا يخلو من مبالغات وتهويل ، أو نقص أو تزَيّد ، بحسب الظرف الذي نُقِرَ فيه ذلك الأثر سواء أكان خطّاً أم صورة .

وبعد ، فإن هذه الأبحاث المدوّنة في هذا الكتاب قد كنتُ كتبتُها ونشرتها في أزمنة متفاوتة ، وفي أماكن متفرقة ، وفي صحف ومجلات

وغيرها .. وقد استغرقت كتابتها المتباعدةُ المسافات ، واحداً وثلاثين عاماً .. وبالتحديد استغرقت من عام ١٣٥٦ ﻫ = ١٩٣٦ م إلى عـــام ١٣٨٨ ﻫ = ١٩٦٨ م .

وحينما قررتُ جمعها بين دفتي كتاب واحد ، لضمان الإفادة من هذا الجمع بعد التفرق ، وهذا الضم بعد التشتت ، راجعتُها وأعملتُ فيها من التعديل والتنسيق ما اقتضاه هذا الكيان الوليد .. وهـــذا الجهد الجديد ..

وكما أشرت إليه فإن من البواعث التي دفعتني إلى هذا الصنيع ، الرغبة العميقة الجذور الطامحة ، الملحة في إلقاء بعض الأضواء على الماضي البعيد ، والأبعد من تاريخ العرب والإسلام ، خاصة في هذه الديار التي هي مهد العرب والإسلام .

فإذا أدّى الكتابُ مهمته هذه فذلك فضل من الله ومنة ... وهذا هو ما نرجوه ونأمل أن يحققه اللطيف الخبير .. إنه على كل شيء قدير ، وإنه أكرم مسؤول وأكرم مجيب . وإذا حدث فيه شيء من السهو أو الخطأ فانه غير مُتَعَمَّد . والإنسانُ دائماً مُعْرّضٌ للخطأ والنسيان . والعبرة قبل كل شيء بالّنية الطيبة والعمل الصالح المفيد .

من ذا الذي ما ساء قط ؟ ومن له الحسنى فقط ؟

أضواء
على تاريخ جزيرة العرب

جزيرة العرب ، هي المهد الأول للساميين عموماً ، فهي إذن مهد الحضارة العالمية ، لأن الساميين هم بُناة هذه الحضارة .

هذا ما يراه كثير من علماء الآثار ، ولهم دلائل أثرية ، ودلائل خبرية مقارنة ، ودلائل منطقية وطَبَعِيّة على دعم هذا الرأي .

وإذا أردنا أن نحدد المنطقة التي نشأت منها الحضارة فيما قبل التاريخ ، والتي عُرِفَ فيها التعدين والزراعة والصناعة والتجارة وسائر مُقومات الحضارة قبل أي جزء آخر من أجزاء الدنيا القديمة ، فلنا أن نقول استناداً على أرجح أقوال الأثريين والجيولوجيين : إنها المنطقة التي توصِلُ بين نَجْدٍ والحجاز ، وهي التي تكثر فيها المعادن وهي التي اكتشفت فيها آثار المدن والقرى والتلال التي طمرت مدناً ومصانع ومقابر ومزارع عريقة في القدم ، من آثار أولئك الجبابرة بناة الحضارة الإنسانية الأقدمين .

وسنرى أن المؤرخين يصفون بلاد العرب بكثرة المعادن والمناجم ، فإذا رجعنا إلى أقوالهم ومشاهداتهم وجدنا أن هذه المنطقة هي أحفل المناطق العربية بالمناجم الذهبية وغيرها ، فما أكثر المناجم التي يصفونها بأنها في أرض كَعْبِ بن كِلاب ، وغَطَفان ، وعبسٍ ، وذبيانَ

وسُلَيْم [1] ، وهي تقع في أواسط المملكة وتأخذ بأطراف من الحجاز ، وبأطراف من نجد ، في الشرق ، وفي الشرق الجنوبيّ ، وفي الشرق الشمالي معاً .

كما أنه بهذه المنطقة الممتدة كانت تجري الأنهار الفياضة التي قال عن أحدها (هيرودتس) (٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق. م.) : إنه نهر يسمّى (كورس) . وإنه من الأنهار العظيمة ، وإنه كان يصب في بحر (إريتريا) أي البحر الأحمر [2] .. كما أن من هذه الأنهار نهر (لار) (LAR) ، الذي أشار بطلميوس (القرن الثاني الميلادي) بأنه ينبع من نجران ، ويسير في الشرق الشمالي ، حتى يصب في الخليج العربي ، ويرى بعض الباحثين أنه هو الذي كان يجري في وادي الدواسر [3] . وقد كانت هذه الصحارى التي نشاهدها اليوم وشاهدتها قبلنا الأجيال المعروفة فيما بعد التاريخ ، كانت مروجاً خُضْراً ، آهلة بالسكان [4] وقد كان للعرب ، سكانها إذ ذاك ، عِلْمٌ واسع بتنظيم شؤون الرّيّ ، وتدل الآثار التي عثر عليها الباحثون في الصخور وتحت الأرض ، على حضارة لهم زاهية في هذه الصحراء الجرداء من قبل حدوث الجفاف بها . وكان للعرب إذ ذاك ممالك ودول قائمة على دساتير منظمة .

وقد عرف لديها الخط قبل أي قبيل أو أمّة .. وناهيك بمدنية المعينيين والصفويين ومن جاء قبلهم ومن جاء بعدهم من العرب القدامى الذين انتشروا في أواسط الجزيرة وشرقها وغربها وشمالها وجنوبها . ثم عمت البداوة أراضيها بعد ذلك بفعل اشتداد الجفاف ، وفوضى الحكم

---

١ بحث المعادن : لرشدي الصالح ملحس .

٢ ص ٩٨ من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي .

٣ نفس المصدر .

٤ تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتي ، ج ١ ، ص ١٥ .

وضعف الحكومات ، وتزعم المشايخ وانتشار أعمال السلب والنهب . ثم جاءت عوامل الزمن والإنسان فطمرت كل ما خلفته تلك الحضارات الزاهرة من آكار وعمران ، ثم لفها النسيان في ضبابه ، حتى ظن الناس فيما بعد ، أن الجزيرة ، وخاصة هذه المنطقة ، منها — نجداً والحجاز لم يكن أهلها يألفون غير البداوة وشظف العيش والجفاء والجهل المطبق ، وأن لا صلة لهم بكل مقومات الحضارة ، مما أثبتت الكشوف الحديثة الأثرية ، والمستندات الخبرية ، بطلانه . فكان لزاماً على أهل هذه البلاد الإلمامُ بهذا الرأي العلمي الحديث ، ليعرفوا ماضيهم ، وليبنوا كما بنى أوائلهم .

هذا وقد ظلت أخاديد الأنهار العظيمة بالجزيرة شواهد نواطق على تلك الحضارات الذاهبة . وناهيك بوادي الحمض ووادي السرحان ، ووادي الرمة ، ووادي الدواسر ، وغيرها من الأنهار التي جفت وبقيت مجاريها أخاديد تجري بها سيول الأمطار .

وكان من أثر الجفاف الذي خيم على هذه البلاد بعد تلك العصور الناضرة ، أن بدأت موجات الهجرات منها . فنزح الفينيقيون عنها بعدما عمروها وثمروها ، إلى الشمال ، وإلى الشمال الشرقي ، وإلى الشرق وبقيت بَواقٍ منهم اندمجت في أحفادهم من أجداد العرب الذين عرفوا منذ أزمان سحيقة بهذا الاسم ، والذين عُرِفَتْ بهم جزيرة العرب في الآماد السحيقة أيضاً .

وقد هاجر إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها اسماعيل إلى ديار العرب ، واستقر بهم المقام في هذا الجزء المعروف فيما بعد بتُهامة ، في الوادي الأجرد الذي بنيت به مكة بعدئذ ، وكانت منطقة مكة إذ ذاك قد شملها الجفاف كما شمل أغلب المناطق الأخرى ببلاد العرب ، وصوح نبتها وآضت بلقعاً خالياً خاوياً ، لا ماء فيه ولا كلأ ، ولا أناسيّ

وكانت قوافل عرب الجنوب تمر بهذه المنطقة في رحلاتها التجارية مابين الشام واليمن ، حاملةً الطيوب والصمغ والجلود ، وقد لاحَظَتْ قافلة عابرة من قوافلهم علامات الماء بها ، وأدهشتها المفاجأة ، إذ رأت هذه المرأة الوحيدة مع ابنها الرضيع ، فنزلت عليهما بالوادي ، وكانت (زمزم) قد صعد ماؤها الغزير إلى سطح الأرض ، حيث يمكن تناوله باليد المجردة ، وكان ذلك تكريماً من الله لإسماعيل ولأمه [1] .. وهكذا قُدّر لمكة أن تنشأ ، وقد يكون إنشاؤها مجدداً ، بدليل وجود البيت العتيق بها [2] ، (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) .. وهكذا قُدّر لمكة أن تقاوم طبيعة الجفاف المنبسطة على رفعتها ، وأن تبتدئ بهذه المقاومة الهائلة بعد شمول الجفاف لجزيرة العرب بأمد وجيز ، على ما نراه بتحفظ [3] فقد صرح ابن عباس رضي الله عنه في حديثه المرويّ عنه في تاريخ مكة للأزرقي أن العماليق كانوا يسكنون بمكة ، والأرض مخصبة ، والأنهار متدفقة ، ثم أمحلت فهجروها إلى اليمن ، ومن ثم جاءت اليها جرهم . ومجيء جرهم اليها معلوم أنه كان عقب قدوم إبراهيم بهاجر وإسماعيل ، إلى منطقة مكة . وبذلك كانت مقدمة عمرانها الثاني الذي استمر حتى الآن ، وما بعد الآن بأزمان مديدة إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر المؤرخ بطلميوس (القرن الثاني بعد الميلاد) مكة ، باسم (ماكوربا) .

ويرى أصحاب تاريخ العرب . مطول) أن : « هذا الاسم مشتق من الاسم السبئي : (مَكُوَرابا) ومعناه مقدس أو حرم ، وقالوا : إنه يستفاد من هذا الأصل أن مكة كانت في أول عهدها مقاماً دينياً ..

---

١ وقد يدل هذا على اقتراب زمن نزولها بوادي مكة ، من أوائل عصر الجفاف .

٢ و ٣ وما يستدل به على صحة هذه النظرية ما ورد في الأزرقي ص ٤٥ ، ج ١ .

إذن فهي مركز للعبادة يرجع عهده إلى ما يسبق محمداً عليه السلام بأزمان متطاولة »[1] . وهذا الذي قالوه ذو شقين .. فأما تأويل الاسم ، فاني أرى أن المؤلفين واهمون ، وأنهم تتبعوا حرفية آراء المستشرقين في التأويل ، فأصابوا في الجملة وأخطأوا في التفصيل . ذلك أني أرى أن بطلميوس قد حرّفَ ، بلهجته الاعجمية ، الاسم العربيّ ، الذي هو على ما أرى : (مكة الرب) .. أي بلد الله .. وقد تحول في الترجمة إلى ما ترى : (ماكورابا)[2] .. وجاء المستشرقون فتأولوا الاسم بأنه من اللفظ السّبَئي : (مكورابا) أي حرم ومقدس .. والاسم السبئي لا بدّ أنه (مكة الرب) أو (مكة أم رب) بقلب لام التعريف إلى (أم) على لهجة اليمن ، وقد سمع بطلميوس هذا الاسم من تجار العرب فنقله إلى لغته محرفاً ، كما ورد في سِفْرِ تاريخه ، وأضفى عليه المستشرقون المعنى المطلوب ، وإن فاتهم حقيقة التأويل والتفسير المنطقيين للصيغة ، لأنها نقِلَتْ اليهم محرفة مشوهة . وأما الشق الثاني فهو ما يختص بمقام مكة الديني ، وما قالوه ، يطابق ما جاء به الإسلام ، وصرح به القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فمكة بلد الله و « إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم » ..

هذا وقد كان من أثر الجفاف العام ، وضعف حكومات العرب في أنحاء الجزيرة ، خرابُ السدود العظيمة التي أقامها أسلافهم ، للاستفادة لزراعاتهم وصناعاتهم من السيول والأنهار على النحو الذي يجري بعد

---

١ ج ١ ، ص ١٤٤ .

٢ ومثل هذا ما يفعله العرب إذ ينقلون إلى لغتهم بعض الأسماء من أعلام وغيرها عن الأعجمية فهذا القليس الذي بناه أبرهة باليمن هو محرف عن (اكليسيا) اليونانية . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٣ .

ذلك في العالم . وقد أدرك التاريخ حقيقة خراب سد مأرب أخيراً وتحول حدائقه الغلب المتسلسلة إلى أرض قفر يباب ينمو فيها السدر والأثل والخمط ، مما هو مشاهد بها حتى اليوم [1] .. وقد انطلقت عوامل الخراب من قبل ذلك ومن بعده إلى سدود وفيرة كالسد المعروف بقرب الطائف بالسد السَّمَلَّقيّ ، وقد نتج ذلك عن انصراف السكان إلى اشباع بطونهم من لحوم الأنعام بشن الغارة على من يملكها من جيرانهم ولو كانوا ذوي قربى لهم ، وانتشرت الفوضى وعمّ الذعر وساد الفساد في الناس — بتناسي الأجيال السحيقة وبنسيان الحضارة المندثرة قبل عشرات القرون — وظنهم أن الجزيرة بلاد نشأت فطرة على البداوة وأنها لم يمر بها فيما مضى من عهودها طائف من الحضارة . وجاء دَوْرُ الإسلام ، فجمع الشمل المتشتت ووحّد الكلمة المتفرقة ، وصحح أهداف الحياة ، ومقاييسها ، فنعمت الجزيرة في صدر الإسلام بحضارة دينية ودنيوية مثالية .. والإسلام دين عام خالد ، وبُنَاتُهُ كانوا يريدون أن تنتشر أنواره في كافة أرجاء الأرض التي أظلها عهد رهيب من الاستعباد والشرك والطغيان والفوضى . ولذلك أقبل حماة الجزيرة وكفاتها وبناة مجدها إلى الفتوحات في شرق الأرض ، وغربها ، وفي شمالها ، وجنوبها . فأثّر ذلك في كيان هذه البلاد ، وعادت إلى الانكماش وعادت اليها الفوضى ، وعمّها الخراب ، وتقلّص بها العمران ، بعد أن استرجعته في عهد غير مديد .. وقد طُمِرَتْ أسباب المدنية بها ، وخربت السدود المنشأة ، وتقوضت الزراعة ، وشُلّت الصناعة بها قروناً مديدة ، حتى خال العالم مرة أخرى أن هذه البلاد مَقْضي عليها بالتأخر والاضمحلال إلى الأبد ، وأن لا أسباب فيها للنهوض العمراني الاقتصادي الاجتماعي ، ونسي العالم ما كانت تفيض به في عهدها

---

[1] في كتاب « رحلة في بلاد العربية السعيدة » لنزيه مؤيد العظم ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، رسوم فتوغرافية لشجيرات الخمط والأثل والسدر بسد مأرب .

السحيق قبل التاريخ ، من زراعة وصناعة ومعادن وحضارة هي نواة الحضارة العالمية ، وتناسوا أيام مجدها الإسلامي ، وازدهار الحياة فيها ورخاءها وانتظامها .

واليوم ، بعد نحو ألف عام من نهوضها العمراني والاقتصادي ، يعود اليها رونقها ، بما استتب في منطقتي قلبها ورئتها : (الحجاز ونجد) من أمن وارف شامل وطمأنينة عامة على يدي بطل الجزيرة (الملك عبد العزيز آل سعود) رحمه الله . وها هي ذي تعود إلى الابتسام لسكانها ، بعد عبوس طويل ، وها هي ذي قد بدأت تكشف لهم عن مكنوناتها الثمينة ومخبآتها القيمة ، من معادن ومناجم ومياه ، وحضارة عريقة مطمورة . وقد جادت لنا بالذهب الأسود ، وها هي ذي تستعد للكشف عما استقر في أعماقها القريبة والبعيدة من مياه ثرة عذبة أودعت تحت تربتها الذهبية إرهاصاً لجودها بالذهب الأخضر من حبوب وفاكهة وثمار ، ونحن على رجاء من الله تعالى أن يديم ظلال هذا الأمن الوارف ، لتسير قافلة الحياة لدينا في موكبها التقدمي هذا ، حتى تصل بنا إلى منزلة سامية من الحضارة الصالحة الراشدة تعج فيها المصانع بالإنتاج المدنيّ والحربيّ الضخم ، وتنتشر فيها المزارع والحقول حتى تتحول بها الصحارى الواسعة إلى جنان خُضْرٍ متلاصقة [1] .. وتستخرج فيها معادنها ومناجمها الثرة الوفيرة بأحدث الوسائل وأنجع الأسباب .

تصنيف الآثار في البلاد العربية السعودية

لعل من المناسب ، أن أومىء إلى الباعث الذي دعاني لأول وهلة ،

---

١ يقول كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي : إنه من الممكن العثور على مياه عذبة في أرض المملكة السعودية ، وتحويل صحاراها إلى أراض خصبة . كما أن البحوث دلت على امكان تحويل معالم الجزيرة العربية في المستقبل .

للعناية بالآثار ، بالذات ، وذلك أنني كنتُ ذات أمسية حضرت إلى مجلس الأمير عبد العزيز بن إبراهيم وكيل أمير المدينة المنورة رحمه الله ، فوجدتُ لديه المستر عبد الله فيلبي (سانت جون فيلبي) وهو منهمك في الحديث اليه عن تحقيقاته الأثرية في منطقة جبل أحُد بالمدينة المنورة ، فقلت لنفسي : ما ينبغي أن يأتي الينا مثل هذا الرجل ، ويحقق آثار المدينة المنورة وغيرها ، ثم ينشر تحقيقاته باللغة الانكليزية ، ثم نحتاج إلى ترجمتها باللغة العربية .. كان هذا أول دافعٍ لي في طريق تتبع الآثار . أو بالمعنى الأدق ، في هواية علم الآثار .

* * *

والآثار في هذه البلاد متوافرة ومتنوعة ، وكثرتها آتية « من الأمم الخوالي » التي استوطنت هذه البلاد ، منذ التاريخ السحيق ، ثم جاء الإسلام ، وكثرت آثار الإسلام .

وقد هُيىء لي أن أصنف آثار هذه البلاد تصنيفاً يحصرها في اطار محدود ويجعلها للباحث على طرف الثمام .

وها هي ذي جمعاء بحسب « التصنيف » المشار اليه :

١ – الأماكن الدينية والتاريخية .
٢ – المقابر والهياكل والشواهد والأعلام .
٣ – البيوت والمنازل والقصور والآطام والحصون .
٤ – الزخارف .
٥ – الأدوات الحجرية .
٦ – المناجم والمعادن .
٧ – السدود والعيون والآبار والصهاريج والبرك .

٨ — المصانع والمزارع والأدوات الصناعية والزراعية .
٩ — أدوات المنازل والزينة .
١٠ — الخطوط الأثرية المسطورة والمنقورة .
١١ — الكتب والحجج والوثائق .
١٢ — الثياب والفُرُش .
١٣ — أدوات الحرب والألعاب .
١٤ — الصور المختلفة .
١٥ — المرافق المختلفة .

وقد دلنا الاستقراء على أن الأماكن الدينية المأثورة وخاصة المساجد هي التي أسبغ عليها علماء الإسلام ومؤرخوه ورحالوه اهتماماتهم التحليلية فوصِفَتْ وعُرِّفَتْ بمختلف الأقلام في مختلف العصور ، حتى إن بعض الهواة منهم قد قاموا بتصويرها ، رأيتُ صورة للمسجد الحرام قديمة ، وصورة قديمة للمسجد النبوي ، ولمسجد قُباء . وصور قدماء المؤلفين الحجرة النبوية الشريفة وأوضحوا مخططها .. ومن هؤلاء السمهودي في وفاء الوفاء الذي أخذ بعض صورها ممن تقدموه .

وآثار المقابر والهياكل والشواهد والأعلام ، موجودة بكثرة في البلاد المقدسة . وقد تُظْهِرُ الأحافير المعتادة لمختلف الأغراض العمرانية بعض المطمور من هذه الأمور .. وفي الجبل المتوهج بجنوب المدينة المنورة مقابر للعمالقة ممددة هياكلهم فيها لليوم ، وهذه المقابر أشبه بالآبار المنقورة المقبية ..

وفي منطقة بئر رومة شاهدتُ بعض هذه المقابر الضخمة الهياكل ، وفي منطقة تيماء ، والطائف ، ومدائن صالح ، ونواحي جازان ، وطريق زبيدة — كثير من هذه الآثار . وقد جُلِبَ إلى دار آثار جدة

شيء يدل عليها ، وفي مكة شواهد عتيقة مكتوبة باللغة العربية ، وفي الوهط بالطائف ، شاهدت شواهدَ مقابر آل العاص .. ويقال إنها فقدت الآن ..

وحدّثتْ عن البيوت الأثرية والمنازل والقصور والآطام والحصون في البلاد المقدسة . وإني لأذكر أن حارة الأغوات بالمدينة تحوي بيوتاً من القرن السادس الهجري ، انخفض مستواها كثيراً عن الشارع العام حتى إنها ينزّل اليها بسلّم حجري .. وفي مكة بعض بيوت قديمة ، منها : الجعفرية ، والبياضية والقلاع التي على أعالي جبالها . وأقدم بيوت جُدّة يرتفع إلى القرن الثاني عشر الهجري ، وبها لا يزال برجٌ من بقايا سورها القديم بشارع الميناء يقف اليوم وحيداً على نهد من الأرض .

وفي المدينة قصر سعيد بن العاص ، بني في القرن الهجري الأول [1] ، وما زالت أطلاله شاخصة .. وبها أطُمُ الضحْيان ، بني في أيام الجاهلية وبها حصن كعب بن الأشرف ، وقد بني كذلك في عصر الجاهلية .

وتوجد الصور المنقورة في الصخور بجبال الحجاز ومشارف طرقه وبجوانب أوديته .. وقد ألف المهندس عثمان رفقي رستم كتيباً في هذه النقوش ترجمه إلى العربية السيد أحمد شطا ونشرته مجلة المنهل على نفقتها ووزعته على مشتركيها مجاناً [2] .

ومن الصور التاريخية المنقورة تلك الصور لمحارب عربي دارع على صخرة بقرب السيل الكبير في طريق الطائف القديم .

وفي الصويدرة (الترعة) بشرق المدينة المنورة صخور ملس حشدت

---

١ بعد عمارة قصر الضيافة بالعقيق ادخل قصر سعيد بن العاص في حائطه .

٢ كان ذلك سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م واسم الكتيب : (النقوش والآثار في صخور الحجاز)

فيها صور عربية تمثل لنا حياة العرب في أزمان الجاهلية ، والحيوانات التي كانت موجودة بمنطقة الصويدرة قديماً ، ما بين إنسية ووحشية ، وبينها حيوان منقرض . وترى الهوادج وعليها النساء ، والخيل وعليها الفوارس ، والأنعام وهي ترعى ، وترى حيواناً من حيوانات ما قبل التاريخ .. إلى جانب خط ثمودي منقور على تلك الصخور ببراعة فائقة ..

وتوجد النقوش الثمودية والنبطية في مختلف الأماكن في هذه البلاد ، خاصة في الشمال والشرق والجنوب . في مدائن صالح ، وتيماء ، وشرق جدّة .

وفي جبل سلع بالمدينة المنورة أثر خطي حقق بعض علماء الآثار أنه من خط الصحابيين الجليلين : أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وفي وادي رَانوناءَ صخرة ملساء ضخمة سجل عليها شاعر عربي في صدر الإسلام ، الحياة في ذلك الوادي القاحل اليوم ، ووصفها بالخصب والجمال في عهده .

والأدوات الحجرية الأثرية في هذه البلاد متوافرة ، منها ما هو ديني كالحجر الأسود ، ومنها ما هو تاريخي ، ومنها ما هو عمراني سجل عليه ذلك في وجهات مدارس وأربطة وقصور .

وفي العقيق أطلال بيوت أثرية أعتقد أن في باطنها بعض أدوات منازل القوم ، في صدر الإسلام ، وبعض ما يتصل بحياتهم من مرافق مختلفة ، وبالفعل فإن الشيخ محمداً الحافظ أحد قضاة المدينة المنورة قد حفر بعض أسس بيت قديم يمتلكه بجوار بئر عروة في العقيق لتجديد بنائه أو لزرعه فوجد أدوات زراعية ، منها قنوات حجرية للماء ومنها بوتقة من الآنك (الرصاص) وبعض أرْحية وغير ذلك . وكذلك في

المكان المعروف . (زرْب الكتمة) في عالية المدينة عثرتُ على أرحية وحجارة رخوة بيض مزخرفة وغيرها . وقد أظهر البحث العلمي المبدئي أنها عريقة في القدم .

والمناجم والمعادن طافحة بها البلاد .. ومنها المنجم الذي يقع بقرب المدينة المنورة ، والذي أرخص الذهب في العالم لما فتح في أوائل عهد الإسلام . وقد كتبت مؤلفات عن هذه المعادن ، من أهمها : كُتيب (بحث المعادن) لرشدي ملحس .

وتوجد سدود وافرة قوية خالدة في المناطق الزراعية وغيرها كمكة وكالمدينة ، والطائف ، أذكر منها سَدّ الخنق ، وسد الحمّاء ، وسد رانوناء في المدينة وسد السملقي في الطائف .

والعيون توجد كذلك في هذه البلاد ، وهي بمثابة الأنهار في غيرها ومن أهمها عينا زبيدة والزرقاء بمكة والمدينة قديماً ، وعين خليص ، والعين العزيزية النابعتان من خليص ووادي فاطمة واللتان تسقيان حديثاً مدينة جدة ، وعيون شمال المدينة ، وعين خيبر ، وعيون وادي فاطمة وعين تبوك وعيون ينبع .

والآبار الأثرية أكثر شيء في البلاد ، فقد كان عليها المعول في الشرب بمكة والمدينة زمن الجاهلية ، وفي صدر الإسلام ، وأهمها بئر زمزم ، في مكة ، وبئرا رومة وأريس ، وغيرهما في المدينة المنورة .

والصهاريج والبرك قديمة الوجود في هذه البلاد .. فالصهاريج لسقي الناس من فائض الأمطار ، والبرك لسقي الزروع والأنعام من ماء العيون وماء الأمطار .

ومن أقدم الصهاريج ، صهاريج جدة . وَصَفَها مؤرخ عاش في القرن الهجري الرابع . ومن أقدم البرك ، بركة الزبير في المدينة وبركة

ماجل في مكة .

وفي البلاد مصانع قديمة مما يدل على مدى انتشار الصناعة فيها إذ ذاك . ومن أهم هذه المصانع ، مصانعُ الزجاج في مكة ، ومصانع الخزف والفخار فيها ، وفي المدينة المنورة . وقد بقيت أطلال بعضها إلى عهد قريب . وفي الجار (البُريكة) جنوب غرب بدر أطلال مصانع الزجاج والخزف كما حدثتني به مستشرقة سويسرية زارت هذا الميناء أخيراً . وكذلك في الجهة الشرقية للمدينة توجد أطلال مصانع بعض آثارها وإنتاجها باق لليوم [1] .

ومن المزارع الأثرية ، مزرعة الزبير بن العوام رضي الله عنه ولا تزال معروفة موجودة بأطلال جداولها وبركتها الكبيرة وأطلال منازلها . ومزارع وادي فاطمة ، والطائف وينبع .

وكثيراً ما يعثر الناس في الأحافير العمرانية المعتادة على مصابيح فخار للزيت مطمورةً في أعماق الأرض ، وعلى صحون فخار وملاعق ، وسكاكين ومحاريث . وقد شاهدنا بعض هذا في أحافير مدرسة العلوم الشرعية ، وبستان الطرناوية بالمدينة المنورة .

والخطوط الأثرية المسطورة المنقورة ، توجد في هذه البلاد كذلك بكثرة . ومن المنقورة ما أسلفنا بعضه ، ومن المسطورة ذخائر الكتب القديمة الموجودة في بعض الخزائن العامة للكتب في مكة والمدينة ، وبعض المصاحف الثمينة . وقد اطلعت لدى الشيخ صالح قزاز في مكة المكرمة على « مُدّ » نبوي من النحاس الأصفر عليه خطوط عتيقة للتعريف بالمد النبوي .

وإن ننس لا ننس تلك الحجة الشرعية المنقورة في صخرة ضخمة ملساء بخط نسخ جميل جداً كانت في غرفة من غرف رباط سيدنا عثمان في الهجلة

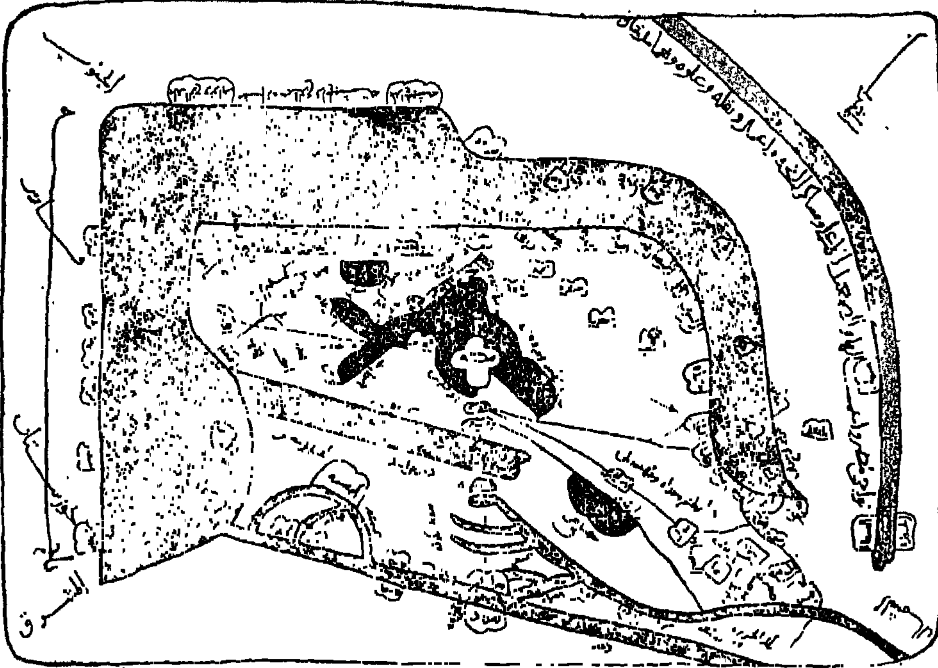
---

١ في رحلتينا إلى الجار في ٢٠ صفر ١٣٩١ هـ ، الموافق ١٦ ابريل ١٩٧١ م ، وفي ١٢ ربيع الأول ١٣٩١ هـ ، الموافق ٧ مايو ١٩٧١ م وجدنا قطع زجاج وخزف إسلامي قديم متناثرة فوق التلال والوهاد هناك ولكننا لم نر أطلال مصانع الزجاج والفخار في الجهة الشرقية للجار (البريكة) كما تحدثت به الينا المستشرقة السويسرية .

بمكة .. وقد نقلها مشروع توسعة المسجد الحرام إلى مكان آخر وموضوعها تسجيل وقفية الرباط نفسه في القرن السابع الهجري .

وفي المدينة كانت قد أجريت أحافير في المناخة ، فكشفت عن هوة كبيرة واسعة جداً ، فإذا بها منازل لقوم بادوا ، ولا تزال ثيابهم معلقة على حبالها في بعض غرفها ، ولكن بمجرد أن لمستها الأيدي تناثرت كما يتناثر الهباء .

ولا تخلو البلاد المقدسة من أدوات الحرب القديمة .. كالسيف والخنجر والرمح وما أشبه .. وقد كان برباط سيدنا عثمان بالمدينة المنورة خزائن خشبية لعلها من الآبنوس ، منقوش عليها انها من خزائن بني العباس .. وكان بها الكتب الموقوفة على الرباط ، ولا أدري أين هي الآن .



خريطة ابن حوقل لبلاد العرب وبها مدينة الجار

آثار مَكّة المُكَرَّمَة
وَمَا حَوْلَهَا

آثار مكة المكرمة

ليست هذه الحولة ، بالأولى من جولات هذا القلم في ميدان « آثار مكة » فقد كنت كتبت مجلّدةً لطيفة على حد تعبير الأقدمين ، وأسميتها : « التحقيق المدعم في مسجد الراية وبئر جبير بن مطعم »[1] . وآثار مكة منتشرة وفيرة ، يكتنف أكثرها من قديم ، الغموضُ وعدم التحديد الفني الدقيق ، وقد عُنِيَ المؤرخون والرحالون والعلماء قديماً وحديثاً بالحديث عنها ، حديثاً أكثره دينيٌّ ، وأقله أثري . وفيها المساجد ، وفيها الدّور والآبار والعيون والجبال والأودية والشواهد والحجارة المنقوشة توضع على أبواب الدور والاماكن الأثرية ، وكثير من هذه الحجارة قد انطمس من البِلَى ، وكثير منها أزيل عن مواضعه ، بعد أن تغيرت المعالم وجُددت العمارات .. إلى غير ذلك من ألوان الآثار .

و« آثار مكة » من هذه الناحية تشبه تماماً « آثار المدينة » .. فإنها يمكن أن تقسم وأن تبوب إلى الأقسام ، وإلى الأبواب الآنف ذكرها .

---

[1] هذه الرسالة كتبتها استجابة لطلب المرحوم عبد الله السليمان حينما كان وزيراً للمالية في عهد المغفور له الملك عبد العزيز ، وقد تناولها مني بطريق الشيخ محمد سرور الصبان بعد أن جلدتها ولم أرها بعد ذلك . واني لآسف إذ لم أترك لها عندي مسودة يعتمد عليها.

ولكني لاحظت أن في مكة شكلين متقاربين من الآثار ، أو شكلاً متحداً ذا لونين منها .. ويتمثل هذا النوع في هذه الحجارة التي سُجلت عليها بعض الأحداث الخطيرة وبعض المراسيم الهامة ، وسواء أكانت هذه الحجارة أعمدة أم كانت صخوراً هائلة من طراز الصخرة التي وصفها الشاعر بقوله :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَضِرْها وأوهي قرنه الوعلُ

أعمدة بالمسجد الحرام بها تسجيل بعض المراسيم

وقد علمتُ أن من أعمدة المسجد الحرام المرمرية ، ما اتخذ صحيفة لتسجيل بعض المراسيم السلطانية في القرون الخالية . وقد يبدو هذا النوع من الآثار غريباً على هذه الديار ، وهو في حد ذاته يدلّ على عناية القائم بالأمر يومئذ بإشاعة العدل بين الرعية ، وهو من الوجهة الفنية أو الأثرية — على أدق تعبير — يدل على عناية رئيس الدولة يومئذ بتخليد أوامرها المهمة على مدى الأيام ، شأنَ الملوك كبار الهمم العادلين . وقد نقشت هذه المراسيم التي تختص بشؤون الأمم الإسلامية القادمة إلى الحجاز من أجل أداء فريضة الحج ، في مكان مقدس يسمو عن أن تناله أيدي الأهواء ، وأن تتناوله يد السياسة القُلّب الظلوم .. ألا وهو المسجد الحرام المقدس لدى الجميع على السواء .

حجة شرعية على صخرة كبيرة

وفي مكة كذلك صخرة هائلة محفوظة طيلة ثمانية قرون لم يتطرق اليها حكٌ أو خدش أو أي تغيير أو تبديل ، وقد نُقش على سطحها الذي جعل أملس براقاً ، إثباتُ الوقفية لدار معروفة قديمة ، هي رباط سيدنا

عثمان بمكة ، ووضع على بابها – أي الدار – حجر مسنّ نقش عليه خط جميل ، يحوي ما تحويه زميلته الكبرى الصخرة الهائلة من وقفية للدار . وإذا نظرنا إلى هذه الفكرة من الناحية الأثرية العلمية فانها لتدلنا على مبلغ تحوط القوم من امتداد أصابع التلاعب مدى القرون القادمة إلى هذه الوقفية بتسجيلها ، خلافاً للمألوف ، على صخرة صماء غير قابلة للتنقل أو للتلاعب أو للضياع .. هي فكرة جليلة وإن كانت تبدو غريبة في بابها غرابة تستجلب دقة نظر الباحثين من علماء الآثار . وقد شاهدت متاحف الآثار في مصر فلم أجد نظيراً لصخرتنا هذه المنقطعة النظير في العصور الإسلامية المختلفة .

إن تسجيل مثل هذه الأمور الفردية على الصخور دليل على الوعي العميق لأحداث الزمان ، ومفاجآته ، ودليل على العزيمة الصادقة .. وليس رجوعاً إلى العصور الممعنة في القدم ، أو تقهقراً من العالم الإسلامي في مطلع القرن السابع الذي نقرت فيه الصخرة ، إلى عصور الظلام ، فإن نقش الحوادث الخطيرة على الصخور أمر جرى به العرف في القديم وفي الحديث أيضاً ، كما هو معروف . والفائدة المتوخاة من ذلك هي التخليد بقدر الإمكان .

هذا وإن أقدم الآثار الباقية في « مكة » على عمارتها الأولى ، لا يرتقي به الزمن ، فيما أعلم ، إلى ثمانية قرون باستثناء الكعبة المشرفة ، بعكس « المدينة » ففيها من العمارات ، أو من الأطلال على التعبير الدقيق ما يسمو إلى أربعمائة عام بعد الألف . وقد أشار المستشرق بركهارد السويسري في بحثه المترجم بمجلة « المنهل »[1] عن أسباب ذلك حيث قال ما ملخصه: « إن هذا الضعف في عمارات مكة ناشئ من عدة أسباب ، منها : جهل

---

[1] في سنة ١٣٦٦ هـ – ١٩٤٧ م .

البنّائين فيها إذ ذاك ، بأسلوب البناء القوي الذي يعمر طويلاً . ومنها أن أرض مكة رملية يسرع فيها البناء إلى التداعي ، لتطرق الخلل إلى أسسه وعدم استقرارها في الأعماق ، بسبب أن أرضها بطحاء في الغالب. ومنها كثرة السيول التي تهبط من الجبال كأفواه القرب دواماً فتترك الأبنية في ضعف عام» . وقد قال مثل هذا عن عمارات المدينة ، وعزا سرعة تداعيها إلى رطوبة أرض المدينة وملوحتها. ومع تأييدنا لنظرية رطوبة أرض المدينة وملوحتها ، وأن ذلك من أهم أسباب عدم امتداد أجل العمارات بها ، امتداداً طويلاً ، إلاّ أن لنا أن نناقشه بأن في المدينة مناطق غير رطبة ولا ذات ملح ، هي العقيق ، والحرار المحيطة بالمدينة . وفي العقيق والحرار توجدُ الآن ، قائمةً ، أطلال قصر سعيد بن العاص من قبل ثلاثمائة وألف عام ، وأطلال حصن كعب بن الأشرف ، وأطُمُ الضحيان من قبل أربعمائة عام بعد الألف .

آثار مطمورة

وفي مكة آثار كثيرة من دور ومساجد ورباع (محلات) عَفّتْ على بعضها حوادث الزمان . فكثيراً ما حدث أن غَيَّرَ قائم بعمارة خاصة معالم دار أثرية أو غيرها ، بحكم ملكيته لها ، فيضيع الأثر مع توالي الأجيال . وأكثر الآثار المعروفة وضوحاً الآن ، خلاف الآثار المتعلقة بالعبادات من الحج والعمرة ، هي ما يتصل ببني هاشم ، وبني أمية ، وبعض الشخصيات البارزة في الجاهلية والإسلام .

سوق عكاظ

سنحاول تحديد الزمن الذي بدئت فيه سوق عكاظ ، والزمن الذي ولدت فيه . وتحديد ظرف انتهائها أيسر بكثير من تحديد وقت ابتدائها، لأن ابتداءها كان في عصر الجاهلية العربية الأخيرة أو الثانية على تعبير أدق . وهذا العصر قلما يظفر فيه الباحث بشيء محدد التاريخ ، وأما زمن انقضائها فقد كان في صدر الإسلام الذي كان يعنى فيه بوضع تواريخ للأحداث الكبار .

من المعروف أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان في عام الفيل ، وهو يوافق سنة ٥٧٠ – ٥٧١ م .

وبعثته عليه السلام كانت على رأس الأربعين من مولده ، وهي توافق سنة ٦١٠ م . وقد حدّثنا المؤرخون وكُتّابُ السيرة النبوية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد شهد (المجتمع العربيّ العُكاظيّ) وهو غلام حدث ، وراقته ، وهو في هذه السن المبكرة ، تلك الخطبةُ الرائعة التي كان موضوعها على خلاف سَنَنِ موضوعات خطباء عكاظ من فصحاء العرب ومفوهيهم ، إذ كانوا يخطبون في المفاخرة والمنافرة وما أشبه من شؤون الدنيا .. أما هذه الخطبة العجيبة الفذة في بابها التي ألقاها الشيخ السمح الحكيم : (قَسّ بن ساعدة) الأياديّ وهو على

جَمَلِه الأورق ، في حشد من عرب عكاظ ، ونبّههم فيها إلى ما هم فيه من ضلال عقَديّ وفكريّ واجتماعيّ كبير ، فقد بقي أثرها ذا جذور عميقة في نفوس القوم ، وبقيت عالقةً بذهن الرسول عليه السلام ، طيلة حياته . وجاءت مناسبة الإشادة بها يوم أقبل عليه وفد إياد ، في عام الوفود ، فسألهم : ما فعل قس بن ساعدة ؟ فقالوا له : مات يا رسول الله ! فحدّثهم عن ذكراه له ، وقال : كأنّي أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدني أحفظه .. فلما قال له أحدهم : إنه يحفظه ، وتلاه بين يديه ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله قساً ، إني لأرجو أن يُبعث يوم القيامة وحده » .

كما حدثنا المؤرخون ورواة السيرة النبوية أيضاً حديثَ شهود الرسول عليه السلام لحروب الفجار التي اندلعت بين قريش وأحلافهم ، وهوازن وكان ابن أربع عشرة سنة أو خمس عشرة أو عشرين إذ ذاك .. وقد سرد لنا صاحب كتاب (أسواق العرب) هذه الروايات ، وارتأى أن التوفيق بينها ، يتم إذا قررنا أنه صلى الله عليه وسلم ، حضر أول حروب الفجار وهو ابن أربعة عشر عاماً ، وآخرها بعد ذلك وهو ابن عشرين [1] فتكون حروب الفجار وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاماً ، أي سنة (٥٨٥ م) .

ويروي لنا أبو الوليد الأزرقيّ في كتابه (أخبار مكة) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لبِثَ بمكّة يتبع الحاج في منازلهم ، في الموسم ، بمجنة وعكاظ ومنازلهم بمنى ويقول : « من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربّي وله الجنة ؟ »

---

١ كتاب أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، لسعيد الأفغاني ، ص ١٦٥ ، الطبعة الثانية بدمشق .

فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره ، حتى انَّ الرجل يرحل صاحبه من مضر أو اليمن ، فيأتيه قومه أو ذوو رحمه ، فيقولون : «احذر فتى قريش لا يفتنك ...» .. يمشي بين رجالهم (رحالهم) يدعوهم إلى الله عز وجل فيشيرون إليه بأصابعهم حتي بعثنا الله عز وجل من يثرب الخ» والكلام لجابر بن عبد الله .

ويقول حديث آخر : إن الخنساءانحدرت بهودجها إلى عكاظ ، لتسجل فيها ، رسمياً ، أنها أعظم العربيات مصيبة ، بمن قُتِلَ في إحدى المعارك القبلية ، من والدها سيد العرب : عمرو بن الشريد ، وأخويها : صخر ومعاوية ... وظلت على غشيانها لسوق عكاظ بهودجها نادبةً باكية كل عام ، حتى كان عام بَدْرٍ ، فنافستها هند بنت عتبة في الإعلام في عكاظ بمصيبتها العظمى ، بمن قُتِلَ يوم بدر من أبيهـا وعمها وأخيها .

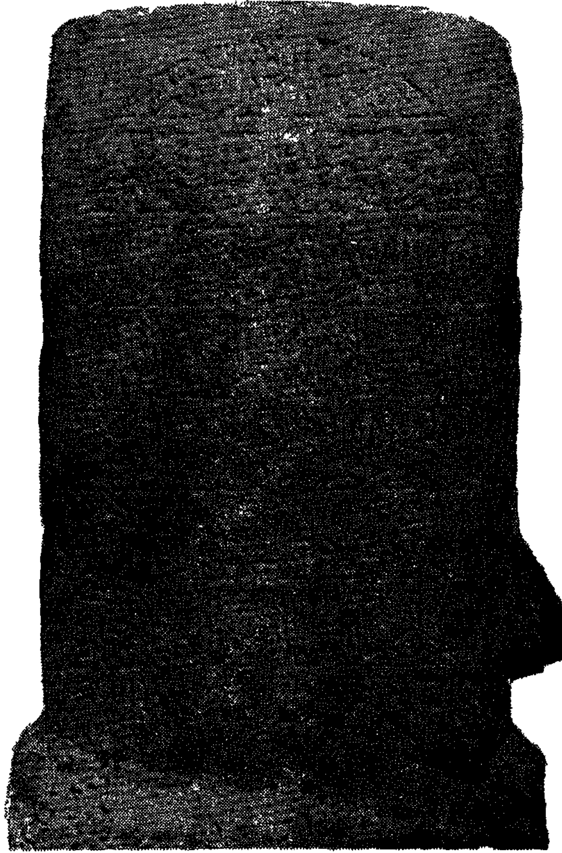
فإذا ضممنا هذه الأحاديث إلى بعضٍ ، ودرسناها ، أمكننا أن نخرج منها بنتائج إيجابية ، جزئية ، وهامة ، لقضية التحقيق في ماضي سوق عكاظ في بدايتها وفي ذروة نشاطها الذي تلاه انهيارها ، وانقضاؤها . ونستطيع أن نقول ، استنتاجاً من الروايات المسرودة آنفاً ، إن سوق عكاظ كان نشاطها كبيراً ، مشهوراً ، واسمها ونفوذها مدويين في أرجاء جزيرة العرب ، وتأثيرها في عقلياتهم ومجتمعاتهم واحوالهم طيلـة حياة الرسول عليه السلام كان أمراً مرموقاً وملموساً .

ذلك أن وفود العرب وفدت إلى الرسول (ص) في العام العاشر للهجرة ، ومنهم وفد إياد من قوم قس بن ساعدة الأدنين .. ومشهد وقفة جمله الأورق بين جموع عرب عكاظ ، وخطابه البليغ ذو النكهة العبقة بينهم لم يزالا ماثلين في ذهن الرسول ، حتى بعد أربعين عاماً من حدوثها .. وقـد ذَكّر بها قوم قس الوافدين اليه بعد ما انتشرت أضواء الإسلام في شتى

أنحاء الجزيرة .. وكان بعضهم يحفظ الخطاب ، مما يدل على عمق أثره في نفوس القوم ، على بعد واقعهم من أهدافه إذ ذاك .

وإذا فرضنا أن الرسول شهد قساً وعمره فوق العاشرة مثلاً ، فيكون عام الوفود بعد نحو خمسين عاماً من حداثته المبكرة ، لأنه كـــان في سنة ١٠ هـ .

كما أن تقديمه النّبْلَ في حروب الفجار لقريش ، وهو ابن أربعة



نقش أثري عثرت عليه بعثة صحفية سعودية بمنطقة عكاظ

عشر عاماً إلى عشرين ، يدل على ازدهار عكاظ في تلك الحقبه من الدهر .

ووفود هند بنت عتبة على عكاظ عقب معركة بدر منافسة للخنساء في (الإعلام) والتعريف بعظم مصيبتها ، هو الآخر يدل على أن عكاظ كانت حتى ذلك الوقت وهو من بعد الهجرة النبوية — مرجع قضايا العرب الكبرى ومناط آمالهم وآلامهم ، ومعرضهم الكبير لإذاعة آمالهم وآلامهم في الحياة .

هذا وكل ما أوردناه فيما سبق ، هو طرف من البحث ، أردنا من ورائه تحديد بعض نقط ازدهار سوق عكاظ ، مما له مساس وصلة بعهد الإسلام الأول . ونضيف إلى ذلك ما رواه المؤرخون من أن مبدأ إسلام الأنصار لم ينشأ من مِنىً بموسم الحج ، وإنما نشأ من سوق عكاظ نفسها ، حيث ظل النبيّ عليه السلام يعرض الإسلام كل عام على كل الوافدين إلى عكاظ من قبائل العرب ، قبيلةً قبيلةً ، حتى هدى الله به بعض بني قَيْلَةَ هؤلاء ، وهم وافدون إلى عكاظ ، فآمنوا به ورجعوا إلى بلدهم (يثرب) وأعلنوا الإسلام به ونشروه فيه ، ثم كانت بيعة العقبة .

وبعد المقدمات السالفة ندخل في صلب الموضوع .. وهو تحديد افتتاح سوق عكاظ ، واختتامها .. ومن أهم من تعرضوا لهذه المسألة سعيد الأفغاني في كتابه (أسواق العرب) . يقول : « لسنا نعلم لهذه السوق بداية محدودة ، إلا أننا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلاديّ » .

وعلى هامش هذا الرأي نسجل تخبط المراجع القديمة والحديثة في هذا الشأن .. فالألوسيّ ، وفريد وجدي ، والاسكندريّ ، والعنانيّ ، والدكتور محمد حسين هيكل ، اتفقوا على أن عكاظ افتتحت بعد عام الفيل بخمس

عشرة سنة .. وينقض هذا الرأي ما روي من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان ينبل على أعمامه في حروب الفجار ، وعمره أربع عشرة سنة ، أي بعد عام الفيل بأربع عشرة سنة .. إذ معنى هذا ، أن حروب الفجار وتقديم الرسول لقومه النبل فيها ، كانا قبل وجود عكاظ بسنة مع ان حروب الفجار كان منشؤها من عكاظ نفسها كما هو معلوم . هذا تناقض واضح .. وجاء سعيد الأفغاني لنا بدلائله التي تقرر ان افتتاح سوق عكاظ كان قبل حروب الفجار بأمد مديد مثل المراة التي باعت السمن بعكاظ وتزوجت بعبد شمس بعد ذلك . ومثل عمرو بن كلثوم الذي انشد قصيدته بعكاظ وكان عائشاً حول سنة (٥٠٠م) . كما ان ولاية عشرة قضاة متتابعين للقضاء في عكاظ قبل الإسلام يدل على سبق زمنها بالنسبة للإسلام .. وبالنسبة لحروب الفجار التي حدثت قبل البعثة بربع قرن من الزمان .

هذا كل ما توصل اليه صاحب (أسواق العرب) من النتائج حول تحقيق زمن ابتداء سوق عكاظ .. وهي نتائج طيبة .. ونضيف اليها ما هو أكثر تحديداً وانطباقاً وتعريفاً بمبدأ نشأة هذه السوق التي أحدثت دوياً كبيراً في جزيرة العرب ، وحاولت — أدبياً راقتصادياً — جمع متفرقهم ، ونجحت في كثير من توحيد أوضاعهم الاجتماعية والبيانية والسياسية .. قبل الإسلام .

وهذا الذي نضيفه هو نتيجة دراسة فاحصة لحياة النابغة الجعدي ولبعض شعره ذي العلاقة الوطيدة بحياته المديدة وبسوق عكاظ ، معاً . ففي ديوانه[1] وردت خمسة أبيات هي :

قالت أمامةُ كم عمرتَ زمانة   وذَبَحْتَ من عتر على الأوثانِ

---

[1] ديوانه المطبوع حديثاً على نفقة علي آل ثاني .

ولقد شَهِدْتُ عكاظَ قبلَ محلّها	فيها وكنتُ أُعَدّ مِ الفتيانِ
والمنذرَ بنَ محرق في ملكه	وشهدتُ يوم هجائن النعمانِ
وعمرتُ حتى جاء أحمد بالهدى	وقوارعٍ تُتْلى من الفرْقانِ
ولَبِسْتُ مِ الإسلام ثوباً واسعاً	من سَيْبِ لا حرمٍ ولا منانِ

وقد شرح ناشر الديوان (محمد زهير الشاويش) هذه الأبيات شرحاً مفيداً مستطاباً دقيقاً ، إذ يقول : « إن حكم النعمان كان في القرن السادس للميلاد ، فيغلبُ على الظن أن النابغة أدرك أواخر القرن الخامس للميلاد . ثم قال : إن النعمان بن المنذر ولي قبل مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بأربعة وعشرين عاماً (٥٨٦م) وتوفي قبل مبعثه بسنتين .

وإذا نظرنا إلى أن النابغة الجعدي قد عاش نحو مائة وخمسين عاماً ،



طلل قديم عثرت عليه البعثة الصحفية بمنطقة عكاظ
ويلاحظ أن فيه ملامح من أطلال قصر سعيد بن العاص بعقيق المدينة المنورة

على أرجح الأقوال لدينا ، كان أكثر من نصفها في الجاهلية ، وأقلها في الإسلام (ودليلنا على ذلك من شعره أنه عاصر ثلاثة أجيال وأنه توفي في أواسط المائة الأولى للهجرة) .

وإذا أضفنا إلى ذلك قوله : إنه شهد عكاظ قبل افتتاحها في محلها الأخير ، وهو فتى .. أي إنه كان حدثاً في نحو عشر سنين .. أمكننا عندها أن نقول من باب التقريب : إن سوق عكاظ بدئ افتتاحها بمحلها في نحو سنة ٦٠ قبل مولده صلى الله عليه وسلم وهو يوافق سنة (٥١١) ، وهذا التاريخ لا يفترق عن التاريخ الذي حدده سعيد الأفغاني بكثير .

أما تاريخ انتهاء سوق عكاظ .. فيحدثنا التاريخ بأنه كان سنة ١٢٩ هـ حيث خرجت الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف في مكة في تلك السنة ، فنهبوا سوق عكاظ فَهُجِرَتْ إلى الآن [١] .

١ أسواق العرب ، ص ٣٤٣ ، الطبعة الثانية .

قبيلة بني سُليمٍ في التاريخ
أخبارها وآثارها

أولاً — المنازل والجبال والمعادن :

تقع منازل قبيلة بني سُليم ، في عهدها القديم والحديث ، بشمالي مكة بجنوبي المدينة بالناحية الشرقية من المدينة .

وتسمى منازل بني سليم أو منطقة بني سليم في المملكة العربية السعودية « منطقة الكامل » ، تسمية لها بأكبر قرية في وادي ساية التي جعلت أخيراً مقر إمارة المنطقة جمعاء .

وتبعد منازل بني سليم عن مكة بنحو ١٤٠ كيلومتر .

وكانت منطقة بني سليم من أعمال المدينة على طريق نجد .

ثم صارت فيما بعدُ ، تابعةً لإمارة مكة .. وإلى اليوم .

ويحدها شرقاً : وسطُ الحرة الحاجز بين قبائل سليم وقبائل مطير .

ويحدها غرباً : حجر ومغينية ، من قرى حرب .

ويحدها جنوباً : ضواحي غراب والبرزة .

وتقدر مساحتها تقديراً مبدئياً بنحو ستين ألف كيلومتر مربعاً .

ويشغل معظمَ مساحتها الأوديةُ الكبيرة والجبال الشامخة ..

وأوديتها الرئيسية اثنان : وادي ساية ، على وزن (غاية) ووادي ستارة .. وأولها أهم من ثانيها بالنسبة للسكان والقرى والمياه .

ويشرب أهل الواديين إما من العيون أو من الآبار . وعلى بعض آبارها مضخات حديثة .. ووادي ساية هو (وادي أمج) المعروف في الأدب .

ومن جبال منطقة بني سُليم جبال : شَرَوْرَى وشِعْرَى (بكسر الشين وسكون العين المهملة بعدها راء مفتوحة فألف مقصورة) على ما ورد في معجم البلدان ، وينطقه السُّلَمِيُّونَ اليوم : (شَعَر) (بفتح الشين والعين) ، والبُرُيْراء (بضم الباء الموحدة بعدها راء مهملة مفتوحة فياء تحتية فراء فألف فهمزة) . وأهم جبال المنطقة جبل شمنصير الشامخ الثريُّ بالمزارع والمياه .. وقد بقي اسمه العربيّ الأصيل على صحة النطق به حتّى يومنا هذا .

ومعدن « فَرّان » (بفتح أوله وتخفيف ثانيه ، وآخره نون) هو منسوب إلى فران بن علي بن عمر بن الحاف بن قضاعة الذين نزلوا على بني سليم ، فدخلوا فيهم وصاروا منهم . وهو معدن بني سليم . وبجوار المعدن كانت قرية كبيرة بطريق نجد فيها آبار وبرك ، وتقع على مائة ميل من المدينة ، وهي أيضاً لبني سليم .. وتستمد مزارع خُلَيْص مياهها الثرة التي يراد لها أن تصل إلى مدينة جُدّة أخيراً ، من ديار بني سليم [1] .

ومن معادن سليم : معدن الدهنج ، وهو حجر أخضر يُحْفَرُ عنه كسائر المعادن .

---

١ وصلت بالفعل مياه خليص في أنابيب إل مدينة جدة في عام ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٨ م فضاعفت من كمية المياه بها حتى تفجرت بعض الأنابيب من شدة ضغط المياه الوفيرة عليها، فسال الماء بالشوارع ثم أصلحت وجرى الماء فيها نميراً صافياً .

ويدلنا تحديد «صفة جزيرة العرب» للهمدانيّ ، لديار بني سليم ، على اتساع منطقة بني سليم وتعدد منازلهم شمالي المدينة وشرقيها .. فقد كانت من وادي القرى ، شمال المدينة ، إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي إلى الحرة .. أي حرة بني سليم المعروفة منذ عصر الجاهلية بالنسبة اليهم تغليباً ، وباسم «أمّ صبّار» ترهيباً ، وباسم حرة النار إرعاباً وتمثيلاً .

ثانياً — التاريخ :

قبيلة بني سُلَيْم (بضم السين المهملة) قبيلة عدنانية على القول الراجح المأخوذ به علمياً ، فجدها هو سُليم بن منصور الذي ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار جد النبي عليه الصلاة والسلام . ولا يمنع انتساب سليم إلى هذا الحد أن يدخل معها أقوام من العرب في منطقتها ويندمجوا فيها ، كما حدث فعلاً مع غيرهم من العرب مما رواه لنا التاريخ . وقد يكون ذلك حدث فيها لأوّل مرة في الجاهلية ثم استمر فيما بعد ، على عادة قبائل العرب من التداخل وقبول نزول غيرهم عليهم ثم اندماجهم فيهم ، واعتبارهم من القبيلة ذاتها .. كما كان لبني سليم جيران أدنون ، من غطفان ، قد يكون بعضهم دخل في بني سليم .

ولبني سليم في الجاهلية مكانة مرموقة وقد وهبها المنعة والقوّة أمران : كثرة عددها وحصانة مواقعها الطَّبعَية . فهم على حَرّة ، وفي قلب جبال مشمخرة، يصعب على الغزاة اقتحامها .. وقد حدّثنا أحد قطّان هذه الحرة : حرة النار ، وهو نابغة بني ذُبيان عن مدى اعتزازه بموطنه المنيع حينما قال عن نفسه من قصيدة :

أوْ أضَع البَيْتَ في سَوْداءَ مُظْلِمَةٍ
تُقَيِّدُ العَيْرَ لا يَسْري بِها السّاري

تُدافِعُ النّاسَ عَنّا حينَ نَرْكَبُهـا
مِنَ الْمَظالِمِ تُدْعى « أمّ صَبّارِ » !

ويعني بقوله : « سوداء مظلمة » ، حرة بني سليم التي سماهـا باسمها الآخر : « أم صبار » كما سماها في القصيدة نفسها باسم « حَرّة النار » وقد طابق الوصف الموصوف ، فالحرة حجارة سُودٌ محترقة ، مسنونة كأنياب أغوال .. لا تدع للخيل أو للإبل مجالاً إلى اقتحامها .. وكذلك لا يستطيع مشاة المقاتلين ولوجها ، فهي سور طَبَعِيّ حصين لمن تحصّن بها . ويذكر لنا كتّاب السيرة النبوية كيف تحصنت المدينة المنورة بحرارها الشرقية ، والجنوبية ، والغربية ، في غزوة الخندق .. فلم تبق ثغرة يُخشى أن يقتحم منها العدو المهاجم المدينة سوى الناحية الشمالية ، فحصّنها النبي صلى الله عليه وسلم بالخندق ، أخذاً برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه .

ويروي لنا التاريخ ، تقريراً لمكانة بني سليم ، بين قبائل العرب : أنهم تعرضوا لغضب النعمان بن المنذر ذات مرة ، فهاجمهم في عقر دارهم ، بجيش عرمرم ، سانده جيران بني سليم من غطفان ، ولكنّ الجيش النعماني والسّنَد الغطفاني كلاهما منيا بهزيمة منكرة سجلها عليهم تاريخ العرب في جاهليتهم .

وقد غزا الرسول عليه السلام ، بني سليم .. وأرسل اليهم بعض السرايا . وفي غزوته لهم لم يجد أحداً منهم ، ولم يقابله أحد .. كأنما أعدهم الله متكاملين للدخول في الدين الحنيف طواعية بدون أن يخسروا مقاتليهم .. ولما دخلوا في الإسلام كانوا من أخلص معتنقيه ، ومن ذوي النصيب الوفيّ في نصرته ، والقيام بدعوته .. ولا غرو فقـد كانت شوكتهم قوية وسليمة .. وقد كانوا في الجاهلية حلفاء لبني هاشم ، ولعل في هذا شيئاً مما حال بينهم وبين الاندفاع فيما اندفعت فيه قريش وأحلافهم

من عداوة النبيّ على طول الخط ، لأنهم كانوا في الجاهلية حلفاء بني هاشم معشره الأدنين . وكذلك كانت خزاعة الذين قال شاعرهم :

لا هُمَّ إنّي ناشِدٌ مُحَمّداً   حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا

وقد أسهمت سليم في الفتك بقبيلة بني عامر في سرية خالد بن الوليد . وتقارض شعراؤهم الشعر مع شعراء هذه القبيلة ، وكانت سرية خـالد هذه في عام الفتح .

ومما تفخر به بنو سليم أنّ النبيَّ قَدّمَ رايتهم على رايات غيرهم في استعراضه العظيم للجيش الإسلامي القويّ ، أمام أبي سفيان ، عام فتح مكة . وقد بلغت مقاتلتهم ، ألفاً في بعض الروايات التي تذكر لنا أن رايتهم كانت حمراء . والاحمرار في الرايات علامة على الصلابة والضراوة وسهولة سفك دم الأعداء .

وكان في بني سليم أبطالٌ مُعْلَمونَ ، وشعراء مُجيدون .. ومـن هؤلاء رئيس القبيلة ، المسلم : العباس بن مرداس .. فهو بطل معلم وشاعر فحل .

ومنهم الحجاش ، والخنساء : تماضر الشاعرة الذائعة الصيت .

وتفخر بنو سليم بأشياء منها : أنهم كانوا مع الرسول يوم فتح مكة وقدّم لواءهم على الألوية . ومنها أن عمر كتب إلى الكوفة والبصرة والشام ومصر : أن ابعثوا ، إليّ ، من كل بلد أفضله رجلاً .. فبعث أهل البصرة مُجاشع بن مسعود السلمي ، وأهل الكوفة عُتبة بن فرقـد السلمي ، وأهل الشام أبا الأعور السلمي ، وأهل مصر ، معن بن يزيد السلمي .

وشاركت بنو سليم في حروب آل الزبير وآل مروان ، وقتل منهم خَلْقٌ كثير .

وحينما استأثر الأعاجم بالدولة في عهد بني العباس انعزل بنو سليم[1] بالقفر الذي هم فيه الآن بين نجد والحجاز وأجلبوا على الحاج بالحرمين وتطاولوا على الناس بالشر من حول المدينة .. فعاثوا في أسواق الحجاز وأوقعوا بسكان الجار ميناءِ المدينة المندثر بقرب بَدْرٍ ، من بني باهلة وكنانة في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هـ ، فوجّه الخليفة الواثق اليهم « بَغَا » الكبيرَ .. على رأس جيش كبير ، لتأديبهم ، فَقَتَلَ خلقاً منهم وأسر .

ويخطئ ابن خلدون حين يقول : إنه لم يبق بأرض بني سليم باقية بعد نزوحهم إلى المغرب .

وحالف السلميون أبا الطاهر في فتنة القرامطة . كما حالفوا بنيه أمراء البحرين القرامطة . وتغلب جمهور من بني سليم على البحرين بدعوة الشيعة ، ثم طردهم بنو الأصفر السنّيون من البحرين، فلحقوا بصعيد مصر ، ومنها ساروا إلى إفريقية ، وهناك تصاهروا مع القبائل البربرية وامتزجوا بها .

وقد يكون المعتصمون من قبيلة بني سليم بديارهم الأصيلة في حرة النار ، قد تأثروا بأحوال الاضطراب السائدة إذ ذاك في ديار العالم الإسلامي ، فحاولوا أن يعرقلوا مسيرات الحجاج إلى بيت الله الحرام ، لأن طريق الحج كانت تمر بهم من العراق ونجد وما وراء العراق ، من المسلمين .. فقام بنو العباس بحملات تأديب وإصلاح ، لهم .. ويتمثل الإصلاح في دعم الأمن بديارهم بالنسبة للحجاج فقط ، وتركهم هم على حالهم الأعرابية من الفوضى والانحطاط العلمي ، والجهل الديني ، والجري وراء العادات القبلية التي أشدها ضراوة ، الأخذ بالثأر ، وممارسة

---

[1] في كتاب الفهرست لابن النديم وغيره من المراجع علماء وأدباء من قبيلة بني سليم . ومن العلماء هيثم بن بشير السلمي ، مات ببغداد سنة ١٨٣ هـ وهو مولى لهم ، وله مؤلفات في الفقه والتفسير والقراءات . ومنهم يزيد بن هارون المتوفى بواسط سنة ٢٠٦ هـ ، وله كتاب الفرائض ، ص ٣٣٢ و ٣٣٣ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .



هذا أمر من الخليفة العباسي المقتدر إلى وزيره علي بن عيسى بن داود منقوش على قطعة حجر من الجرانيت . ويقضي الأمر المنقوش على هذا الحجر ، بعمارة طريق الجادة لحجاج بيت الله الحرام ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٣٠٤ هـ ويطابق ما نقش فيه ما ورد في التاريخ .

وقد ورد في كتاب « المملكة العربية السعودية » لتويتشل ترجمة الأستاذ شكيب الأموي ، صورة لهذا اللوح الحجري ، وعلق عليها المؤلف بقوله : « وجدت هذه اللوحة الحجرية بما عليها من نقوش كوفية في نفايات منجم (مهد الذهب) القديم .وكانت عبارة عن أمر تنفيذي لبناء طريق رئيسي للحجاج للتنقل بين بغداد ومكة » انظر الصفحة التي قبل ص ٩٧ ، طبع مصر ، ١٩٥٥ م .

سلب أموال الغير بالقوة والعنف ، ثم تطور ذلك إلى مبادئ إصلاح عملية اقتضتها ظروف الأمن والدولة والبلاد .

وفي ظلال هذا الأمن المحدود الذي تدعمه ولاة بني العباس على طريق مكة خلال منطقة بني سليم حصل ازدهار لا بأس به في حياتهم العلمية والعمرانية والثقافية والاقتصادية ، ولا نعلم شيئاً عن الحالة الأدبية فبنيت قرى كبيرة لديهم أشبه بالمدن ، وربما كانت مدناً ، ووجد فيها علماء ومعلمون وصنّاع وفنّيون .. وتجار كبار .. ودور زاهية.. وأسواق عامرة .. ردحاً من الزمن .. إلى أن زال نجم الدولة العباسية ، فاضمحلت تلك القرى والمدن وزالت معالمها ، وزال أثر العلم والثقافة لديهم كلياً . وغرقوا في جهالة مطبقة ، أثناء دول الطوائف التي صارت لها ظلال حكم باهتة في جزيرة العرب عامة والحجاز خاصة وزاد الطين بلة على بني سليم إهمال حكومات الأشراف في مكة والمدينة لشأنهم ، دفعة واحدة .. فعادوا إلى شبه جاهلية جهلاء قاتمة الأعماق .

وقد أخذنا نظرية ازدهار منطقة بني سليم أو بعض منطقة بني سليم في أوائل عهد بني العباس وأواسطه ، من حجرين أثريين ، عثر عليهما في ديار بني سليم نفسها .. وأول الحجرين شاهد قبر ، وجد بمقبرة كبيرة في بلادهم ، وجاء به أحدهم إلى جدة وهو الرجل المعاصر التاجر بجدة (مبارك عبد التواب السلّمي) .. وشاهدتُ هذا الحجر الأثري لدى صالح شبكشي بِجُدّة وقرأته وفحصت ما فيه من نقش بارز هام وأثبت نتائج دراستي وقراءتي له ، المباشرة وغير المباشرة في هذا البحث . كما نشرت صورته فيه أيضاً ، وتحدّثت عنه فيه ، كما نشرت صورة زميله : الحجر الآخر الذي أثبت هنا أيضاً نتائج دراستي وقراءتي له .

وحجر الشاهد منقوش بالكتابة الكوفية المشجرة ، الخالية من النّقط

والشكل ، والمفعمة بالزوايا والأغصان ، وهو إلى ذلك بسيط في نقشه ولكن نقشه عميق ، وحجره جرانيتي شديد ، ولم تطمس حروفه ، ولم تؤثر عليه عوامل الزمن والطبيعة القاسية منذ ألف عام وأكثر ، فاني أعتقد أنه نقش في نحو أواخر القرن الهجري الثالث .

وثاني الحجرين الأثريين حجر جرانيتي أيضاً ، نُقِشَ عليه « أمرٌ من الخليفة » لوزيره أبي الحسن علي بن عيسى .. بعمارة طريق الحادة لحجاج بيت الله الحرام . والحادة المقصودة هي التي تخترق أراضي بني سليم .. كما أشرنا اليه آنفاً . وكان تاريخ النقش سنة ٣٠٤ هـ .. الموافق لسنة ٩١٦ م .

وكلا الحجرين وُجِدَ بمنطقة بني سليم .. الأول : في مقبرة كبيرة مندثرة الأسوار عليها مئات من الشواهد المماثلة . والمقبرة التي هي هكذا تدل طَبَعِيّاً على أنها كانت لمدينة زاخرة بالعمران والصناعة والعلم والفنون .

والحجر الثاني ، وجِدَ في مكان من المنطقة ذاتها . وهو ، بلا ريب ، قد نُصِبَ في ذلك المكان كدليل تاريخيٍّ للأجيال القادمة ، بالنسبة لزمن رَقْمِه ونَصْبِه ، على مدى عناية بني العباس بهذا الجزء الذي وضع فيه هذا النصب التذكاري من امبراطوريتهم المترامية الأطراف .

وقد تمكنتُ بعد لأي من قراءة نصوص الحجرين ، برغم تعقيد خطيهما وتشابكهما ، واستطعتُ استخراج الحقائق التاريخية المثبتة هنا من ثنايا النقشين .. والآثار أوثق دلالة على الحقائق غالباً من الأخبار .

وقد دلني على صحة ما ذهبتُ اليه ، أن أبا الحسن علي بن عيسى ، المُنَصَّبَ على هذا الجانب الهام من جوانب الامبراطورية العباسية الكبرى — كما ينص عليه الحجر الأثري — هو : «علي بن عيسى بن داود

ابن الجراح البغدادي الحسني » وزير المقتدر العباسي والقاهر ، وأحد العلماء والرؤساء من أهل بغداد ، وهو فارسي الأصل . نشأ كاتباً كأبيه . وَوُلّي مكة ، واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٤ ه ، وحبسه ونفاه إلى مكة سنة ٣١١ ه ومنها إلى صنعاء . وأذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢ ه ، فعاد اليها وَوُلّيَ فيها الإشراف على أعمال مصر والشام . فكان يتردد اليهما ، وأعاده المقتدر إلى الوزارة ، فرجع إلى بغداد سنة ٣١٤ ه ، ثم نقم عليه سنة ٣١٦ ه فعزله وقبض عليه ، ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨ ه . وله كُتُبٌ ، منها : « كتاب الكُتّاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء » .

وقد كتب هارولد بوين الانكليزي كتاباً عن « حياة علي بن عيسى وعصره » بالإنكليزية وسماه :

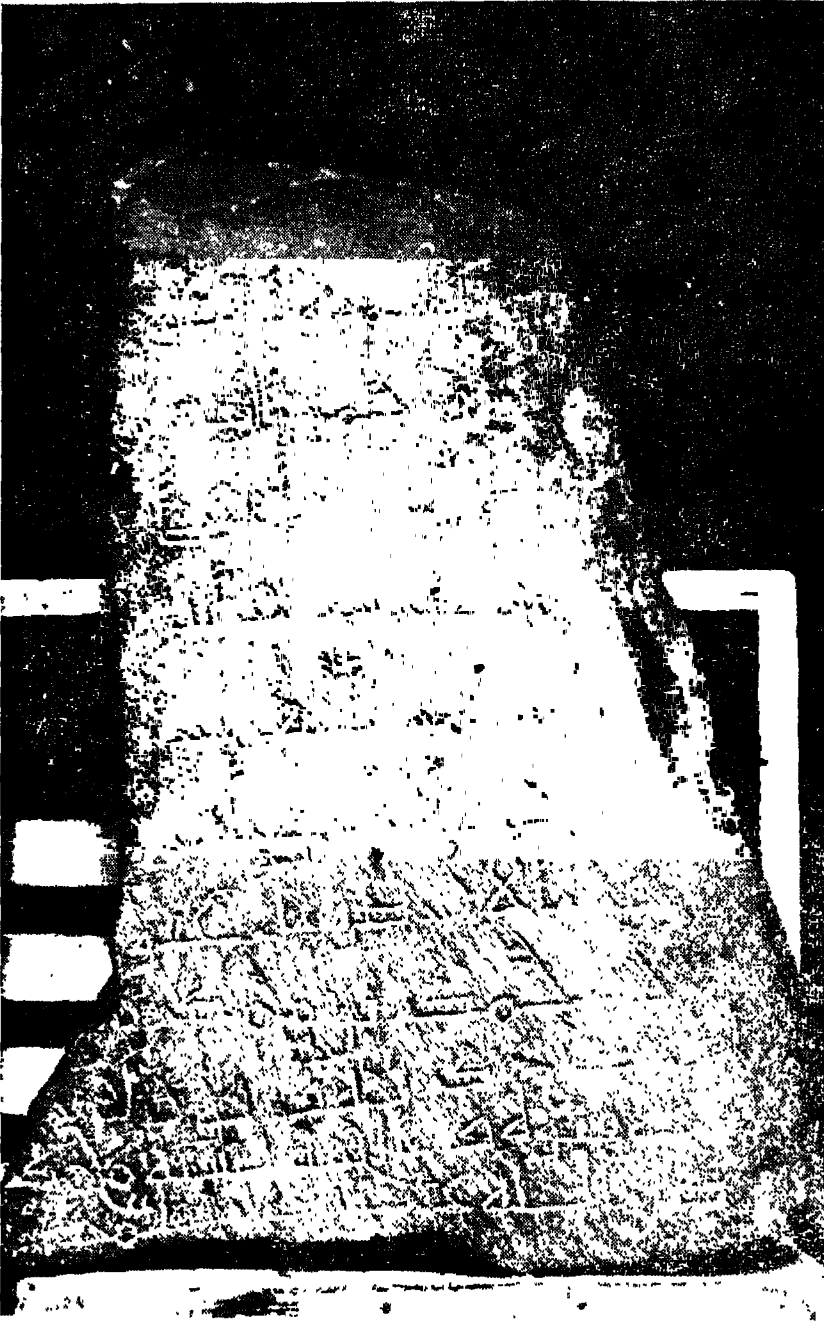
Thelife and Times of Ali Ibn Isa , the good Vizier .

وقد طبع في كمبردج سنة ١٩٢٨ م ، في ٤٥٠ صفحة .

ويقول الصولي ، عن أبي الحسن علي بن عيسى هذا : « لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وعلمه » .. وقد توفي سنة ٣٣٥ ه .

والسنة التي رقم فيها النقش الحجري المشار اليه كانت سنة ٣٠٤ ه وهي تصادف السنة التي استدعاه المقتدر فيها من مكة إلى بغداد ونكبه فيها ولا بد أن الحجر نُقِشَ قبل النكبة وفي أيام الرضا عنه كانت ولايته لمكة .. وكانت النكبة في آخرها أو وسطها ، وقد نُفي إلى مكة حيث كان والياً ، زيادة في إذلاله وألمه ومهانته .

ونفهم من الدراسة أن هذا الحجر نقش في زمن ولاية علي بن عيسى لمكة .. وتنسحب هذه الولاية على ديار بني سُلَيْم طبعاً .. مما يدلنا على أنها كانت حينئذ تابعةً لإمارة مكة بعد أن سُحِبَتْ من تبعية إمارة



شاهد قبر من حجر الجرانيت وجد في مقبرة كبيرة في بلاد « بني سليم » وهو مكتوب بالخط الكوفي المشجر الخالي من النقط والشكل . وقد حله وقرأه كاتب هذه السطور ، كما سيأتي في هذا البحث .

المدينة .. وبالنظر لوقوعها في طريق الحاج إلى مكة ، وربما لأنّ يد أمير مكة أطول من يد أمير المدينة على ديار سليم هذه .

وولايةُ علي بن عيسى لمكة كانت قبل سنة ٣٠٤ هـ .. وربما كانت في أواخر القرن الهجري الثالث ، فإنّ المقتدر تولّى الخلافة من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٢٠ هـ وكان غير كبير السن ، حيث إن ولادته كانت سنة ٢٨٢ هـ ، وقد رووا أنه كان ضعيفاً مُبَذّراً .. استولى على الملك في عهده ، خدمُهُ وخاصّتُه ونساؤه ، ولعله في هذا يكمن سر نكبات الوزير أبي الحسن علي بن عيسى المتعددة بأوامر المقتدر ، أو بأوامر خدمه وخاصته ونسائه التي تنفذ باسمه ...

وقد نُقِشَ الحجر الأثري بعد فتك الواثق ببني سليم ، حَوْلَ « الحار » بأربع وسبعين سنة .. ونرى أنه في هذا الظرف أو قُبَيْلَهُ بدأ ازدهار منطقة بني سُلَيم ، فقد اتجهت اليها أنظار بني العبـــاس ، وحثوا ولاتهم في مكة ، على العناية بأمرها وأمنها .. وكان نقش حجر الشاهد خلال هذه المدة ، وقبل نقش الحجر العمراني الآخر ، بمـــدة قد لا تزيد عن نصف قرن من الزمان .. وقلنا هذا نظراً للفرق الواضح بين خطّي الحجرين ، فذلك بسيط ، جداً . وهذا فيه تعقيد الفـــنّ الحضاريّ المزدهر .

ومما يدل على شدة اهتمام بني العباس ، بأمر ديار بني سليم ، ما أورده محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، من أن محمد بن موسى بن يعقوب بن المأمون بن هارون الوشيد ، قد وُلّي اليمامة ، والبحرين ، وطريق مكة .

ومحمد بن موسى هذا هو حفيد الخليفة المأمون العباسيّ ، ولد بمكة سنة ٢٦٨ هـ وانتقل إلى مصر فحدث بها وتوفي فيها ، وكانت كنيتـــه أبا بكر . ويذكر خير الدين الزركلي صاحب « الأعلام » في ترجمته له

أنه كان أميراً من علماء بني العباس بالحديث ، وكان ثقة مأموناً .. ولم يشر صاحب الأعلام إلى نوع إمارته . وقد حددها الإسكافي لنـــا .. واستنبطنا منها انه كان رجلاً ذا مكانة لدى خلفاء بني العباس ، ولذلك وَلّـوه طريق مكة ، الذي كان من أهم نقطه المحتاجة لإحاطتها دواماً بسياج الأمن والاستقرار ، ديار بني سليم .

وكما ذكرنا سابقاً فإنه بعد تقلّص الدولة العباسية ، عـــادت الفوضى إلى ديار بني سليم ، ولم يستطع ملوك الطوائف المتعاقبون على حكم شبه الجزيرة العربية أن يحدوا من غلواء نزوات بني سليم ، كما فعل بنو العباس قبلهم ، ولم يستطع ذلك أيضاً أمراء مكة الذين استقلوا بهذه الديار بيتاً بعد بيت .

وفي عهد السلاطين بمصر يحدثنا صاحب « صبح الأعشى » بقوله : « وادي كُلَيّةَ (بضم الكاف وفتح اللام وتشديد الياء المثناة تحت ، المفتوحة ، وهاء تأنيث في الآخر) وهو واد بالقرب من خُلَيْصٍ . به نحو سبعة أنهر ، على كل نهر قرية . وكان بيد سُليم ، وقد خرب من مدة قريبة بعد الثمانين والسبعمائة » ..

وفي عهد بني عثمان المديد لم تنقذ ديار بني سليم من هوة الفوضى بل أمعنت فيها وفي العزلة حتى أصبحت نسياً منسياً . ولا ندري ما إذا كانت الدولة العثمانية تستوفي منهم رسوماً أو جباية أو زكاة أو أهملتهم حتى من هذه الأمور ، بالنظر لحالتهم الاقتصادية المتدهورة فلم نجد في « السالنامه » التي بين أيدينا حديثاً عن ديارهم القريبة من جُدة ، ولا ذكراً لهم في أي شأن من شؤون البلاد .

وجاء عهد حكومة الملك حسين بن علي فبقيت ديار بني سليم على حالتها ثم دخل الحكم السعودي البلاد ..

وفي سنة ١٣٧٥ هـ افتتحت هذه الدولة مدرستين ابتدائيتين تتبعان

وزارة المعارف ببلاد بني سُليم .

وفي سنة ١٣٧٦ أسس فيها مركز لهيئة الأمر بالمعروف .

وفي سنة ١٣٨٢ أنشئت بديارهم محكمة شرعية تقضي في خصوماتهم الحقوقية وخلافاتهم الكثيرة المتشعبة وشؤونهم التجارية والزراعية والمالية التي كثيراً ما تنشأ عنها الخصومات .

ثم انشئت عدة مساجد ودور حكومية ، في طليعتها القصر المُجَمّع في قرية الكامل : امّ قُرَى المنطقة . وقد حلت به الإمارة والشرطة ، ومن ثم عاد ظل الأمن على هذه الديار المضطربة ، وعاد اليها الاستقرار بعد هجران طويل استمر قرابة ثمانمائة عام أو أكثر . كما انشئ لديهم — على ما عَلِمْتُ مؤخراً — مستوصف لمعالجة أمراضهم التي أشدها فتكاً البرداء (الملاريا) بسبب تراكم المستنقعات التي تخلفها الأمطار والسيول في السفوح والأودية .

وهكذا بدأ خروج ، بني سُليم ، بعد ارمان من قوقعة العزلة التي أحاطت بهم قروناً ، إحاطة السوار بالمعصم ، وهكذا بدأوا يدخلون في حياة أمثل وأحفل ، وقد يعيد لهم التاريخ مجدهم التليد ، فيتصل حاضرٌ بماضٍ بعد طول انقطاع .. والتاريخ يعيد نفسه في أشكال وألوان .[١]

« دراسة للحجرين الأثريين »

أولاً — الحجر العمراني المنشورة صورته في هذا البحث ، والذي نُصِبَ في ديار بني سُليم ، وجُلِبَ منها مؤخراً ، تمكنتُ من قراءة

---

١ هذه الملمة وجيزة عن بني سليم بن منصور ، وقد وفقني الله تعالى فألفت تاريخاً مستقلا عن تاريخ بني سليم قديماً وحديثاً .. واسمه (بنو سليم) ، وقد طبع في هذا العام ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .

نصه ، وذلك بعد مدة استغرقت عاماً ، من عام ١٣٨٤ ه إلى عام ١٣٨٥ ه — ١٩٦٤—١٩٦٥ م . وقد أعانني على قراءته أخيراً ذلك النقش الذي رقم على حجر الشاهد الآخر الذي كان في ديار بني سليم وَجُلِبَ منها أيضاً أخيراً ..

ثانياً — وهذا حلّي له ، وقراءتي . ويلاحظ أنه بقيت ثلاث كلمات لم أتمكن من حلها وقد وضعت عليها النقط هكذا : (. . .) . كما أن هنالك كلمة لم أستطعَ الوصول الى حلها ، وهي الكلمة التي وَضَعْتُ عليها خطاً أفقياً .. وقد سايرتُ في الحل أسطر الأثر ، فأنهيتُ كل سطر في الحل بما هو في أصله تماماً ، وبدأت كل سطر بما هو مبدوءٌ بــه في الأصل .

الحل والقراءة :

أمر عبد الله

جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاه الوزير أبا

الحسن علي بن عيسى أدام الله عز

ه بعمارة طريق الجادة لحجاج بيت الله

لما رجا من جزيل ثواب الله و

جرى على يد القاضي محمد بن مر

تضى أعزه الله وثق له ذلك

. . . أحمد بن عبد العزيز العقيبي

ومصعب بن جعفر الرد . . .

. . . سنة أربع وثلاثمائة سنة

ثالثاً — الحجر الذي عليه هذا النقش هو جرانيتي ، ولونه بُنّي يميل إلى الانفتاح . وخطه كوفيّ دقيق الرسم ، مما يدل على أن ناقشه مثقف ، ومما يدل على تقدم فن النقش في تلك الحقبة . وقد وُجِدَ هذا الحجر الأثري في ديار بني سليم وذلك يدل بطبيعة الحال على أن نقشه ونَصْبَهُ كانا بعد استتباب الأمن وبعد عمارة هذا الجزء بالذات من الطريق ، طريق الحجاج ، وقد تم نصب الحجر بعد نقشه للتذكار . ونقشه غير مُشَكّلٍ ولا مُنَقّطٍ ، وخَطّه كوفيّ من النوع الذي يميل إلى زخرفة الحروف بطريقتين فنيتين هما : التشجير والزوايا . والحجر العمراني هذا أكثر تقارباً في رسم الحروف وأكثر انضماماً فيها من حجر الشاهد ولا ندري حتى الآن هل كان نقش الحجرين في المدينة المندثرة ببلاد بني سليم ، التي لا تزال مقبرتها التي أخذ منها أحد الحجرين ، أو كان نقشهما خارجها وربما في مكّة أو المدينة أو في بغداد .

وشكل الحجرين معاً متماثل في أنهما يأخذان تقريباً في وضعهما الحالي، شكل المثلث ، إلا أن بينهما اختلافاً في اتجاه الزوايا .. فالحجر العمراني واسع الزوايا ، في علوه ، ضيّقها ، في سفله ، بعكس حجر الشاهد تماماً .. هذا وقد وجاء في كتاب « تاريخ مدينة جُدّة [1] » عن هذا الحجر العمراني أنه جيء به من بلاد بني سليم إلى متحف جدة ، وهو لا يزال بها إلى اليوم على ما نعلم .

دراسة لحجر الشاهد السلمي ، وحلٌّ له

رابعاً — مكثت ثلاثة أيام متوالية وأنا عاكف على قراءة حروف حجر الشاهد السّلميّ حرفاً حرفاً ، وبدأت بذلك من ١٣–٣–١٣٨٥ هـ

---

١ لمؤلف هذا الكتاب .

إلى ١٥–٣–١٣٨٥ هـ في مدينة جدة .

خامساً — وقد قرأته بتمامه حسب ما يلي : (ويلاحظ أني التزمت في كتابته التالية منهج أسطره في كلتا بدايتها ونهايتها) .

القراءة :

بسم الله
الرحمن الرحيم
صلى الله على
محمد وعليه
السلام اللهم
يا رب السموات
والأرض . اغفر
لأحمد بن محمد
الوضاح . كن له ودوداً
في قبره والحقه بشيعة محمد
صلى الله عليه وسلم

سادساً — مما لاحظته أثناء دراستي لنقش حجر الشاهد المذكور أنه وضع نقطة كبيرة (فاصلة) بين جملتين ، علامة على انتهاء الجملة الأولى ، وابتداء الثانية .. مما يدلنا على أن الأسلوب العصري الحديث المقرر في الكتابة وهو وضع الفواصل بين الجمل ، لتمييز بعضها عن بعض فلا تختلط على القارئ — وخاصة فاصلة النقطة التي هي علامة

انتهاء ما قبلها وابتداء ما بعدها — كان معمولاً به في الخط العربي في أيام حضارتهم المزدهرة .

سابعاً — حجر هذا الشاهد جرانيتي هو الآخر ، وهو بُنّي اللون فاتحه ، وثقيل جداً .. ووزنه أثقل من حجمه ، وهو غير قابل للتفتت أو التكسر ، مما جعله يحتفظ بكامل رونقه وشكله . وخطه شجريّ السمات ، محفور بالإزميل الحاد ، حفراً عميقاً ، مثل زميله الحجر العمراني ، وقد حماها ذلك من انمحاء النقش أو تآكل الجرم .

وطول حجر الشاهد : ٤٧ سنتمتراً ونصف ، وعرضه ٢٥ سنتمتراً في الوسط . وعرضه بالنسبة لرأسه ١٦ سنتمتراً ، وفي آخره العرض ٣٥ سنتمتراً . وسمكه ٧ سنتمترات . وخطّه من النوع الكوفي المشجر كما أسلفنا ولكن بدون أي شكل أو نقط . وقد وجده مبارك عبد التوّاب السُّلَميّ — أحد بني سليم المعاصرين ، التاجر المقيم بجدة — على ما حدّثني به — في أرض بني سليم ، في منطقة الكامل ، في وادي ستارة في رقعة من الأرض فيها آثار ذات مبانٍ قديمة ، وتسمى (جَبَلَةَ) . كما أن في تلك الأرض معامل الذهب ، ولا تزال أطلالها باقيةً تظهر فيها محارق المعادن ، وكهوف استخراجها . كما أن فيها مقبرة كبيرة جداً مملوءة بالشواهد ، وهي غير مسورة . ولا بد أن سورها سقط وزال بتقادم العهود وعدم الترميم والتجديد وبفعل الرياح وغيرها . وذلك بعد زوال المدينة التي كانت تمد المقبرة .. وإذا ذهب الأصل وزال ، فلا غرو أن يتبعه الفرع .

وكانت هذه البقعة خربة مندثرة .. والآن بدأ العمران يدب اليها . وقد وجد مبارك ، هذا الحجر في هذه المقبرة الكبيرة المهملة القديمة بجبلة كما أسلفنا . وإلى حين كتابة هذا البحث لا يزال الحجر بجدة .

وكان عبد المجيد شبكشي سلمني صورة الحجر الفوتغرافية وطلب مني

أن أقرأه .. وقد لاح لي أنّ قراءته يسهلها وجود الأصل لديّ لتكون القراءة على الطبيعة وأشرت له بذلك فأنبأني بأن أصله موجود بدكان أخيه صالح شبكشي فذهبت اليه ووجدت لديه الأصل ، وبعد ظهر يــوم ١٥ــ٣ــ١٣٨٥ هـ بقليل أتممت قراءة الأثر كما ذكرته آنفاً . وقــد أحضر لي هشامُ بنُ صالح شبكشي ، الرجلَ الذي جاء بالأصل من بلد بني سليم : مبارك عبد التوّاب السلمي .. فكان تعارف به وحديثٌ معه أنتج المعلومات التي سلفت .



الشمال
الشرق
الغرب
الجنوب

بيان

١- الضاحية الشمالية
٢- سور المدينة
٣- المنازل والمساجد والدكاكين
٤- رصيف المدينة
٥- خليج المدينة

٢
"٣"
المنازل والمساجد والدكاكين
الأرض المنخفضة
٤- الرصيف
٥- الخليج

رسم تقريبي لمدينة الجار (البُرَيكَة) وخليجها

آثار المدينة المنورة
وما حولها

يَثْرِبُ : القريةُ والمدينةُ

يَثْرِبُ اسم كان يطلق في الجاهلية على عموم المدينة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن المنافقين : « يا أهل يثرب لا مُقَامَ لَكُمْ » . على أن حقيقة المُسَمّى به هو إحدى قُرى المدينة وأكبرها . وعن ابن عباس : أن يثرب في الأصل كان اسماً لابن عَبِيلٍ الذي هو أول من نزل المدينة . وباينه المذكور سُميت البلدة ، يثرب .

أما (يَثْرِبُ) القريةُ ، فتمتد على ما حكاه السمهودي من طرف وادي قناة شرقا ، إلى طرف الجرف غرباً ، ومن زبالة الزّجّ جنوباً ، إلى البساتين التي كانت تعرف بالمال شمالاً .

والشطران الأخيران من هذا التحديد ، وهما زبالة الزج ، والمال ، حقيقتهما مجهولة لدينا الآن . ومن باب التقريب والاستنتاج يمكننا أن نقول : إن المال هو بعض بساتين العيون في الشمال الغربي ، وإن زبالة الزج هي قرية من قرى المدينة كانت بشمالي سلع إلى قرب وادي قناة ، اندثرت آثارها فلم تَعُدْ معروفة ، وقلنا : إنها قرية ، بناء على قول السمهوديّ عنها : « كان لأهلها أطُمان » ، وقوله : « وكان بالمدينة في الجاهلية سوقٌ بزبالة من الناحية التي تُدعى يثرب » .

أطم الضحيان [1]

أطُمٌ عظيم ، مشيد بحجارة الحَرّة السود ، طوله نحو ٢٧ متراً ، في عرض ١٢ وارتفاعه نحو ٨ أمتار ، وقد تساقط قسمه الجنوبي ، حتى يكاد ينمحي أثره .. أما القسم الشمالي منه ، فلا يزال متماسكاً ، عالياً ، برغم تناثر كثير من حجارته العلوية ، ولضخامته لم يظهر أثر كبير لهذا التناثر .

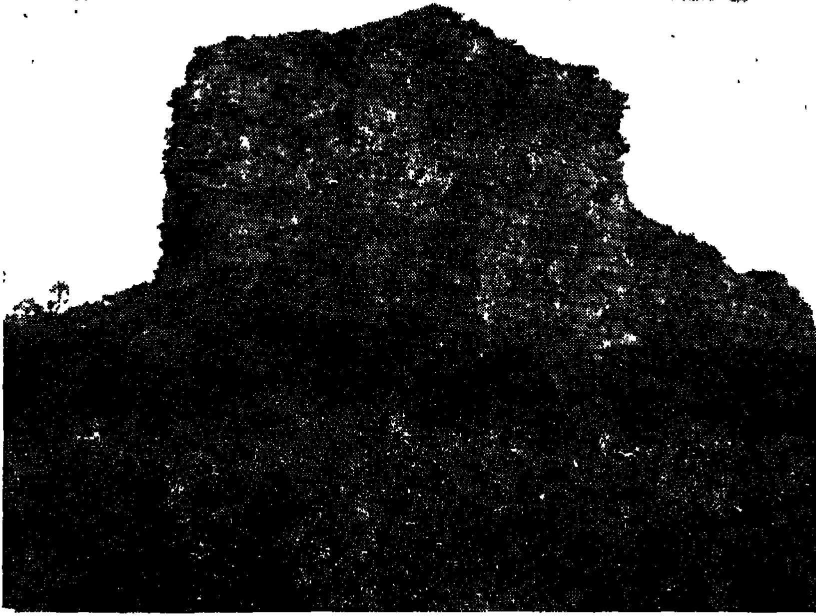
وهو واقع بالعرصة الكائنة غربي حديقة بئر شميلة ، وشمالي حديقة العصبة ملاصقاً لها تقريباً .

* * *

طالما وقفتُ مبهوتاً أمام هذا الأطم العظيم ، وقد كنت إخال أنه من آطام اليهود ، حتى عثرت في وفاء الوفا ، على ما كشف لي عن حقيقته قال السمهودي في معرض بحثه عن منازل الأنصار : «وابنتي أحيحة ابن الجلاح بالعصبة أطُماً ، يقال له الضحيان ، وهو الأطُم الأسود الذي بالعصبة» .

---

١ الأطم : الحصن . والضحيان : الظاهر البارز ، وهو كذلك . وجمع الاطم آطام وهو الحصن المبني بالحجارة أو كل بيت مربع مسطح ، (لسان العرب) . على أن من الآطام مما كان يبنى بالطين وحده .. ذكر ذلك نشوان الحميري في شرح قصيدته ، ص ١٤٦ ، المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٨ هـ .



طلل أطم الضحيان بالمدينة المنورة

والعصبة على ما يفهم من فحوى أقوال مؤرخي المدينة كانت تعني جميع هذه البساتين الواقعة غربي مسجد قباء ، التي يفيض فيها وادي وادي رانوناء ، كما أن السيح أو السيحي هو البساتين التي بغربي مسجد الفتح في العرف القديم . واسم العصبة في عصرنا يطلق على الحديقة المجاورة لأطم الضحيان .

وهذا الأطم جاهلي كغيره من آطام المدينة [1] .

[1] في وفاء الوفا ، ج ، ص ١٤٧ و ١٤٨ ، ما يدل على أن جميع آطام المدينة جاهلية البناء ، ما عدا أطم بني ساعدة ، فقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهو يبنى . وفي المدينة آطام منها أطم الضحيان هذا ، و « الأشعر » : أطم بني عدي بن النجار ، وفارع أطم ثابت بن المنذر ، آل بعد، إلى ابنه حسان الشاعر ، ويذكر المسعودي أن هذه الآطام خربت بعد ذلك في أيام عثمان بن عفان ولم يبق منها إلا أطلالها . ص ١١ « كتاب حسان بن ثابت » للدكتور إحسان النص . وأقول : ان منها بقايا إلى الآن .

حصن كعب بن الأشرف النبهاني [1]

وصفه :

يقوم على هضبة من الحَرّة الجنوبية الشرقية للمدينة ، وطوله ٣٣ متراً في عرض ٣٣ وارتفاع ما بقي من جدرانه ٤ أمتار وسمكها متر ، وله باب واحد في الجهة الغربية وثمانية أبراج ضخمة ، وبناؤها من حجارة ضخمة ملتصق بعضها ببعض مباشرة وطول بعضها ١٤٠ سنتيمتراً وعرضها ٨٠ سنتيمتراً وسمكها ٤٠ سنتيمتراً .

ولا أثر فيه للنقوش ولا للزخرفة ، بناءٌ حربيٌّ محض ، وبوسطه رحبة واسعة مربعة تبلغ مساحتها ألف متر مربع ، وهي غير مرصوفة ولا مبلطحة فالصخور الحَرّيّة ناتئة فيها ، وبينها انخفاضات وارتفاعات .

---

١ ليس كعب بن الأشرف يهودياً ولكنه عربي نبهاني طائي ، مستخول في بني النضير ، وكانت له منزلة عالية بينهم ، لما لأخواله من المكانة في يهود ، كما له منزلة بين العرب ، لذلك ولشعره . وبهذا الشعر طالما ألب المشركين على محاربة المسلمين ، وطالما سب أعراضهم ، فكفاً ، لأذايته لرسول الله والمؤمنين ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة لقتله ، فبادر بعضهم لتنفيذ رغبته العالية ، فذهبوا اليه في حصنه ليلا ، واحتالوا عليه حتى أخرجوه منه وذهبوا به إلى شرق المدينة فقتلوه هناك .

وبجوار الحصن من الداخل ١٠ غرف مختلفة المقاسات ، وأعاليه مهدمة .

ولما جاء في كتب التفسير والحديث والسيرة من كون بني النضير لما ُغلِبوا في محاصرة الرسول لى الله عليه وسلم لهم ، واستسلموا عام ٣ أو ٤ هـ ، وحصل الاتفاق على جلائهم من المدينة ، مع حمل ما يستطيعون حمله من أمتعتهم ، غير السلاح ، ومن ذلك أخشاب سُقوفُ حصونهم ونُجُفُ أبوابها الجميلة المزخرفة — نقول نظراً لما ُذكِرَ نرى أن سقوف هذا الحصن وعقوده أخرجت منه في ذلك العهد ، ونُقِلَتْ أخشابها فيما نقل يومئذ .

وإن هذا الحصن الهائل ، ذا الحجارة الضخمة السود ، والأبراج العظيمة ليعطينا صورة ناطقة عن كيفية بناءِ الحصون ، هنا ، قبيل الإسلام .

تحقيق عنه :

بقي علينا : هل هو ذا حصن كعب بن الأشرف بعينه أم هو حِصْنٌ سواه ؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال ، أمهد للقارئ بما رواه المؤرخون عن موقع الحصن ، ومنازل بني النضير ، التي هو من جملتها .

في « وفاء الوفا » : أنه لما هتَف أبو نائلة بكعب بن الأشرف ، وهو في حصنه ببني النضير ليلة قتله ، نزل له .

وفي « سيرة » ابن هشام ، و « الكامل » لابن الأثير ، ذِكْرٌ لحصن كعب ، ولكن بدون تعرض منها لموقعه .

* * *

بحثتُ عن منازل بني النضير التي فيها الحصن ، فعثرتُ في « وفاء الوفا » ، ومجلة الزهراء ، على أنها تقع بحرة زهرة : (الحرة التي هي بطرف العالية) ، وبأطراف وادي مُذَيْنِيب ، وبالنّواعم ، ومـا والاها الى الحرة وفي هذا الصدد يقص لنا السمهوديّ مشاهداته فيقول : « ورأيت بالحرة في شرقي النواعم ، آثار حصون ، وقريةٍ بقرب مذينيب يظهر انها من جملة منازلهم « يعني منازل بني النضير » .

بعد هذا التمهيد أقول : إن ما قمت به من بحث وتنقيب عقب البحث العلمي الآنف ذكره قد أكد في نظري تأكيداً باتاً ، أن الحصن الموصوف هو حصن كعب بن الأشرف بعينه ، واليك الدليل :

يقول المثل السائر : أهل مكة أدرى بشعابها . ولذا اهتممت بالوصول إلى حقيقة هذا الحصن من طريق الاستخبار من أهل هذه القرية .. كان جواب أحدهم ، لما سألته عن الحصن ولمن هو في الأصل ؟ : هذا حصن النصارى ! فبادر زميل له بجانبه لتصحيح إفادته وقال : هذا حصن النصراني ... وسكتا ، وصمت أنا مفكراً في جوابيهما المتحدين في المآل : حصن النصارى أو النصراني .. عجيبٌ هذا القول ، وغريب هذا الفهم .. النصارى لم يستوطنوا هنا قط .. فأنّى لهم تشييد حصن ضخم كهذا ؟! وإذن لمن الحصن ؟.. لاغرو أنّ البدو الأمين يجهلون الحقائق التاريخية ، وإنّما مبلغهم من العلم أخبارٌ وأقاصيص ، يتلقفونها شفوياً من آبائهم عن أجدادهم يتناقلها منهم خلف عن سلف ، ويتطرق اليها التحريف والالتواء والتغيير .

وبالتالي ، فالبدو هنا لا يميزون بين اليهود والنصارى .. كُلّ ما سوى المسلمين عندهم نصارى ، فالنصارى يهود ، واليهود نصارى .. وإذن ماذا استفدنا من قول الرجلين ؟!

كُلّ ما استفدناه منهما أنهما متفقان على أن الحصن قديم لغـير المسلمين .. وغير المسلمين هنا قديماً هم اليهود ، وكعب بن الأشرف وإن كان

نبهانياً من طيء إلاّ أنه بحكم الحؤولة والجوار أصبح يعتبر واحداً من اليهود .

لا بأس ! هذه فائدة علمية لها أهميتها في الموضوع ، وإن تكن مبتورة .. فلنمض في بحثنا قدماً .. فالحقيقة بنت البحث كما يقولون .

في أثناء ذهابي مرة أخرى للحصن عام ١٣٤٧ هـ صادفت رجلاً قزماً بالقرب من الحصن اسمه (علي) يعرفني بقدر ما أجهله ، وله بستان جميل في أم عشر ، وهو من « بني علي » أهل هذه الناحية . وعندما شاهدني مقبلاً إلى الحصن ، نهض إليّ ، واستقبلني هاشاً باشاً وقال : « أنت مقصدك أن تتفرج على الحصن ؟ » فقلت له : « نعم » فقال : « تفضل ! هذا الحصن ملكنا من قديم وكان .... » وهنا قاطعته قائلاً : « إذن لمن هو في الأصل ؟ » فأجابني بسرعة : « هـذا هو حصن كعب بن الأشرف » .. وتقدمني مرشداً ، وأراني الخراب الحادث به ، من قبل فخري باشا ، فشكرته ، وحاولت الانصراف منفرداً ، فأسرع إليّ ، يتابعني . ولما حاذينا باب بستانه أقسم لأدخُلَنّه معه ، وَلأقيلَنّ عنده ، سحابة يومي .. ولظمئي دخلت معه البستان ، فلما شربتُ الماء استأذنته في الخروج معتذراً ، فقبل بعد إلحاح وتوسلات مني .

مشكلة علمية وحلّها :

بعد الوصول إلى ما شُرِحَ ، قامت في ذهني مشكلة علمية جديدة حالت دون اقتناعي تماماً بأن هذا هو حصن كعب بن الأشرف ، برغم قيام الدلائل الموضحة سابقاً .

وتلك العقبة هي : أنه من أين يشرب سكان هذا الحصن إذا نفد ما معهم من ماء من الخارج . إذا كان هذا هو حصن كعب بن الأشرف ، وهو مُعَدّ للإقامة ، والحرب ، والحصار ؟! لا بد من وجود بئر بداخله ، ليتحقق أنه هو ، وإلاّ فلا .. ومما أذكره أني لم أعثر على

بئر بداخله أثناء جولاتي في رحبته وأنحائه الداخلية .

قد يقول قائل : كثير من الحصون لا آبار فيها ، فأقول له : نعم ، ولكن ليست كلها سواء ، فمثل حصن كعب ، المُعَدّ للإقامة والطوارئ معاً ، في موقع كموقعه ، ومكانة كمكانة صاحبه ، لا بد أن تكون فيه بئر داخلية[1] سداً لثغرة الاحتياج إلى الخارج في ألزم شيء لحياة الإنسان ، وهو الماء ، إذا اشتد الأمر ، وحوصر من هم بداخل الحصن مدة طويلة ، كما هو متوقع .

في الحق إن مشكلة عدم عثوري على بئر بداخل الحصن ، اغتص بها ريق فكري أمداً مديداً ، وفكرتُ فيها شهوراً ، وحادثتُ عنها بعض الرفاق .. حتى كان عام ١٣٥١ هـ ، فذهبتُ في أحد شهوره معهم إلى الحصن ، فوجدنا — مُصادَفَةً — صاحبي « علياً » وبعد التحيات والترحيبات والتعريفات ، أعاد كلمته الأولى : أنتم مقصدكم آن تتفرجوا على الحصن ؟» .. فقلنا : « نعم » ، فتقدمَنا يقفز أمامنا بخفة ورشاقة ، فوق حجارة الْحَرَّةِ ، وصار يدلنا ، ويحكي لنا حكايات عن الحصن .. ويقول : إنه ورثه من أجداده ، وإنه ، وإنه .. فأجاته بسؤال ، مُستوضحاً ومُستَخْبِراً : « يا أخي علي ! أين البئر ؟ لا بد أن تكون بداخل الحصن بئر ! » . وحالاً أفاض عليّ ، بما طَيَّب الخاطر ، وحل عقدة الإشكال .

قال : « تعالوا أُرِكُم البئر رأي العين ، ها هي ذي : (في الجهة الجنوبية خارج الحصن ملاصقة له) وقد انهارت بطول الزمن » .

---

[1] يؤيد هذه النظرية ما ورد في سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، من حصار النبي صلى الله عليه وسلم لبني قريظة فجأة في حصونهم ٢٥ يوماً ، فلولا أن بداخلها آباراً ، ما استطاعوا المقاومة طول هذه المدة التي تقرب من شهر .

فقلت له : « إذا كانت بئر الحصن هي هذه ، على ما تقول ، فالمُسْتَقون منها ، لم ينجوا ، بَعْدُ ، من خطر الأعداء ، لأنها خارجة عن الحصن » .

قال : « لا .. إن مدخل البئر من داخل الحصن هنا (وأشار إلى مكان بداخل الحصن مُناوِحٍ للبئر الخارجية) بسلم حجري يهبط منه المستقون ، من تحت هذا البرج ، وقد دفن التراب والحجارة المدخل والسلم ، وقال : أولا ترى هذا البرج ؟ »

قلتُ : « بلى . إني أراه ! » .

قال : « بعد أن يهبط الواردون إلى البئر من الدرج الذي أشرت لك به ، يقف الرجال حاملي السلاح في هذا البرج لحراستهم إذا أحوج الحال » .

وبهذه المحاورة الطريفة التي دلّت على رُجْحانِ عقل صاحبنا (علي) وتمكنه من الموضوع ، وبمقارنة إفاداته مع ما مَرّ ذكره ، من نص المؤرخين على أن الحصن يقع في منازل بني النضير ، وأنّ منازلهم ، بأطراف هذه الحَرّةِ التي فيها الحصن المبحوث عنه — من كل ذلك يتضح أن هذا الحصن ، هو حصن كعب بن الأشرف بعينه .

وهو بضاحية المدينة الجنوبية الشرقية ، وبينه وبينها نحو ساعة ونصف الساعة ، بالسير العادي للإنسان[1] .

والطريق الموصل اليه منها هو هكذا : « بابُ العوالي — طريق قربان — أمّ عُشَر — أمّ أربع — جزءٌ صغير من الحَرّة — الحصن » .

---

[1] هذا البحث كتب قبل توافر السيارات بالبلاد ، إذ كان الاعتماد في قياس المسافات بالسير على الأقدام . والمؤلف قد كان وصوله إذ ذاك للحصن بطريقة المشي من المدينة اليه في كلتا المرتين .

وادي العقيق

هذا الموضوع شائق ، ولكنه مع ذلك شائك صعب المراس . ونحن سنبذل قصارى جهودنا في سبيل تذليل عقباته وجلاء صفحة سمائه ، لنميط اللثام عن تاريخ هذا الوادي الذهبيّ ، الذي كان في عصر من العصور مطمح أنظار الخلفاء والأغنياء والشعراء بما حوى من قصور جميلة ومتنزهات لطيفة .

لم سُمّيَ وادي العقيق بهذا الاسم ؟

عُرِضَ هذا السؤالُ على سليمان السعدي المتضلع في فقه اللسان العربي ، فكان جوابه للسائل : « لأنّهُ عَقّ في الحَرّةِ » أيْ شق وقطع . وهناك قول بأن سبب هذه التسمية هو حُمْرَةُ الوادي .

والتوجيه الذي أدلى به سليمان هو المقبول — في نظري — للأسباب التالية :

١ — ذكر ياقوت أن اسم العقيق شامل لكل مسيل ماء شقه السيل فأنهره ووسّعه (معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ١٩٨) .

٢ — ونصّ على أن ببلاد العرب أربعة أوديةٍ تُسمّى جميعاً بالعقيق .

٣ — إن السمهودي قَصَّ لنا أن تُبَّعاً لمّا مَرّ بالعقيق قال : « هذا عقيق الأرض » .. وهذا بعد أن مر بالعرصة التي كانت تُسمى بالسليل من العقيق نفسه ، فقال عنها : « هذه عرصة الأرض » . فكما أن معنى العرصة لغةً : المكان المتسع الخالي ، ولذا أطلقها تُبّعٌ على السليل ، فكذلك كان إطلاقه اسْمَ العقيقِ على هذا الوادي بسبب كونه شقاً في الأرض أحدثه السيل الذي يجري فيه .

هواؤه وتُربته :

هواءُ هذا الوادي صافٍ منعش على الإطلاق . وأمّا تربته فهي رملية تكتسي حُمرة في الغالب . وأجملُ بقاعه « الْعَرْصتانِ » : الصغرى والكبرى .

جهته بالنسبة للمدينة وطريقه ومسافة بعده عنها :

يقع وادي العقيق في غربي المدينة ، ويشقه طريقُ مكّة [1] .. ويكاد عمران المدينة يتصل بمداخله والطرق اليه منها : باب العنبرية — الطريق شمالي قبة الخضر — المدرّج — العقيق .

ويبعد عن قلب المدينة من هذا الطريق بنحو ثلاثة كيلومترات .

مصدره ومصبه :

مصدره حضير : (مزارع بقرب النقيع الواقع بجنوب المدينة على

---

١ بني جسر كبير على القسم الذي يشقه طريق مكة من العقيق لتلافي تعويق سيل العقيق للمرور إذا جرى وسال .. بنته الحكومة العربية السعودية بعد كتابة هذا البحث بأمد ..

مسيرة يوم ونصف منها) ، ويفضي إلى بئر علي ، العليا المعروفة بالحليقة ، ثم يمر بغربي جبل عَيْرٍ ، فذي الحليفة ، ثم يسير مشرقـاً إلى أن يحاذي حرة الوبرة ، في قسمها الذي يطلع إلى المدينة ، ثم يعرج إلى الشمال ، ويتجاوز العرصتين ويفيض في زُغابة .

قصوره ودوره :

قال محمد بن عبد الله البكري قاضي المدينة وعمر بن عبد الله :

أيْنَ أهلُ العقيق ؟ أين قُريشٌ ؟
أيْنَ عبدُ العزيز ؟ وابنُ بُكَيْرِ
وَلَوَ انّ الزّمانَ خَلّدَ حَيّـاً
كانَ فيـه يُخَلّدُ ابْنُ الزّبَيْرِ

هذا ويُشاهِدُ الإنسانُ بعد أن يتجاوز طرف حَرّة الوبرة ، مُصعداً ذاهباً إلى الميقات [١] ، أو متوجهاً إلى العرصتين بالشمال ، تُلُـولاً متسلسلة على جانبي المسيل ... وتلك التلول هي آثار قُصور العقيق ودُورِه القديمة ، وقد لا يسترعي الأنظارَ مرأى هذه التلول لأول وهلة إذ يحسبها الناظر فيها بعض الكثبان الرملية المتكونة في أطراف الوادي تكوّناً طبَعياً .. أما إذا دقق النظر فيها ، فإنه يتحقق انها آثار القصور العقيقية الفاخرة ، بَدَت اليوم في هذا الشكل ، بحكم تقادم العهد وفعل المؤثرات الخارجية .

واليك مواقع القصور والدور بالعقيق حسب ما حققتُه بعد إجهـاد القريحة ودراسة مختلف المصادر .

---

١ هو ذو الحليفة ميقات إحرام أهل المدينة المنورة في حجهم وعمرتهم .

أ ــ القصور الواقعة بطرف حَرّةِ الوبرة إلى بئر رومة :

١ ــ قصر عروة بن الزبير ، بقرب بئره .
٢ ــ قصر مراجل .
٣ ــ قصر سكينة بنت حسين المسمى بالزّينَبي .
٤ ــ قصور متتابعة لإسحق بن أيوب .
٥ ــ قصور أخرى لبعض الأعيان .
٦ ــ قصور ابنة المرازقيّ الزهرية .
٧ ــ منازل جعفر بن إبراهيم الجعفري .

ب ــ القصور التي في العرصة الكبرى التي بها بئر رومة :

١ ــ قصر عبد الله بن عامر .
٢ ــ قصر مروان بن الحكم .

ج ــ القصور التي بالعرصة الصغرى :

١ ــ قصر سعيد بن العاص (هو الباقية آثاره إلى اليوم دون سواه) [١] .
٢ ــ قصر عنبسة بن سعيد بن العاص .
٣ ــ القرائن (دور كانت لآل سعيد بن العاص بقرب قصره) ، (الأغاني ، ج ١ ، ص ٦) .

د ــ القصور التي بسفح جماء أمّ عاقر (أو عاقل) :

١ ــ قصور جعفر بن سليمان .

---

١ أحيطت أطلال هذا القصر بحائط القصر الملكي الذي حول إلى دار للضيافة الملكية .

هـ ــ القصور الكائنة بسفح جماء أمّ خالد :

١ ــ قصر محمد بن عيسى الجعفري .
٢ ــ قصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة .

و ــ القصور الواقعة بسفح جماء تضارع :

١ ــ قصر طاهر بن يحيى .
٢ ــ منازل لعبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان .
٣ ــ قصر عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان . (وقد درسنا هذا القصر وعقدنا له فصلاً خاصاً بعد هذا ، شمل موقعه وتخطيطه كما درسنا السد المنسوب لصاحب هذا القصر في الفصل المشار اليه بنفسه) .
٤ ــ قصر عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان . ويبدو أن عنبسة هذا هو أخو عاصم ، المذكور آنفاً .
٥ ــ قصر عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن عثمان بن عفان . (وهو ابن بكير المذكور في البيتين السابقين) .

ز ــ القصور الكائنة بسفح جبل عَيْرٍ :

١ ــ قصر إسحاق بن أيوب المخزومي .
٢ ــ قصر لآل طلحة .
٣ ــ قصر إبراهيم بن هشام .
٤ ــ منازل لآل سفيان بن عاصم .

هذا بيان إجمالي لمواضع قصور العقيق [1] ، ومنه يتضح أن مجموعها

---

[1] تصنيف القصور بالعقيق هكذا من شأنه أن يسهل وضع خارطة أثرية لضاحية العقيق الأثرية .

هو (٢٤ قصراً) . أما تعيين موضع كل منها بالتحقيق فذلك مطلب عسير جداً [١] .. ناهيك بما تحملناه من البحث العلمي والتفكير حتى توصلنا إلى إيضاح مواقعها بالصفة المشروحة آنفاً .

بساتينه وآباره :

لا عجب أن يكون وادي العقيق في سابق عهده مغموراً بالبساتين الجميلة التي يسقيها السيلُ إذا جرى ، والآبارُ إذا توقف .. فوجود الرياض فيه من مستلزمات حياة النعيم التي كان يستظل بأكنافها أهل المدينة ، في تلك الحقبة من الدهر :

وهذا بيانُ ما اطلعتُ عليه من ذلك :

١ – مزارعُ أبي هريرة قبيل (الميقات) .
٢ – مزارع عروة بن الزبير قريباً من بئره .
٣ – بساتين ابن بكير بقرب قصره الذي هو بسفح جماء تضارع .
٤ – مزارع مروان بن الحكم بقرب قصره بالعرصة الكبرى .
٥ – بستان سعيد بن العاص بقرب قصره بالعرصة الصغرى .
٦ – مزارع الجرف التي منها « الزّيْنُ » : مزرعة النبي صلى الله عليه وسلم على ما رواه ابن زبالة .
٧ – مزارع ثنية الشريد (بعد ذي الحليفة) .

وفي سنة ١٣٥٣ هـ – ١٩٣٥ م كان بالعقيق مزارع وبساتين متفرقة ، لا تكاد تذكر بالنسبة لاتساع رقعته وصلاح تربته .. وأهمها ما يقع

---

٢ وكما أشرنا اليه فقد تمكنا أخيراً في سنة ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م ، من تعيين موضع قصر عاصم ابن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان وسده ، وعقدنا لهما فصلا خاصاً تجده بعد هذا الفصل رأساً .

بقرب ذي الحليفة شمالاً وجنوباً ، وتعرف بمزارع الأجساء ، لقرب الماء من ظاهر الأرض في تلك البقاع ، ويجودُ (الشَّرْيُ) [1] في هذه المزارع .

أما بسنة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م فقد انتشرت في العقيق المزارع والحدائق بصورة واسعة . وبالعرصتين والجرف حدائق أطيبها ماء (الرّبْخِيّةُ) بالجرف ، وهواءً ، سلطانة [2] .

وكان بالعقيق عدد غير قليل من الآبار ، لا تزال آثار بعضها بادية ، ولكنها مطمورة . أما بئر رومة وبئر عروة فقد احتفظتا بحياتهما إلى اليوم [3] لمزاياهما الخاصة على أنهما قد انطمرتا في بعض الحقب الخالية .

جمّاواته والآثار بها :

هي ثلاث هضبات سودٌ كبار قائمة بطرف العقيق ، على شفيره الغربي ، وسميت جمّاوات لأنها دون الجبال ، تشبيهاً لها بالشاة الجمّاء التي لا قرون لها .

وأقربها إلى المدينة ، جمّاء تضارع ، وهي التي يشاهدها الإنسان عندما يهبط من المدرج إلى بئر عروة ، وحذاءها غرباً بشمال : جماء أم خالد ، فجماء العاقر التي تصب على العرصة الصغرى . وعلى رأس جمّاء خالد

١ الشري في عرف أهل المدينة المنورة اسم جامع للبطيخ الأحمر والخربز والقثاء والخيار .

٢ هي العرصة الكبرى أو جزء منها .

٣ كان ذلك بسنة ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م وما بعدها ، والآن : سنة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م ، فإن بئر عروة عادت للانطمار من جديد ، ولعل الله يوفق من ينبثها فيعود الاستقاء من مائها العذب المشهور خلال أحقاب التاريخ .

كان عمر بن سليم الزُّرَقي اكتشف هو وزميل له قبراً قديماً ، وَوَجَدا عنده حجرين مكتوبين لا تُقرَأ كتابتهما ، فحملاهما ، فلما ثَقُلَ أحدهما عليهما ألقيا به في الحماء نفسها . ولا ندري هل هو باق فيها أم نقل ؟ أم ماذا جرى له ؟ والبحث يظهر الحقيقة . وكذلك لا ندري ماذا حدث للحجر الآخر الذي كان قد بقي معهما .

فضائله وعمرانه وخرابه :

في صحيح البخاري : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتاني الليلة آت فقال : صَلِّ في هذا الوادي المبارك » .

وفي عرصته يقول : « نعم المنزل : العرصة ، لولا كثرة الهوام » . وكثرة الهوام فيه لا تزال إلى اليوم .. ومن ذلك اني في ذات أصيل كنت مع بعض الرفاق في زيارة للعقيق من ناحيته الجنوبية .. ورأيت حجراً مستديراً أملس فراقني منظره فلما حملته بيدي ظهرت من تحته حية بيضاء ضخمة مُقَرَّنَة .. فقتلتها بنفس الحجر .

أما تاريخ عمرانه فيبدأ من الوقت الذي أعطى فيه النبي بلال بن الحارث المزنيّ ما أصلح من العقيق [1] وذلك بموجب حجة نبوية نصّها :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث .. أعطاه من العقيق ما أصلح فيه معتملاً ، وكتب معاوية » .

فلما لم يعمل بلال شيئاً في العقيق أبقى لديــه عمر بن الخطاب في زمن خلافته قسماً منه ، وانتزع منه الباقي ، وأقطعه للناس . وكان هذا

---

[1] يعتبر إعطاء الرسول صلى الله عليه وسلم لبلال ما أصلح من العقيق ، إرهاص عمرانه الذي بدأ فعلا في خلافة عمر رضي الله عنه .

منه انفاذاً لفحوى الوثيقة النبوية المشار اليها آنفاً على ما سنوضحه فيما يأتي :

وكان مستندُ عمر رضي الله عنه في هذا الصنيع أمرين :

الأول : الشرط الوارد في كتاب الإعطاء النبويّ ، إذ ان بلالاً لم يعمل شيئاً في العقيق ولذا أصبح غير مالك له .

الثاني : احتياج الناس اليه ، لما كثر المسلمون في المدينة حيث انها كانت العاصمة .

ومن ذلك الوقت أنشئت به البساتين الغناء ، والقصور الفيحاء تدريجياً فما كادت دولة بني أمية تستريح من القلاقل الداخلية حتى وجهت عنايتها إلى عمرانه ، فأصبح جنة سندسية خضراء ، زهورها القصور ، ونوارها الدور ، وأكمامها القُطّان والرّوّاد .

ثم ما كاد يبتدئ دور التوقف في هذه الدولة حتى ابتدأ دور اضمحلال عمرانِ العقيق وازدهارِه ، فما هَوَتْ حتى ذَوَى ، ثم صار في خبر كان ثم بدأ العمران يدب فيه تدريجياً حتى الآن سنة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

إذن فعمران العقيق الفعلي مقرون بحادثة تصرف عمر فيه ، وإنها لمنقبة جليلة تضاف إلى سجل مناقبه الضخم ، إذ برهنت على نظراته الاقتصادية والدينية الثاقبة ، كما دلت على تفانيه في حب العمران وكراهية الخراب .

فلو فرضنا أنه لم ينتزع العقيق من بلال ، وبقي في يد ورثته لكان من الجائز أن يظل قاحلاً ، وبذلك تخسر المدينة عمران ضاحية من أجمل ضواحيها ، وأقبلها للعمران .

بين سد عاصم .. وقصره .. بالعقيق *

١ — السّد :

أقيم هذا السد كسائر السدود القديمة في هذه البلاد ليمنع تسرب المياه عقب هطول الأمطار إلى الخلاء ، وليحجز الماء لسقيا صاحب القصر وربما لمن كانوا بجواره ، وربما لحديقته ، وحدائقهم بقرب بطن وادي العقيق إذا كانوا أصحاب حدائق .

وهذا السد مبنيّ من حجر أسود غير منحوت : (دبش) ومجصَّص ، وهو عريض ، يبلغ عرضه نحو مترين ونصف المتر ، وطوله نحو ٣٦ متراً .

وقد أقيم بين فتحتي جبل ُتضَارِعَ ، المنفرجتين ليستقبل ما يهبط أثناء الأمطار ، وبعدها ، من مياه ، ويحتفظ بها أطول مدة ممكنة .. ولا بُدّ أن له فتحة أزالتها السّنونَ . وما تبقى من أطلال السد متهرئ وإن كان شاخصاً للعيان ، كما كان . وهو مستقيم ، يمتد من ناحية

(*) لقصر عاصم هذا ذكر في الفصل السابق ضمن القصور التي حددت مواقعها بالعقيق ، وقد أفردنا لقصر عاصم وسده ، هذا الفصل ، للتعريف بهما كنموذجين لقصور ذلك الوقت وسدوده .

الجنوب إلى الشمال . ويليه إلى جهة الجبل – الجهة الغربية من السد – أساسٌ مبنيّ ، لا أدري : هل كان دكة أو مُنْزَلَقاً لمياه الأمطار أو غير ذلك ، وما تبقى أو ما هو ظاهر – على أدق تعبير – من هذا المبنى يتمثل في أصولِ ثلاثةِ جدرانٍ ، وقد بُنِيَتْ هـذه الأصول بالحجارة غير المنحوتة السود التي هي من نفس الجبل والجص . وأحد هذه الجدران يتجه من الشرق إلى الغرب . والآخر من الجنوب إلى الشمال ، وهذا الجزء قد اخترقه السيل ، وأتلفه . أما الجدار الثالث فيتجه من الغرب إلى الشرق .

وقد لاحظتُ في غرب السد من حيث يأتيه السيل المنحدرَ اليه من الجبل أنه قد مُهِّدَ لهذا السيل بمجرى له خاص ، ليسهل عليه النزول إلى السد ، أو ليجعل ماء المطر ، يصل اليه من الأعالي صافياً بقـدر الإمكان . وباب مياه السد ، الذي تنحدر منه عند اللزوم لا بدَّ أنه في الناحية الجنوبية من السد ، لأنّ ذلك أمر طَبَعِيّ بالنسبة لقصر عاصم .. وبالنسبة لهذا الأخدود الذي شقته السيول فيما بعدُ ، وإلى الآن والذي ربما كان هو مجراها القديم ، وذلك لأن الجهة الشمالية من السد لا يمكن أن ينحدر منها الماء لاعتلاء ما يليها إلى الجنوب .

وقد بقي هذا السد حتى يومنا هذا بهيئته وشكله ، يقارع الزمن ، ويقاوم عوامل الطبيعة القاسية .. ولا يبدو لي أنه رُمِّمَ كثيراً عقب أو بعد عهد ازدهار العقيق .. مما يدلنا على متانة بنائه وروعة هندسته ... ويتراءى لي أنه لو أعيد تعميره بشد أجزائه المتآكلة إلى بعض بجص أو اسمنت ، لكانت منه فائدة طيبة في الاحتفاظ بكثير من المياه التي تهبط من هذه الجبال في موسم الأمطار .. وهذه الفائدة هي التي توخاها من بناه ، فحققت له أمله المنشود ..

هذا وقد أخذتُ لهذا السد بعض الرسوم .. كما رسمتُ في نفس

الوقت : بيوم ٩ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م جبل تضارع الذي يشرف على السد ، وتهبط مياه الأمطار منه اليه .

٢ — القصر :

وبعد أن فرغت من دراسة هذا السد وأخذ رسومه ، اتجهت إلى قصر عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان صاحب السد على ما يبدو من وضع السد والقصر المجاور له .

وقد عُنيتُ بالغ العناية بدراسة آثار القصر المذكور ، وزمن بنائه ، وشيء من تاريخه وطراز بنائه .

ويقوم القصر إلى ناحية الجنوب ، ببعض انحراف إلى الشمال ، بالنسبة للسد .. وبينهما نحو ٨٠ متراً .

وطول القصر نحو ثلاثين متراً ، وعرضه نحو ثلاثين متراً أيضاً ، فهو مربّع .. تماماً . وطراز تقسيماته عادي : غُرَف متجاورة ما بين صغرى وكبرى ، وما يبدو لي أنه مطبخ أو غرفة الخدم ، ودكّة للسمر لا تزال أطلالها ، وهي مربعة الشكل تقريباً ، وعالية عن الأرض حتى اليوم ، وأمامها ما يشبه غرفتين ، وبجانب هاتين الغرفتين ربوة مستديرة يخيّل إليّ ، انها طلل بناية لعلها تكون ملحقة بالقصر كإصطبل. أما البابُ ، أي باب القصر ، على ما يترآى لي ، فهو واقع في ناحية الشمال منه ، ليكون بمنأى عن مجرى السيل الواقع في جنوب القصر . ويلفت النظر أن غرف القصر غير متساوية في المساحة .. بعضها كبير مستطيل ، وبعضها صغير مربع .. وجِدارُ كل غرف القصر الواقعة في غربيه هو سور القصر نفسه .. وأمـــا الغرف التي بناحية الشمال والجنوب والشرق فجدرانها منفصلة تماماً عن سور القصر .. الذي لا تزال

خريطة أثرية تقريبية لسد عاصم ولقصره بالعقيق بالمدينة المنورة

الجماوات

جماء تضارع

طول السد ٣٦ متراً وعرضه متران ونصف المتر

سد عاصم

العرض ٣٠ متراً

الطول ٣٠ متراً

الباب

الفناء

أرض الحوش

غرفة

غرفة

غرفة

غرفة

غرفة

غرفة

غرفة

غرفة

غرفة أو مرحاض

مطبخ

غرفة

قصر عاصم وملحقاته

إصطبل

مخزن

مخزن

شمال

غرب

شرق

جنوب

أطلاله شاخصة للعيان بشكل واضح . وآية وجود هذا الحائط المحيط بسائر أجزاء القصر ، هي بقاء أطلاله المتراكمة المنهارة محيطة بسائر أجزاء القصر من كل ناحية . وفي ناحية ما سميته المطبخ ، بدأت أبحث لعلي أجد بعض آثار القصر ، لأن المطبخ دائماً هو محل استهلاك الأدوات المنزلية القابلة بقاياها للبقاء والإلقاء خارجه ، مثل القُلَل والأزيار وأواني الزجاج والفخار وما أشبه .. وفعلاً لقد عثرنا على شيء من كل هذا خارجه .. فهذه قطعة زجاجة (إسلامية) زرقاء اللون باهتة بفعل القرون .. وهذه قطعة زجاجة أخرى بيضاء من زجاج أبيض شفيف باهت بفعل مئات السنين .. وهذه الزجاجة الثالثة وقد وجدتُ عليها صورة نجمة إخالها خماسية .. وهذه قطع واضحة المعالم من بقايا الأزيار والقلل الملقاة بجانب المطبخ ، وهي ما بين ملوّنة وغير ملوّنة .. وهذه قطعٌ زرقاء مصبوغة بصبغ ثابت ، وربما تكون من بعض زهريات الزينة في القصر ..

وقد أخذتُ رسماً لكل من السد والقصر .. في جميع أبعادهما .. كما أخذتُ رسماً من زوايا متعددة لجبل جمّاء تُضارع الذي بني كلا السد والقصر في سفحه ، على ما رواه مؤرخو المدينة المنورة . ولا يزالان مشاهدَيْن كذلك .

وأعتقد أن قصر عاصم في تقسيماته الداخلية والخارجية ، يعطينا فكرة محددة عن طراز بناء قصور ذلك العهد ، بصفة عامة ، وعن طراز بناء قصور العقيق في عهده بصفة خاصة . ومن أجل هذه النظرية عنيت بوضع المخطط التقريبي له .

كما أعتقد أن بناء هذا السد يعطينا نموذجاً واقعياً منظوراً لبناء السدود التي تبنى إذ ذاك لتحفظ أكبر كميات المطر النازل من الأعالي في أطول مدة ممكنة ، للاستعمال المنزلي ، وللاستعمال الزراعي ، معاً ، في ذلك

الظَّرف .. ومن أجل هذا كله رسمتُ السد في مختلف أنحائه .. ورسمت ما حوله .. ليكون مثالاً مشاهداً لهندسة بناء السدود في تلك الحقبة من الدهر .. ولأثريّة جماء تضارع الشاخصة على العقيق من هذه الناحية عنيت برسمها أيضاً هنا ، تكملة لإطار الصورة الشاملة للقصر والسد وموقعهما .

أما وقد انتهينا من شرح ما قمنا به إزاءَ هذا الأثر النموذجي الذي هو « قصر عاصم بن عَمْرِو بن عُمَرَ بن عثمان بن عفّان » ، فلا بأس من الاستئناس بما أورده تاريخ المدينة المنورة عن هذا القصر وصاحبه .

يعرّفنا التاريخ : بأنّ قصر عاصم هذا كان معروفاً ومشهوراً في وقته .. فقد نص السمهودي في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » على أنه : « في قبل الحماء : (تضارع) المشرفة على قصر عروة ، وعلى وادي العقيق ، وأنه يواجه بئر عروة بن الزبير » . كما أفادنا بأن جماء تضارع التي رسمنا صورتها فيما سبق ، تسيل على قصر عاصم ، وعلى بئر عروة .. وهذا نص صريح على أن السيل الهابط من جبل جماء تضارع يسيلُ على قصر عاصم ، كما نراه مُشَاهَداً اليوم . ولربما كان ذلك بتعديل خفيف ، فهنا إلى جنوب القصر ، غَيَّرَ بعيد عنه ، الأخدودُ الذي أحدثه مرور السيل الدائم بهذا المكان القريب جداً من القصر ، كما حدّثنا السمهودي بأن سيل هذه الحماء ، كما يسيل على قصر عاصم ، يسيل على بئر عروة بن الزبير .

وقد تعرض هذا القصر لهجاء بعض شعراء المدينة ونقدهم في حياة صاحبه وبانيه . وتدلنا الأبيات التي تعاونَ على نظمها عبدُ الله الجعفري وعمرُ بن عبد الله بن عروة ، على أن هذا القصر كان قد بني في مكان يضايق مرور الناس ، على طرف من الطريق العام إذ ذاك ، كما تدلنا الأبيات على أن القصر كان مشرفاً وعالياً وواضحاً غير خفيّ للناظرين .

كما يدلنا هذا الشِعْر على أن صاحبه – عاصماً – لم يكن من مشاهير الأجواد ، على غناه وثروته ومكانته الاجتماعية .. وهذا مع أن القصر كان دائماً محل طهي وطبيخ وشواء خاص ، وربما لم يكن يتجاوز تناولها ، صاحب القصر وعياله وصحبه الخاصين به دون سواهم ، فهو – أي عاصم – مُنْطَوٍ في قصره على نفسه وعياله وصديقه .. ويقدم لنا هذا الشعر نصاً مهماً حيال موضع إقامة هذا القصر .. فهو مُشادٌ على مكـــان حَزْنٍ من الحجارة ، ولم يوضع على مكان سهل لين .. كما تدلّنــا الأبياتُ على أن القصر لم يُبْنَ لإوّلِ عهده بالحجارة والجص .. شأن روائع قصور العقيق .. بل بُنِيَ بطين .. لأول وهلة ، مما يدلنا على الروح الاقتصادية المسيطرة على صاحبه .. ثم إن صاحبه اضطر ، من أجل إصلاح معالمه وتجميل منظره في أنظار المجتمع حينئذ ، إلى شراء « قصة » فَطَرّهُ بها ، وغرم في ذلك ألفي درهم .

وفيما يلي أبيات هجاء القصر أو نقده ، ونقد بانيه ، التي نظمهــا الشاعران : عبد الله الجعفري وعمر بن عبد الله بن عروة .. ويلاحظ أن الأخير هو حفيد عروة بن الزبير .. فلا بد أن عامل التنافس كان له أثره في بعث هذا الهجاء أو النقد التحليلي المؤثر ، لقصر عاصم ، ولعاصم نفسه . قال الشاعران :

ألا يا قصر عاصم لو تبـــين ... فتستعدي أمـــير المؤمنين
فتذكر ما لقيت من البـــلايا ... فقد لاقيت حُزْناً بعـــد حين
بُنِيتَ على طريق الناس طراً ... يَسبّكَ كل ذي حسب ودين
ولم تُوضَعْ على غَمْضٍ فتخفى ... ولم توضع على سهل ولـــين
يُرَى فيك الدخانُ لغير شيءٍ ... فقد سُمّيتَ خـــداع العيون
قبيح الوجه منعقـــد الأواسي ... خبيث الْخَلْقِ مطرور بطين

ويتراءى لي أن المنافسة الاجتماعية في البناء والكرم كانت شديدة وقتها ، بين أصحاب أكثر قصور العقيق عامة ، وخاصة بين صاحب قصر عاصم وأصحاب قصر عروة وبئره .. ولذلك نرى عاصماً لا يستطيع أن يكبت ألمه مما ناله من هجاء قصره المنيف أو نقده ، من مكروه سوء السمعة وغمط الحقوق ونكران المزايا .. وقد رأينا عاصماً إذن يتصدى بشعره للدفاع عن قصره بين قصور العقيق ، فيما يتعلق باختيار موقعه بالنسبة لمواقع القصور التي كانت تُبنى في جنبات العقيق وبأعلى قِمَمِ جباله ، أو على أرضه القرار ، كما فعل صاحب قصر عاصم بقصره حينما اختار لإقامته مكاناً سوياً شتوياً ، غير ذُرى الجبال المرهقة لقاصد قصورها والمقيم فيها في كلا الطلوع والهبوط . وقد افتخر عاصم على معاصريه ومنافسيه في وادي العقيق بأن قصره كان شامخاً وعالياً بخلاف القصور الأخرى ، فهي إما واطئة أو قائمة على رؤوس الجبال بُعْداً بها عن مواقع اقتناص مجد الكرم وبذل الضيافة السخية للوافدين والطارقين . فقصره ، لقربه من الناس في مَقارِّهِم مع سعته وعلوه هو مثابةُ كَرَمٍ وفير ، للقاصدين والوافدين ، يطعمون في أبهائه ما لذ وطاب ، ويبيتون في غرفه الواسعة خير مبيت . بخلاف قصور أولئك المنافسين ، وبهذا دحض عاصم ، شعراً ، ما رماه به الشاعران من البخل ، وما نقدا به قصره من سوء الموقع ...

قال عاصم يدافع عن نفسه وقصره ويمدحه ، ويبرز فضائله ومزاياه :

بَنَوْا وبَنَيْتُ واتخذوا قصوراً　　فما ساوَوْا بذلك ما بَنَيْتُ
بَنَيْتُ على القرارِ وجانبوهُ　　إلى رأس الشواهق واسْتَوَيْتُ
على أفعالهم وعلى بناهم　　علَوْتُ وكان مجداً قد حَوَيْتُ

وقد أمعن عاصم أو ابنه (زيد) في إبراز مزايا قصرهم الذاتية على ما عداه من سائر قصور العقيق في قوله :

وتلك صلاصل قد فلّستهُمْ   وذلك وَدْيُهُمْ فيها يَمُوتُ
فليس لعاملٍ فيها طَعامٌ   ولَيْس لضيفهم فيها مَبِيتُ

والصلاصل أرض كانت لعروة بِحَرَّةِ وادي بطحان ثم صارت لابنه (يحيى) فوقفها في بنيه ، وكان يقال لها (المقرّبة) . ويدلنا بيت لأبي معروف أخي بني عمرو بن تميم على أنها كانت في واد قال :

إلى وادي صلاصل فالمصلى   إلى أكناف أعذق ذي وشيع [1]

هذا ولأرض صلاصل هذه مزايا في نظر عروة بن الزبير ولم تكن لها هذه المزايا في نظر عاصم .. ولعله عامل التنافس على المجد يؤدي إلى اختلاف وجهات النظر في مثل هذه الأمور ..

فهذا عروة يقول في صلاصل التي هجاها عاصم مؤخراً :

مآثر أخوالي عَدِيٍّ ومازنٍ   تَخَيَّرْتُها واللهُ يعطي الرغائبا
فمن قال فيها قِيلَ صِدْقٍ فلم يقلْ   ومَنْ قال فيها غيرُه كان كاذبا

واذن فصلاصل هذه كانت موضع مناقشة اقتصادية ذائعة ، فيما يتعلق بمزاياها وضدها .. صاحبها عروة يمدحها ويفتخر بها ويعتز ، ويرى أنها من الذخائر ، لأنه تخيرها بنفسه ، بين الأرضين الخصبة .. وعاصم يذمها كل الذم ، ويرى أنها جلبت الإفلاس لأصحابها ، فذلك (وَدْيُهُمْ) أي بنات نخلهم تموت فيها إما لقلة الماء أو من إسباخ أرضها وقحولتها .

هذا وقد تكون « صلاصل » أيام اشتراها عروة بن الزبير واستصلحها وغرس بها النخيل وغيرها ، جيدة التربة ، وفيرة الإنتاج فيما غرس فيها ،

---

[1] « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » ، المجلد ٢ ، ص ٣٣٦ ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .

ثم ساءت حالتها ، وقلت غلتها بعض الشيء ، بعد وفاة هذا الماهد ، وفي أيام أحفاده ، بسبب بعض الاهمال ، أو لقلة المال ، فكانت على بعض ما وصفها به عاصم في زمنه المتأخر عن زمن مُنشئها عروة بن الزبير .

ويدلنا على أن لعاصم بعض الحق في وصفه لصلاصل عروة المغلفة في نظره بالملوحة وقلة الغناء ، ما رواه السمهودي من أن ابن أبي البداح (وكان أعلم الناس بالنخيل) مَرّ على عروة وهو يغرس أرض الصلاصل هذه ، ألواناً فقال له : إن كنت ولا بد غارساً فعليك بعذق ابن عامر ، فانه ليس عذق أحسن للتنزه ولا أصبر على المالح منه [1] .

---

١ وفاء الوفاء للسمهودي ، ج ٢ ، ص ١٩٥ و ١٩٦ ، طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .

قصر سعيد بن العاص [1]

وصفه :

يقوم هذا القصر ، في وسط العرصة الصغرى من العقيق ، وبشرقيه على مسافة قريبة منه بستان ، وطوله نحو ٣٦ متراً ، وعرضه نحو ٢٧ متراً ، وارتفاع أطلاله الباقية نحو ٩ أمتار ، وسمك جدرانه ٧٦ سنتيمتراً ، وطوله وعرضه المذكوران إنما هما بِضَمّ الأقسام المتساقطة منه ، اليه . وبناؤه بالحجارة السود المتوسطة الحجم ، وبالجص ، وحجارته غير منحوتة ، ولا أثر فيها للكتابة ، وإنما توجد في بعض أروقته ونوافذه نقوشٌ على الجص ، وزخرفةٌ بالطوب المجصص ، وقد عَبَثَ البَدْوُ بناحيته الجنوبية الشرقية ، إذ استحدثوا بها بناءاً مسقفاً لإيواءِ أنعامهم .

وقصر سعيد بن العاص مطليّ بالجِص ، من داخله وخارجه . ولمتانة بنائه وارتفاعه عن المسيل ، وتجصيصه بالصفة المذكورة تأثيرٌ كبير في بقاء أطلاله واقفة شامخة إلى هذا اليوم برغم اندثار ما بالعقيق من سائر القصور .

---

١ أبقي هذا القصر كما هو في الجنوب الشرقي بداخل سور القصر الملكي الذي أصبح فيما بعد ، دار الضيافة الملكية بالمدينة المنورة كما أشرنا اليه فيما مضى .

وفي جنوب القصر مسطبة (دكة) متداعية ، لعلها كانت مُعَدَّةً للجلوس والسمر ، في ليالي القمر ، والعشيات والبكر .



طَلَلُ قصر سعيد بن العاص بالعقيق بالمدينة المنورة

وبمقربة منه جنوباً وشمالاً ، تُرَى سلسلةُ أكوام ، يعلوها رمل الوادي الأحمر ، وهي آثار دُورٍ ، قد تكونُ الدّورَ المسماة بالقرائن التي كانت لبني سعيد ، على ما رواه صاحب الأغاني .

نبذة من تاريخه :

جاء في « وفاء الوفا » : « ابتنى سعيد بالعرصة قصراً في سُرّتِها » وفيه : « أن القصر بالعرصة الصغرى » . وفي « مرآة الحرمين » إيضاح لموقع هذه العرصة إذْ ورد فيها ما تلخيصه : « القسم المقارب للمدينة

من العقيق الغربيّ يُسمى العقيق الكبير ، وفيه بئر عروة . والقسم الشماليّ يسمى العقيق الصغير ، وفيه بئر رومة . وبهذا العقيق الصغير عرصتان : كبرى ، وهي التي تلي بئر رومة ، وصغرى تقع جنوبي الكبرى » .

وسعيدٌ باني هذا القصر هو أحد أمراء المدينة في خلافة معاوية رضي الله عنه ، وهو من مشاهير أجواد بني أمية ، وقد كان معجباً بقصره هذا ، كل الإعجاب ، ولذا خصصه للتنزه والاستجمام ، مما يدلنا على مبلغ عنايته بتشييده وتأنيقه وربما وتأثيثه .

قال البتنونيّ في رحلته : وكان هذا القصر في أيام صاحبه آيةً في جماله وفخامته ، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجري ، وأعجوبة من أعاجيبه ، حتى فضله الشاعر على أبواب جيرون : (دمشق) التي كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة ومكان فخامتها وأبهتها . ا ه

والشاعرُ الذي يشير اليه البتنوني هو أبو قطيفة إذ يقول :

القصر فالنخل فالجماء بينهما أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

قصر إمارة المدينة المنورة

في الجنوب الشرقيّ من مسجد قباء ، وبعد حديقة (الصّوَيْبِري) وفُوَيْقَ بستان (ابن مُسَلّم) تجثم أطلال بناء ضخم قاتم اللون . وهو عبارة عن أروقة ضخمة تنتهي إلى بروج في أركانه ، وتقع في وسطها رحبة .. هذا البناء الضخم مجهول الهوية لديّ قبلاً ، وقد بحثتُ عن حقيقته كثيراً فأخذتُ عن أحد المُعَمّرين : (حمزة خليل ، رحمه الله ، إمام مسجد قباء ، المتوفي قبل نحو ٣٧ سنة) .. أخذْتُ عن هذا المعمر المدني ، أنه — وهو صغير — أدرك صاحب هذا الحصن ويعرفه ، فإنه « ابن مضيان » أمير المدينة في عهد آل سعود الأُوَل . وهذا الحصن أو القصر يقع في طرف حرة قباء متصلاً من ناحية الشمال بالبساتين ، وهو يشرف عليها لارتفاع مستوى عمارته عنها قليلاً .. وتحيط به الحرة من ثلاث جهات [1] .

---

[1] يستأنس لهذه الرواية عن هذا المعمر الذي أدركناه بما ورد في كتاب : « عنوان المجد في تاريخ نجد » لعثمان بن بشر ، حيث ورد فيه ، ص ١٣٥ ، طبع المطبعة السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٩ هـ ، ما نصه :

« وفي أول هذه السنة قبل مبايعة غالب ، بايع أهل المدينة المنورة على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، وهدمت جميع القباب التي وضعت فيها على القبور والمشاهد ، وذلك أن آل مضيان=

= رؤساء حرب وهما بادي وبداي ابنا بدوي بن مضيان ، ومن تبعهم من عربانهم ، أحبوا المسلمين ووفدوا على عبد العزيز وبايعوه ، وأرسل معهم عثمان بن عبد المحسن أبا حسين، يعلمهم فرائض الدين ويقرر لهم التوحيد . فأجمعوا على حرب المدينة ونزلوا عواليها ، ثم أمرهم عبد العزيز ببناء قصر فيها ، فبنوه وأحكموه واستوطنوه ، وتبعهم أهل قباء ومن حولهم ، وضيقوا على أهل المدينة ، وقطعوا عنهم السوابل ، وأقاموا على ذلك سنين ، وأرسل اليهم سعود ، وهم في موضعهم ذلك ، الشيخ العالم قرناس بن عبد الرحمن صاحب بلد الرس المعروف بالقصيم ، فأقام عندهم قاضياً معلماً ، كل سنة يأتي اليهم في موضعهم ذلك ، فلما طال الحصار على أهل المدينة ، وقعت المكاتبات بينهم وبين سعود ، من حسن قلعي وأحمد الطيار ، والأعيان والقضاة ، وبايعوا في هذه السنة ، سنة ١٢٢٠ هـ » .

وأقول تعقيباً : « أنه ربما يكون حمزة خليل رحمه الله ، أدرك ، وهو صغير ، من أهل المدينة المنورة من أدركوا عهد إمارة ابن مضيان وكانوا يتناقلون في مجالسهم الخاصة والعامة حوادث ذلك الظرف الذي ضيق عليهم فيه ، رطبة وجديدة بالنسبة اليه ، فعزا ذلك إلى مشاهداته تجوزاً أو مجازاً أو تأكداً من مسموعاته واعتبارها ضمن مشاهداته والله أعلم .

وادي رانوناء

هِضَابٌ بِهَذا السَّدِّ بالصَّلْدِ كُلُّها
عَلَى كُلِّ وادِيها جِنانٌ مِنَ الأَرْضِ
وَإِنَّ الغَوانِي لا يَزَلْنَ يَرُدْنَـــهُ
وَكُلِّ فَتًى سَمْحٍ سَجِيَّتُهُ غَضِّ

عثرت على هذين البيتين مَنْقورَيْنِ — بخط قديم — في صخرة عظيمة جداً ، بقرب السدود التي بوادي رانوناء ، على يسار الذاهب اليهما من قُباء .. وقد وقفت مع بعض الإخوان أمام تلك الصخرة تحت شعاع الشمس المحرق ، زهاء نصف ساعة ، نُحاوِلُ قراءة هذا الخط العتيق . وبعد اللتيا والتي وفِّقْتُ إلى قراءتها بالصورة المرقومة أعْلى . ولا أزال ألاحظ اضطراباً لفظياً ومعنوياً في البيت الأول .

وأسلوبها الفخم يَنِمّ عن كونها مما قبل في صدر الإسلام .

وإننا لنشكر لهذا الشاعر ما قام به من تسجيل هذا الصَّكّ الشعري التاريخي الحافل بذكريات رائعة عن دَوْرٍ ناضر من أدوار واقع هذا الوادي القاحل اليوم .. ضَرَبَ عنه المؤرخون صَفْحاً ، وأعرضوا عنه إعراضاً كُلّياً .

وهكذا نرى بعض الشعراء في بعض الأحيان يقومون بِدَوْرِ المؤرخين ولكن بمثل هذا الأسلوب الشعريّ الإجمالي الأخاذ .

يريدُ الشاعر أن يُطْلِعَنَا – نحن الأجيال القادمةَ بالنسبة لزمنه – على أنّ هذا الوادي لم يكن كما نراه اليوم ، أجْرَدَ قاحلاً ، بل لقد كان في عصره زاهراً وزاخراً بالرياض الغناء ، ومرتعاً للظباء الأوانس ، ومسرحاً للفتيان الأجواد ، يقصده النوعان ، بكرة وعشياً ، للتنزه في مروجه الخضراء ، والتمتع بجماله الجذاب .

ويخيّل الينا أن الشاعر لمّا ارتسم في ذهنه الصافي ، جمالُ منظر الوادي ومَنْ فيه أبَتْ قريحته الخصبة إلا أن تجود بالبيتين المذكورين ، وأبى سموّ مداركه إلاّ أن ينقشهما بيده على هذه الصخرة الملساء ، وقلنا : إن ناظمهما هو راقمهما ، استنتاجاً من وجود اسم تحتهما ، ولرداءة خطهما ، كخط أغلب الشعراء البارعين .

* * *

آثار الوادي : السّد – الكتابات :

قولنا (السّدّ) بلفظ المفرد ، لا يخلو من مجاز ، وإلا فالحقيقة أنها سدودٌ ثلاثة محكمة البناء متقاربة ، وأكبرها الجنوبيّ الذي يلي مصادر السيل ، ويليه في الضخامة الثاني فالثالث .

وحجارة بناء السدود الثلاثة متلاصقة بدون حَشْوٍ بينها .

والحِكْمَةُ في جعل السّدِّ الجنوبي ، أضخم ، تقويته لِتَلَقّي تيار السيل الذي يصادمه لأول وهلة ، فإذا امتلأت السدود بجري السيل في الصفاصف إلى أن ينزل إلى العصبة .. وهناك مجراه ظاهرٌ .

* * *

هذا وقد عثرنا على كتاباتٍ شتى في صخور الهضبة التي تلي السد في غربيه . وأهم ما فيها كتابة هذا نصها :

« جدد هذا السد بإرادة الملك المظفر السلطان عبد العزيز خان سعادتلو شيخ الحرم خالد باشا بنظارة الفاضل محمد صالح حماد سنة ١٢٨٩ هـ بالمدينة المنورة .. عمر ازميري غفر الله له آمين » اهـ .

وهذه الكتابة تدل على أنه كان في موضع هذا السد ، سَدٌّ آخر ، لأن التجديد لا يكون إلا للموجود ، ولعلّ السدّ المُجَدَّدَ بهذا هو سد عبدِ الله بنِ عمرو بن عمر [1] بن عثمان الذي جاء في « وفاء الوفا » أنه يصبّ فيه سيل رانوناء :

وتوجد كتابات كثيرة في صخور هذا الوادي ، وبمصبه إلى العصبة .

أما مصدر سَيْلِهِ فهو مقمة أو مقمن (جبلٌ جنوبيّ عَيْر) ، ومِنْ هذا الجبل يفيض على قَرينِ صريحة ، فالسدِّ الموصوفِ ، فالعرصةِ بَعْدَهُ ، فالصفاصفِ ، فالصخورِ ، فأرضِ العصبةِ ، ثم يسير حتى يعترض طريقَ قُباء الحديثَ حيث عمل له هناك مجرى فوقه جسر ، ثم يختلط بوادي بُطْحانَ ، ويدخلان المدينة معاً تحت باب قباء في شرقيّه .

ووادي رانوناء في الضاحية الجنوبية الغربية للمدينة . والسد الذي به يبعد عن بطن المدينة بنحو خمسة كيلومترات ، وطريقه منها :

بابُ قباء — طريقُ قباء — انحرافٌ إلى الجنوب الغربيّ — الطريق غربي بستان العصبة — الحرةُ — الصخور — الصفاصف — العرصةُ — السدّ أو السدود .

---

[1] عبد الله بن عمرو بن عمر بن عثمان هذا هو أخو عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان صاحب القصر المعروف بقصر عاصم الذي تحدثنا عنه في فصل خاص .

جبل سلع والآثار به

جبل عظيم شامخ في شمالي المدينة ، وقد اتصل به العمران حالياً وتجاوزه . وحجارة هذا الجبل سودٌ بوجه الإجمال ، تتفتّتُ من ضغطها باليد ، ويقال إنها تحتوي على مادة الإسمنت ، ولكن لم يتحقق هذا بتجربة علمية بعدُ . وفي شرقيه « دكة جلال » مهدها شخص يدعى بهذا الاسم في عهد الدولة العثمانية ، وفي سفحه الغربيّ كهف بني حرام الذي كان به مبيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبشمال هذا الكهف في سفح الجبل أيضاً مسجد الفتح .

وفي علو سفح جبل سَلْع الجنوبي كتابة كوفية أثرية قديمة منقورة في الصخر ، نَصُّها على ما رواه صاحب مرآة الحرمين : (أمسى وأصبح عمر وأبو بكر يشكوان إلى الله من كل ما يكره) .. (يقبل الله عمر . الله يعامل عمر بالمغفرة) . وهي في أماكن متفرقة وقد أثبت البحث الأثريّ أنها قديمة ، وبخط هذين الصحابيين الجليلين [1] .

---

[1] انظر مرآة الحرمين لابراهيم رفعت .

جبل سُليع

هو الجبل الصغير الذي يقع بجنوبي جبل سَلْعٍ ، وفيه كانت بيوت بني أسلم من المهاجرين في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفوقه اليوم أحَدُ أبراج قلعة الباب الشامي ، وكان عليه في القرن التاسع الهجريّ حِصْنٌ أمير المدينة من الأشراف ، بناه الأمير ابن شيخة أحَدُهُم في القرن السابع الهجريّ ليتحصن به وليكشف منه ضواحي المدينة ، ويقول جعفر برزنجي في « نزهة الناظرين » : إنّ هذا الحصن هو القلعة المعروفة عند باب السور المعروف بالباب الشامي وفي تاريخ المدينة للعباسي ما يفيد أن القلعة المذكورة هي في مكان الحصن ، وأنها من منشآت الدولة العثمانية .

ويفصل بين سُلَيْعٍ وهضبةٍ بشماله ، طريقٌ يؤدي إلى المجزرة وَسَلْعٍ . وهذا الطريق هو المعروف قديماً بثنية عثعث .

الجبل المتوهج

كانت هوايتي الأولى منذ صدر شبابي ، التنقيبَ عن الآثار .. ومعرفةَ أخبارها وتطوراتِها ، وساعدني على ذلك كثرةُ الآثار بالمدينة المنورة .. سواء ما كان منها جاهليّـاً عريقاً في الجاهلية ، أم قريباً من الإسلام ، أم ما كان إسلامياً في صدر الإسلام ، وبعد ذلك .. وكانت أولى خُطواتي في هذا الميدان قراءة الكتب التي تبحث عن آثار المدينة في القديم ، مثل كتاب « وفاء الوفا » للسمهودي ، وكتاب المطري والمراغي وغيرهم من قدامى العلماء الإسلاميين الذين عنوا عناية خاصة بآثار المدينة المنورة في عهودهم المتتابعة .

ثم كانت الخطوة الثانية الاستقراء العملي ، والدراسة الواقعية ، لما كتبوا عنه ، فكنت لذلك أتجشم مشاق الوصول إلى كل ضاحية وناحية تحدث عنها أولئك المؤلفون ، مشياً على الاقدام ، في أغلب الأحيان ، وركوباً على الحمير ، في بعض الأحيان .. إذا كانت المسافة نائية أو الطريق وعرة ، لا يمكنني المشيُ على الأقدام من الوصول إلى ما أبتغي الوصول اليه منها .

والمدينة ذات طَقْسَيْنِ متباينين : أحدهما حار لافح ، ويمثــل أغْلَبَ نصف العام ، وهو فصلُ الصيف والْحَرور ، وثانيهما بارد

قارس ، شديد البرودة إلى حد نزول الثلج في بعض الفصول . وهذا الفصل هو فصل الشتاء . ولكن الهمةَ الطّموح المنبثقة من جوانحي حينئذ لتحقيق هذه المهمة ، كانت لا تدع لي مجالاً للتقاعس عن تحقيقها ، سواء أكان الزمن شتاء قارساً أم صيفاً لافحاً .. فَكُنْتَ تراني أتجول في شوارع المدينة ، يستوقفني مثلاً « حَجَرُ مِسَنٍ » مثبت على باب عتيق ، أو دارٌ متهدمة عتيقة ، أو مسجدٌ قديم .. وكنت تراني أتجول في ضواحي المدينة ، مُحَقِّقاً مجرى واد مجهول الآن ، ذَكَرَهُ قدامى المؤرخين ، أو باحثاً عن منازِلَ لقوم من الأنصار في إحدى تلك الضواحي ، أوْرَدَ ذِكْرَها المؤلفون الأولون .. وكنتَ تراني في بعض الأحيان أتجاوز كل هذا وذاك ، مستطلعاً منقباً عن آثار لم يحدثنا عنها المؤلفون ، كانَتْ تستوقفني عَرَضاً أثناءَ تجولاتي ، فأقفُ مصراً ، على حَلِّ طلاسم رموزها .. أقف تارة في صيهود الجو الملتهب ، وتارة في زمهرير الشتاء .. وكثيراً ما وُفِّقْتَ إلى حل طلاسم من الخط العتيق ، بالمقارنة والبحث والتأمل .. مثالُ ذلك أنه يوجد بقرب السد الواقع جنوبي غرب المدينة المنورة ، رقعةٌ بيضاء فسيحة من الأرض تحيط بها الجبال من كل ناحية ، وبأحد تلك الجبال صخرة ضخمة ملساء ، استرعى انتباهي اليها وجود نقوشٍ عتيقةٍ مضطربةٍ عليها .. فوقفت أمامها تحت أشعة الشمس الملتهبة ، زهاء ساعتين ، حتى اهتديت إلى حل هذا الطّلّسْمِ من الخط العربي البدائي المنحوت على الصخرة الضخمة الملساء .. ويا عَجَبَ ما قرأتُ وحللتُ !.. فقد دلني ذلك على أن هذه المنطقة الجرداء القاحلة ، كانت في عصر من العصور القديمة رياضاً غناء ، ومنازلَ أنيقةً ، ومرتاداً للشبان في تنزههم وروحاتهم وغدواتهم .. ذلك ما عبّر عنه البيتان المنقوشان بالمسمار على تلك الصخرة الملساء الضخمة التي تمثل جانباً من جوانب الجبل المتقورين فيه كما سبق ذكره بايجاز .

يقول أحد البيتين عن ذلك الوادي :

وإنّ الغواني لا يزلن يَرُدْنَهُ
وكُلّ فتىً سَمْحٍ سجيتُه غَضٍ

* * *

هذا وقد دفعني حب الاستطلاع في يوم من أيام الصيف الملتهبة ، إلى أن أمتطي حماراً ، من المدينة المنورة [1] ، وأتوجه إلى طريق (الْجِصّة) . وطريق الجِصّةِ اصطلاح لاهل المدينة يعنون به ذلك الطريق الأثري الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم ، في هجرته من مكّة المكرمة إلى المدينة المنورة .. وقلتُ في نفسي : لا بدّ لي من استكشاف أواخر هذا الطريق بنفسي ، ورؤية معالمه ، لأنه أثر من الآثار التاريخية المهمة .. يُمَثّلُ نقطة تحول عظيمة في تاريخ الحياة البشرية .

ومضيتُ على حماري بعد أن وضعتُ فوقه خُرْجَيْنِ للزّاد والماء ، في هذه الرحلة الاستكشافية ، وحملت عصاً صغيرة من نوع الخيزران ، أسوق بها الحمار إذا ما جمح ، أو تبلد عن المسير . ومضيتُ متجهاً صوب جنوب المدينة .. لقد مررت على قباء ، وأخذت الطريق إلى جانبها الأيمن ، في اتجاهٍ جنوبيّ غربي ، وتركتُ بجانبي حديقة « الرفيعة » ومن ورائها شاهدتُ (أطم الضحيان) .. ذلك الأطم الأسود الهائل القائم على ذراع الحرة الغربية .. وهو الأطم الوحيد الباقي من آطام الأنصار في عصر الجاهلية ، وكان أحَيْحَةُ بن الجلاح أحدُ زعماء المدينة من الأوس قد بناه في عهد الجاهلية بالحجارة البيض الصغار فلما رآه عُرْضَةً للتهدم ، أمر بنقضه وبناه بالحجارة السود الضخام ،

---

[1] لم تكن السيارات يومئذ بهذه الكثرة الموجودة اليوم .

وما يزال ماثلاً للعيان إلى اليوم ، أثراً خالداً من آثار العرب القدامى في فنّ البناء ..

وبدأت أتوغل في الحَرّةِ ، ورأيت أمامي خطاً دقيقاً باهتاً أكل الدهر عليه وشرب ، من خطوط الطرق القديمة .. فهل هذا الخط الدقيق المتفاني يمثل طريق الحصة الأثري .. وتتبعته ومضيت لا ألْوي على شيء .. هذا جبل « عَيْرٍ » حدّ المدينة المنورة الغربي الجنوبي .. وتكاثرت الجبيلات عن يميني وعن شمالي ، وبدأ حماري يتعثر .. إذ كانت الطريق وعرة مهجورة ، والحجارة بها متوافرة .. وقد نفعت العصا ، فصرت أزجر الحمار بها زجراً هيناً خفيفاً وأوجهه بها توجيهاً غير صارم .

ها أنذا الآن قد توغلت في الجبال ، وقد مضت ثلاث ساعات على خروجي من المدينة المنورة .. وها أنذا أمضي قُدُماً .. ما الذي أريده الآن ؟ ما الذي أسعى اليه ؟ لا أدري ! إلا أنني أزمعت المضيّ قُدماً لألبّي هاتفاً عميقاً في نفسي ، لا يريد لي العودة رغم طول ابتعادنا عن نقطة قيامنا .. لعل كل ما أريده استكشاف اللمسات الأخيرة الدانية من طيبة في طريق هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصدّيق .

ومضيتُ .. وتطامنت الجبال وصغرت .. وقَلّتْ وصا ت هضباتٍ وتلالاً غير سامقة .. فسجلتُ هذا الاختلاف الطبّيعي في مذكرتي .

وها نحن أولاءِ الآن قد مضت علينا أربع ساعات في السير ، وقد ارتفعت الشمس فوق رأسي حين توسطت كبد السماء . وكنت قد استعددتُ لهذا ، بمظلة تقيني الحر اللافح . ففتحتُها فوق رأسي ، ومضيتُ .. وقد رأيت إلى الأمام عن يساري جبلاً واطئاً ، يلوح لي من بعيد .. مشرقاً متوهجاً أبيض وضاءاً ، على عكسِ جميع الجبال والجبيلات التي مررتُ بها وكانت كلها سوداً ، وداكنة ، ونحاسية

الألوان .. أما هذا الجبلُ الذي أقتربُ منه رويداً رويداً ، والذي يقع إلى اليسار من طريقي ، فهو أبيض متوهج ، يشبه الأضواء الساطعة في الليل الدامس ، والشمس المشرقة في فجوات الضباب ، والألماس المتلألئ بين الحجارة السود .. ألا يكون إذَنْ جَبَلَ ألماس ؟ لندع الخيال يسرح ويمرح .. فإنني مُقْدِمٌ على الجبل ، وعما قليل سأكون عنده ..

بلغت الجبل الساطع .. فما خانني البصر ، وعند سفحه نزلتُ من على متن الحمار ، وقيدتُهُ حتى لا يَفِرّ مني في هذا البلقع الموحش المخيف .. وأخذت عصاي بيميني ، وتقدمت للصعود إلى الجبل ، فإذا حيوان أخضر ناضر الاخضرار ، أكبر قليلاً من القِطِّ وأصغر من الكلب ، يقف لي فوق سفحه بالمرصاد ، فأخذتُ حجراً من الحجارة الكثيرة — وكنت رَمّاءاً بالحجارة — وألقيتُ بالحجر على هذا الحيوان الأخضر الناضر الاخضرار ، الذي لم أرَ له مثيلاً من قبلُ ، سوى الحرباءِ الصغيرة التي تتلون بلون ما تقف عليه ، فيخضر لونها إذا كانت على غُصن أخضر .. وبمجرد أن وقع الحجر قريباً منه وثب عليه ، فعضه ، وسرعان ما أتبَعْتُ الحجر بحجر آخر مثله ، في رمية أقوى من الأولى وأعنف ، فلما استهدفه الحجر وكاد يصيبه وَثَبَ بعيداً عنه ، وما إنْ هبط على الأرض حتى وثب عليه فعضه . عندها آثرتُ المهادنة ... فقد يكون هذا الحيوان سامّاً وخطيراً ، وقد يكون مفترساً عارماً ، وقد يكون ... وقد يكون ... الخلاصةُ أنني آثرتُ بعدها طريق المسالمة فانتحيت قصياً عن طريقه .. ومضيتُ في ترقب وحذر ، إلى الجانب الآخر من الجبل .

ويا للدهشة ، فقد لاحظتُ عندئذ أن الجبل كلّهُ فصوص ذات بريق مشرق .. وعدتُ إلى حماري المقيد ، فأخذتُ الخرجين ، ووضعتُ

فيهما كمية لا بأس بها من الفصوص ذات البريق الخاطف ، ثم عدت إلى الجبل ثانية فاسترعت نظري هذه القُبَيْبَاتُ الواطئة المنتشرة كالبثور على سطحه المتكور من كل ناحية .. إنها قُبَيْبَاتٌ من حجارة الجبل نفسه ، ولكنها الحجارة السودُ الكبيرة والمتوسطة .. فقد ظهر لي أن الجبل ذو ثلاث طبقات .. طبقة الفصوص المتوهجة ذات البريق الخاطف وهي العليا البارزة للعيان .. وطبقة الحجارة الكبيرة والمتوسطة وهي سوداء اللون ، وتحت الطبقة السالفة طبقةُ الصخور الكبرى التي تمثّل كيان الجبل الداخليّ ، وهي سوداء وصفراء باهتة اللون يتخللها تراب وطين أحمر .

وقفتُ عند قُبَيْبَةٍ من هذه القبيبات الواطئة المنبثة على الجبل الغريب ، ومن باب الاستكشاف ، أقدمْتُ على محاولة رفع حجر من حجارة إحداها .. وبجهد تمكنتُ من رفع الحجر ، ونظرت إلى داخل القُبَيْبَةِ ، عن طريق الثغرة التي أحدَثْتُها برفعي الحجر .. فبهرني ما شاهدتُ ... لقد شاهدتُ داخل القُبَيْبَةِ هياكلَ بشريةً مُمَدَّدَةً .. ثلاثة وأربعة وخمسة في كل قُبيبة ، ولكنّ هذه الهياكل البشرية العظيمة الضخمة ، مجردة عن اللحم تجريداً تاماً .. وهي أضخم بكثير من الحالية .. في الجمجمة والأذرع والسيقان والأقدام وفي كل شيء .. وذهبت إلى قُبيبة أخرى ففتحتها أيضاً بعد جهد ، فإذا بالمنظر نفسه يتكرر ... عندها علمت أنّ هذه مقبرة مجهولة ، عريقة في القدم .. والشيء الذي حزّ في نفسي هو أنني أدركت من وقتها أن هذه المقبرة لا بدّ أن تكون جُبّانَةً لمدينة قريبةٍ منها .. وكم وددت لو تمكنني المقادير من استكشاف موقع المدينة القريبة من هذه الجبانة ؟.. ولكنّ الشمسَ بدأت تميل إلى الغروب ، وخَشيتُ البقاء وحدي في هذا القفر الموحش ، خصوصاً بعد أن كاد الماء ينفد من الركوة المعلّقة على الحمار . وسرعان ما عدت لأمتطي حماري ، وأرجع أدراجي إلى المدينة

من الطريق التي أتيتُ منهـــا ، فوصلت اليها والشمس قد آذنت بالمغيب ، وقد سقطت وراء الأفق البعيد .

إنها رحلة شاقّة ولكنها ممتعة .. أما ما التقطته من الفصوص فقـــد بقي لديّ فترة من الزمن ، ثم رأيتُ عرضها في سوق سويقة بالمدينة .. وبالفعل عرضتُها ، وفهمت أنها ليست بألماس كما توهمت ، وإنما هي من هذه الحجارة المعروفة في المدينة « بحجر المدينة » .. وهي تستعمل أيضاً فصوصاً للخواتم كالألماس تماماً .. ولكنها ضئيلة القيمة .. قيمتُها يومذاك أشبه بقيمة الألماس الصناعي اليوم .. لقد بعتُ كل ما جمعتُه يومئذ منها بخمسين ريالاً فقط .. وكان الذي اشتراها مني بالجملة أحد الباعة بالمدينة في سويقة وقال لي : إنه سينحتها وينظمها ويعمل منهـــا فصوصاً براقة كألماس ليبيعها للزوار في موسم الحج القادم .. هكذا آل مصير الفصوص التي ظننتها ألماساً ، وهكذا تبخّر حُلمي بالألماس .. وذلك كان آخر عهدي بالجبل المتوهج .

جبل عار *

عار : كما هو معروف اليوم ، هو سلسلة هضبات متصلة بعضها برقاب بَعْض ، تبعد عن المدينة جنوباً بنحو ١٩ ساعة ، بسير القوافل الحجازية ، وبنحو نصف ساعة بسير السيارات في الوقت الحاضر ، وهذه السلسلة من الهضبات الشامخة تخترقها الطريق الذي يوصل بين مكّة والمدينة . وتقطن قبيلة (الرِّحَلَة) الحربية في هذه المنطقة الآن . ويحدّثنا التاريخ بأنها كانت من منازل قبيلة مُزَيْنَة . وتنتهي هذه السلسلة غرباً إلى وادي الفريش[1] ، وشرقاً إلى مفرق الطرق المعروف

(*) نشر هذا البحث في المحرم ١٣٥٦هـ – مارس ١٩٣٧ م، بالعدد الثاني من مجلة « المنهل »، وكانت هذه الرحلة القصيرة مع بعض الأصدقاء ، فقد قمنا من المدينة المنورة بعد صلاة العشاء ممتطين سيارة كبيرة ، ووصلنا في الليلة نفسها إلى محطة الفريش وبتنا بها وفي الصباح أجمعنا أمرنا وتوجهنا صوب جبل عار وتجولنا فيه مدة حتى حمي وطيس الشمس فعدنا إلى المحطة .

١ وفي « وفاء الوفاء » ما نصه : « فرش ملل ، والفريش مصغره معروفان قرب ملل ، يفصل بينهما بطن واد يقال له مثغر كان بهما منازل وعمائر ، وكان كثير بن العباس (الشاعر الحجازي المعروف (مقيماً في هذا الوادي » . وعلى هذا فالفرش هو الوادي الذي يقع بعد عار جنوباً ، المعروف الآن بالعاصد ، ومثغر هو هذا الوادي الواقع في هذه الهضبات المعروف مجموعها اليوم بجبل عار . وبهذه الهضبات كان منزل شاعرنا ، مع محبوبته إذ يقول (معجم البلدان ، ص ١٥٣ المجلد السادس) :

سقياً لعزة خلة سقياً لها   إذ نحن بالهضبات من أملال

قال ابن السكيت : « املال ، هي ما يدعى اليوم جبل عار ذو الهواء النقي والتلاع الوفيرة والشعاب الخصبة الجميلة .

اليوم بالعاصد . والاحمرار هو اللون الغالب على هذه الهضبات . . وبداخلها في الجانب الشمالي من الطريق فتحة واسعة في وسطها مهراس [1] عميق ، وجدناه مملوءاً بالمياه المتحدرة اليه من أعالي الجبل . ويستقي منه البادية هناك [2] .. وبشرق المهراس قاع أفيح ، فيه منازل مبنية بالحجر والطين ، بناية في غاية البساطة ، ولا يزال من فيها يدعونها بالخيام . وبجنوبه وشرقه صخور أثرية منقورة بالمسمار على طريقة العرب الأولين ، وهي بالخط الكوفي القديم ، وقد ذهلت عن المهراس ومائه العذب النمير على رغم اشتداد الظمأ بي ، بسبب عثوري على هذه الآثار التاريخية في هذه القطعة المنزوية عن الأنظار .. وتملكتني الدهشة من روعة هذا الخط المنقور منذ مئات السنين على هذه الصخور ، وعجبت من ضخامة حروفه وانتظام تركيبه وخلوده واحتماله لعوادي الأيام ، وتقلبات الأجواء ، وقسوة الحر والبرد ، فلِلّهِ أيْدٍ نقشته ، ولله أناملُ رَسَمَتْه .

وقفتُ مع بعض الإخوان بُرْهَةً ، أمام كل واحدة من هذه الصخور ، أحاول قراءة ما احتوته من هذه الخطوط المتداخلة المشتكبة المهملة من التنقيط ، وبعد تدقيق عميق وامعان شديد ومقارنة دقيقة ، استطعت أن أقرأ منها ما يلي :

(اللهم ثبت عبد العزيز بن المعتز بن عمر بن عبد ....)

(اللهم أعتق محمد بن عبد .... بن عبد الرحمن برحمتك ولا ...)

(اللهم صل على محمد النبي عبدك ورسولك و .... سعيد بن عمر وموسى الله .... الجنة) .

---

[1] المهراس : هو النقرة في الجبل ، تجتمع فيها المياه .

[2] لعله ماء العشيرة الذي يقول فيه كثير عزة :

أحزناً على ماء العشيرة والهوى ... على ملل يا لهف نفسي على ملل

(انا عبد الله بن سعد المرتضى)

(لا اله إلا الله وحده)

(اللهم صلي على محمد النبي عبدك ورسولك)

(الله لم يلد ولم يولد شهد الله وملائكته أن الله لا إله إلا هو العزيز الحميد) .

(وعلى ذلك شهد يوسف ومحمد في خمس وثمانين وخمسمائة) [١] .

وهناك كتابات أخرى كثيرة ، بدأ بعضها في الانطماس بسبب الأمطار والمؤثرات الطَّبَعيَّة ، والبعض لا يزال ظاهراً ،

وتَشابهُ أشكال هذه الخطوط ، واتفاق كاتبيها على عدم تنقيطها ، واختلافها في دقة الرسم وجمال الحروف كل ذلك يجعلنا نرى أنها كُتبتْ في القرون الإسلامية الأوَل ، وأحدثها عهداً بينها ما كُتب في عام ٥٨٥ ﻫ لأنه أجملها وأظهرها جِدّةً ورونقاً .

أما ما نستنتجه من هذه الخطوط فهو أمران :

الأول : اشتهار هذا المهراس في تلك العصور بسبب عمران هذا الجبل بالقُطّان والرّواد والمتنزهين [٢] .

الثاني : عناية الناس بهذه الصّخَرات العظيمة الملساء المصقولة ، بنقش أسمائهم ودعواتهم لأنفسهم ، وصلواتهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، عليها .. ومن هذا يُفهم أنها مأثورة في أنظارهم . ولا نزال

---

١ من الملاحظ هنا أن هذه الخطوط العربية الأثرية مع قدمها – إذ هي أو بعضها منقور على الصخور في القرن الهجري السادس – هي أحدث عهداً من النقوش التي نقرت على صخور الصويدرة كما سيأتي في الفصل التالي لهذا الفصل .

٢ كما سبق فان هذا الجبل كان منزل كثير الشاعر وحبيبته عزة ، وقد كان عامراً ، وهو أمر يدل على أنه كان معموراً بالسكان ومرافق الحياة الملائمة .

نرى كثيراً من المسلمين إلى يوم الناس هذا يكتبون نحواً مما ذكر على جدران المساجد المأثورة والأماكن المقدسة .

لقد نَقَّبْتُ في الأسفار التاريخية ، علها تتعرض ، ولو بإشارة عابرة ، لذكر هذا المكان وهذه الصخور ، وهذه النقوش ، فما عثرت إلا على قول ياقوت الحموي في معجمه (م ٦ ، ص ٢٦٠) : « الفرش واد بين غميس الحمائم ومَلَلٍ . وفرشٌ وصُخَيْرات الثمام كلها منازل نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى بدر » اهـ . فلعل هـذه الصخيرات هي صخيرات الثمام التي أشار اليها ياقوت ، بالنظر لما سبقت اليه الإشارة آنفاً . وقد يكون التصغير للتعظيم .

وليس هذا الغموض الملاحظ في حقيقة هذا الموقع بمقصور عليه وحده ، فهذا شأن أغلب الأماكن المأثورة في الجزيرة العربية عامة ، والأماكن التي يحلها البادية منها خاصة ، لا يَحْتَفِلُ المؤرخون بتحديدها تحديداً علمياً يحفظ كيانها من الجهالة في العصور التي تلي عصورهم : قُصُورٌ ملموس في تاريخ الجزيرة العربية يجب أن نسعى سعياً حثيثاً لتلافيه ، وثلمةٌ واسعة في حضارة الجزيرة الإسلامية ، يجب أن نعمل على سدها . ويلوح لنا أن للمؤرخين الأقدمين بعض العذر في عدم تحقيقهم لهذه الآثار المنتشرة في جبال الحجاز وأوديته : فاختلالُ الأمن ، واضطراب حبل الطمأنينة ، اللذان كانا يسودان أماكن الآثار لقد وَضَعا عراقيل قوية في سبيل الباحثين والمنقبين والرحالين والعلماء والأدباء ، يضاف إلى ذلك جَهْلُ سكان هذه البقاع من البادية وعدم اتصالهم بأهل العلم ، ونفورهم من هذا الاتصال بهم في كل عصر ومصر . أما وقد زالت العقبة الأولى — وهي كبرى العقبات — بفضل شمول الأمن في هذا العهد ، فإني أرى حسناً أن تُؤلَّفَ (بَعَثَاتٌ أثرية) من أساتذة المدارس ، حكومية وأهلية ، شهراً من كل عام ،

وتكون هذه البَعَثاتُ تحت إشراف مديرية المعارف العامة ويضم اليها فريق من الأدباءِ الممتازين ، والكُتّاب المحققين ، وتتجول هذه البعثات في كل الأماكن المظنون أن بها آثاراً تاريخية هامة ، مسترشدة في تجوالها وأبحاثها بمؤلفات المؤرخين الذين كتبوا في تقويم البلدان وتعريف المواقع التاريخية ، كصفة جزيرة العرب للهمداني ، وكمعجم البلدان لياقوت وخلافهما ، من مراجع التاريخ العربي التي تُعْنَى بالبحث عن منازل العرب والمواضع الأثرية فيها . ويكون لهذه البعثات نظام دقيق في التدوين ، حاملة معها آلات التصوير ، راسمةً بها ما ترى رسمه مفيداً . وبعد استكمالها لهذه الحلقة المهمة من البحث والاستقصاء ، تعقد اجتماعات متوالية ، وتضم اليها من ترى انضمامه لازماً وناجعاً . وفي هذه الاجتماعات تُدَوِّنُ خلاصةَ أبحاثها ودراساتها وملاحظاتها وآرائها فيما درسته ، وتخرج من ذلك أسفاراً تاريخية جليلة الأسلوب ، واضحة التراكيب علمية جامعة شائقة .

وما ألف بالطريقة المدرسية يقرر في المدارس ليعلم النشء الحديث من تاريخ بلاده الذهبي ، ما جهله من تقدموه ، وما ألف بالصفة العلمية يستنير به الباحثون وطلاب العلم في داخل البلاد وخارجها .

بعد أن تجولنا هنيهة حول المهراس والصخور الأثرية ، صعدنا إلى الجبل فراعتنا هذه الأعشاب البرية الزاهية الألوان المفتحة الأزهار الفواحة النوار . وأعجبتنا هـــذه الأشجار المورقة المتلاصقة المصطفة بجوانب التلاع ومجاري المياه ، كأنما نُسقَتْ تنسيقاً فنياً بديعاً لتجذب بانتظامها الأنظار ، وراعنا هذا النسيمُ الطَلقُ الذي ينشر أرديته الفضفاضةَ على فروع الأشجار المتراصة ، فينعشها ويرسل لنا من أريجها ما يُنْعِشُنا ويُذْهِبُ عنا وعثاء التعب . ويحول بيننا وبين هذا الشرر الملتهب المتطاير من أتون ذُكاء .

ومن أهم ما شاهدته بهذا الجبل شجرُ النَّبَلْسَم المعروف عندنا باسم (البَيْلَسَان) . ووصف هذا الشجر – كما شاهدناه ، أنه شجر ليس بالكبير ولا الصغير ، ورقه دقيق صغير جداً ، يشبه من حيث الشكل لا الحجم ، ورق شجر السدر ، وورق النبات المعروف هنا بالشذاب وإذا جُرِحَتْ شجرةُ البلسم أو كُسِرَتْ ، تقاطرت المادة الصمغية من الموضع المجروح أو المكسور تقاطراً بطيئاً متوالياً . وتفوح رائحة البلسم من الشجر ومن ورقه وغصونه على السواء . وفي جبل (عار) معدن الرخام ولكنه ليس بذلك الرخام الأبيض الجميل .. إن لونه مشوب بصفرة ، وفيه عروق سودٌ كثيرة ، وقد عثرنا على هذا المعدن على مقربة من المهراس في الجهة الجنوبية بالنسبة له .

ومما استرعى أنظارنا في عار ، شُجَيْرَةٌ رائعة الجمال اللوني والشكلي معاً ، ولها ساقٌ قوية كعمود المرمر النقيّ البياض ، وتقوم فوق هذه الساق كتلةٌ من الزهر إثمديّةُ اللون ، متجمعةٌ من زهرات من هذا اللون . وقد راعني منظر هذه الشجيرة الغريبة لأول وهلة ، إذ كدت إخال أنها قطعة من الديباج الأحمر ، شُدّت فوق هذه الساق بوضع هندسي محكم جذاب ، أو أنها كِمّةٌ (طاقية) شديدة الاحمرار ، ضاربٌ احمرارها إلى السواد – وقد وُضعَتْ فوق رأس هذه الشجيرة لتحميها من وهج الشمس ، وتأثير تيار أشعتها القويّ هنا . ولكن بمجرد وصولي اليها فهمت كل شيء .. وقد ورد في « تاج العروس » : « والغلثى كسكري شجرة مرة يدبغ بها وإذا أطعم ثمرها السباع قتلها قال أبو وجزة : (كأنها غلثى من الرخم تدف) .

وكنت سألت دليلنا الأعرابي عن اسم هذه الشجيرة وعن سِرِّها . وخطر ببالي قبيل توجيه هذا السؤال اليه ، أن لهذه الشجيرة سراً ، وأنها لَمْ تَبْدُ بهذا الشكل الجذاب اللطيف البالغ في الجمال أقصى حدوده إلاّ

لاحتوائها على خطر خفيّ .. وإذَنْ هي سامة ، وشافهت بعض الإخوان بهذا الرأي ، قبيل إلقائي السؤال على الدليل البدويّ ، فلما سألته أجابني بأن اسمها في عرفهم هو (الْغُلُثِيّ) [1] — بغين معجمة ولام مضمومتين وثاء مكسورة بعدها ياء — . وقال : إنها من الأشجار السامة ، وهم يضعونها مع قطعة لحم أو خبز لما يريدون قتله من السباع المفترسة . وبمجرد ابتلاعها تَخِرّ ميتة ... وهكذا تحققتْ فراستي إزاء هـــذه الشجيرة الغريبة . وشجرة الْغُلُثِيّ هذه شبيهة الشكل بالصّبّار المعروف ، فيما عدا زهرها الموصوف . فهذا الزهر إثْمِدِيّ اللون ، مكون من عدة زهرات مخمسة الأضلاع ، في وسط كل واحدة منها ، نوارٌ صغير ، ناصع البياض ، يبدو ، لشدة بياضه وسواد ما حواليه ، ذا بَرِيقٍ وتوهج ، كالنجم الساطع في السماء ، في ليلة ظلماء .

ويحكي في هيئته وصغره ، عُيُونَ العناكب ، وفي بريقه ، الألماس الأبيضَ . وقد لاحظْنا تَجَمّع الذباب على هذه العيون خاصة ، ففهمنا بطريقة الاستنتاج ، أنّ طعمها حُلوٌ ، لأنّ الذباب لا يتجمع عادة إلا على ما كان من هذا القبيل . وهكذا يندس السم في العسل ، ولله في خلقه أسرار وشؤون .

---

[1] في كتاب « الروض الأنف » شرح سيرة ابن هشام ، وصف لشجرة الراءة : « قال أبو حنيفة : الراءة من أغلاث الشجر . » ص ٤ ، ج ٢ ، طبع مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤م واذن فقد حرف اسم الشجرة وبقي اسمها مع تحريفه لها حتى الآن .

الصويدرة وادي الآثار الجميل
أو الخلاء الذي أصبح مدينة عامرة

تمهيد :

كم ديار كانت مقاصير عمرا
ن ، وقد أصبحت طلولاً قواءَ
ثم عادت ربعاً فربعاً فكانت
كل جرداء روضة غنّاءَ

عبد المحسن الكاظمي

منذ رحلتُ إلى الصويدرة في عام ١٣٥٤ هـ – ١٩٣٥ م ، ما زالت تحوك في صدري رغبةٌ شديدة وعميقة ، إلى تكرار هذه الزيارة مرة أخرى ، لاستيفاء دراسة الآثار الموجودة بها ، وتصويرها ، بالآلة المُصَوِّرَةِ ، إذ لم تكن لديّ هذه الآلة المصورة في رحلتي الأولى إلى الصويدرة .

وقد يسر الله تحقيق الحُلُمِ القديم .. بعد ثلث قرن . وكان ذلك في يوم عيد الأضحى من عام ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٨ م .

وقد امتطيتُ سيارتي (البونتياك) واتجهتُ إلى الصويدرة . وكانت الساعة إذ ذاك تشير إلى الخامسة والرّبع قبيل الظهر حسب التوقيت العربي للمدينة المنورة من يوم السبت الموافق ١٠ ذي الحجة ١٣٨٧هـ — ١٩٦٨ م . وانسابت بنا السيارة ناحرة صوب مشرق الشمس ، فكانت أشعة الشمس تسقط سقوطاً قريباً من العموديّ على أعلى جباهنا . وكنتُ في نشوة غامرة بهذه الرحلة الممتعة الّتي حقق الله بها أمنية طالما تحركتْ بين جوانحي . ومع ذلك كنت أحس بشيء من القلق .. إذ لا « دليل » من الاعراب ، معنا ، يقوم بإرشادنا إلى الطريق السويّ في هـذه « الحلقة » الملقاة في فلاة جرداء .. على ما كنت أخبر .. ومع ذلك فإن العزم المصمم كان رائدنا في هذا السّفر « الأثريّ » المنشود .

وقد مضت السيارة في انسيابها السريع الهادئ على الإسفلت ، إلى ما وراء المطار بقليل ، وحاذينا العاقول ، وانقطع عنا الاسفلت الأملس الجميل .. ودخلنا في « حَزْنٍ » مليء بالحجارة ، ولا بدّ للسيارة مـن اختراقه .. وقد شعرنا بآثار إعـلان الحرب بين عجلات السيارة وجهازهـا السّفْليّ من ناحية ، وبين حجارة الطريق من ناحيـة أخرى . فالعجلات تطـأ أكوام الحجارة في طريقها غير المعبد ، وتتأثر الحجارة بهـذا التلاحم الشديد الضاغط عليها فترتفع عمودياً وتضرب جملة وفرادى « بطن » السيارة وأجهزتها الدّنيا .. التي فيها وعاء النفط ووعاء الزيت معاً . وأشدّ ما كنا نخشاه حينئذ أن يصيب طَلْقٌ حجري قوي نافذ ، أحد هذين أثناء صدامها مع الأرض فيعوقنا ذلك ، ويعطل سيارتنا عن المسير إلى الهدف المقصود .. لقد كانت ملحمة صارخة طويلة المدى ، لم تقف رحاها عن الدوران والطحن ، حتى وصلنا الصويدرة بعد التياع . وكانت السيارة كثيراً ما تضطر إلى أن تزحف عـلى « بطنها » فوق تلال الحجارة الواقفة لها بالمرصاد .. فيحدث زئير مزدوج .. ينشأ جانبه الأول والأخير من احتكاك « حديد السيارة » بحادّ الحجارة

الصغرى والوسطى والكبرى .. ويُحدث هذا كله « رَدّ فعل » في نفوسنا .
ولكن الله لطف بنا ، فلم تتوقف السيارة ، ولم يُخْرَقْ وعاء النفط ولا وعاء الزيت في مسيرتنا إلى الصويدرة .. في هذا الطريق « الْجَمَلِيّ » [1] الذي قلدته السيارات وخلفته في المسير به ، وحاله على ما كان عليه منذ عهد مطايا الجمال والدواب .

وفي أثناء سيرنا طالعتُ في ساعتي فإذا بها تشير إلى السادسة والربع . وإذن فلقد تابعنا السير في هذا الطريق البدائي الوعر ، ساعة كاملة ولمّا نَبْلُغِ الصويدرة .. وكنا نتلوى ونصعد ونهبط باستمرار تبعاً لتلوي الخط غير المعبّد وصعوده وهبوطه ، وكانت الجبال المتوسطة والشامخة تُضَيِّقُ علينا الخناق كلما أمعنا في السير .. وقد علَت الشمس ، وتوسطت كبد السماء ، وبدأت ترسل أشعتها الحادة الحارة الينا . وكنا نسير بغير دليل وقد داخلَنا شيءٌ من التردد بين الإقدام والإحجام ، ولكننا تغلبنا على هواجس الضمير ووهم الفكر ، وجزع النفس ، وحيرة الفؤاد .. فمضينا إلى الأمام .. مترقبين بكل احساسنا ومشاعرنا رؤية مشارف الصويدرة أو العثور على مرشد لنا اليها على الأقل وإذا بنا نقف بجانب « مُعسكر » — كَمْب — أقامته شركة (كاتْ) المتولية لأمر إصلاح هذا الطريق وسفلتته بين المدينة والقصيم ، وقد تطلعنا ملياً لعلنا نرى إنْسيّاً في المعسكر يهدينا سواء السبيل إلى الصويدرة وقد لمحنا شبحين يتحركان من بعيد بين خيام المعسكر وتحت وهج الشمس ، فسررنا بهذه المفاجأة وترجلنا من السيارة .. وأقبل الشبحان الينا ، فإذا هما حارسان من حرس هذه المعسكرات ، وقد طلبنا من أحدهما — سعيد بن حَمَدٍ العُجماني — أن يرافقنا في طريق

[1] نسبة إلى الجمل لأنه هو الذي كان واسطة المواصلات قبل عهد السيارات والطيارات وكان يسمى بحق « سفينة الصحراء » .

الصويدرة .. فوافق بعد شيء كبيرمن التردد .. وفاجأنا بأن الطريق ما يزال طويلاً أمامنا ، وشاقاً ، ومرهقاً . وأضاف إلى ذلك أنه لولا خوفه الضياع علينا في هذه الصحراء المُضِلَّة ما كان يرافقنا .. وقد شكرناه .. وكان رجلاً صموتاً هادئاً .. لم يرهقنا بثرثرة لسانه ، ولا بعنجهية جلجلانه [1] ، ولم ينبس ببنت شفة اللهم إلاّ بالكلمات الأولى المذكورة آنفاً التي أطلقها من عقالها ، أو عقاله ، عن إخلاص وتقدير للموقف ...

وقد صدق الرجل .. فيما قاله لنا ، حيال بُعْدِ الصويدرة عنا .. فقد أدركنا أن المعسكر الذي أخذناه منه للمرافقة والإرشاد ، كان بينه وبين الصويدرة نحو ثلاثين كيلومتراً ، كلها مَتَحْجِرٌ عنيف ومخيف يرهق اجتيازه السيارة ، ويحيل الكيلومتر الواحد إلى كيلومترات مضاعفة بالنسبة لوعورته ، وصعوبة قطعه ، وأخذه أمداً مديداً من الزمن ..

وفي أثناء سيرنا من بَعْدِ المعسكر ضاقت منا الصدور وبدأت أشباح اليأس من الوصول إلى الصويدرة بهذه السيارة الصغيرة الواطئة ، بدأت تلك الأشباحُ السلبية تتراقص أمامنا في كل لحظة ومكان ، كما تتراقص الجِنَّانُ في هذه الفلوات في أساطير الأزمان الخالية .

وبعد أن تعبنا وَدَاخَلَنَا من الرَّهَقِ الكثيرُ ، أشار الدليلُ الصموت الهادئ ، إلى جبل حَرّيّ ممتد أمامنا من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي .. متعرج في التفافه كالأفعى الأسود البَرّاق .. وقال لنا : إنه وادي الصويدرة الذي نقصده .

على مشارف الصويدرة :

وقد انحدرت بنا السيارة المزمجرة ، في وهدة منخفضة جداً كالخندق

---

[1] الجلجلان : هو القلب .

العميق تقريباً ، وأفضت بنا هذه الوهدة إلى وادي الصويدرة الذي ما زالت صورته هذه مرتسمة في تلافيف دماغ كاتب هذه السطور منذ ثلث قرن .

وكنت أعرف « الصويدرة » فلاة خالية مجردة من أي أثر للحركة أو الحياة .. وليس فيها ، حينما رأيتها لأول وهلة ، سوى بضع شجيرات دَوْمٍ متعانقة ، ومتناثرة ، كُلٌ ثلاث أو أربع مع بعض .. كأنما كانت تستأنس بهذه المعانقة من هذه الوحشة الرهيبة التي تحيط بها من كل جانب .. وكانت هناك نُخيلات متفرقة لا ندري من غرسها هنا ، وهي تقوم قريباً من جبل الصويدرة الْحَرّيّ ، وقريباً من مسيل واديه الملتوي الكبير .. وقد دلنا البدوي الذي كان رفيق رحلتنا الأولى [1] إلى أن أرض وادي الصويدرة ذات أحساء .. فأين ما نَبَشْتَ بيدك الأرض وجدتَ ماءاً عذباً نميراً .

كذلك كنت أعهد الصويدرة .. وكذلك وَصَفْتُها في رحلتي الأولى اليها .. فيما قبل ثلاث وثلاثين سنة .. فأما اليوم فان شجيرات الدوم الصغيرة المتعانقة والمتناثرة قد نَمَوْنَ وكبرن وصرن أشجاراً فارعة القامة طويلة الغصون .

وحينما قرت عيوننا وهدأت خواطرنا ببلوغنا وادي الصويدرة ، كان أول ما رأينا القيام به أن نملأ وعاء سيارتنا الفارغ من مادة النفط ، من المحطة التي لا تزال بدائية بالصويدرة [2] .

---

١ بسنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

٢ هي الآن سقيفة من الصفيح ، بها وبجانبها براميل مملوءة بالنفط الذي تزود به السيارات بأن يوضع في داخلها أنبوبة من اللدائن وتحتها صفيحة يصب فيها النفط حتى تمتلئ ومن ثم يملأ بــه وعاء النفط بالسيارة على الطريقة البدائية التي عرفناها في المحطات بين مكة وجدة وجدة والمدينة قبل تطور محطات النفط الى حالها الحاضر .

في بلدة الصويدرة :

وكان أول ما لفت نظري ، هذه البلدة الصغيرة التي وُلِدَتْ بالصويدرة بعد عهد قدومي الأول اليها لا حقاً .. لقد كان شيئاً مدهشاً ورائعاً أن تُبْنى مدينة ذات مرافق حديثة في هذه التنوفة التي كنت جئت اليها قبل ثلث قرن ، وكانت كلها جرداء يلفها سكون عميق ، كما يلف سائر الصحراء المحيطة بها من كل جانب .

ومن يُدرينا ؟.. فلعل هذه الصحارى الماثلة في هذه البلاد كانت في سالف الدهور العريقة القدم ، تموج بالحضارة والزراعة والصناعة والتجارة .. ثم لفها عامل الجفاف ، فإذا هي بعد ذلك تستحيل كما رأيناها ونراها ، جرداء ظمياء .. بكماء عجفاء موحشة ..

ومن يدري ، فلعل هذه الصويدرة ، وهي جزء من هذه الصحراء المخيفة ، لعلها كانت في عهد من العهود الخوالي مدينة متحضرة راقية تحتوي على كل مرافق الحياة الرافهة .

وكما يشقى الإنسان ويسعد في مختلف فترات حياته .. كذلك شأن البلاد والأرضين .. تتعاورها عوامل الشقاء والسعادة في فترات تاريخها الطويل .

ولا ريب في أن انبعاث هذه البلدة الصغيرة الجميلة ذات المرافق الحديثة من مدرسة ابتدائية لأطفالها ، ومستوصف لمرضاها ، وخزان ماء مُعْتَلٍ يصل اليه الماء من عميق آبارها بوساطة مضخة حديثة مركبة عليها وذات المحطة النفطية البدائية ، والدكاكين والبيوت الطينية المتينة ، والصفيحيّة البراقة — لا ريب في أن هذا كله هو من آثار التطور الشامل الحثيث الذي تسير في فلكه هذه البلاد قُدُماً ، نحو قمة الازدهار. وهكذا تشاهد اليوم الصحارى الجرد الموحشة أثناء القرون العديدة الخالية تتحول تدريجياً

إلى مدن وقرى وريف .. وهذا يستتبع بطبيعة الحال تحوّل أبناء البادية وتطورهم أيضاً إلى حضر مقيمين ، ينشدون الاستقرار وينعمون به .. وينشدون الرقيّ العلميّ ويحظون به . ولقد ذكرني مشهد الصويدرة الحاليّ بقصة أسطورية كنت قرأتها في بعض الكتب . تقول القصة : إن الخضر الذي وُهِبَ حياة الخلود المديدة في هذه الدنيا مر في إحدى سياحاته العالمية على مدينة كانت حاضرة البحر عامرة تموج بالسكان وبسائر مرافق الحياة الرافهة السعيدة الهانئة .. وبعد ألف عام مرّ بمكانها مرة ثانية ، فإذا هو بلقع خال من كل معاني الحياة حتى لكأنْ لم تمض عليها فترة عمران أثيل .. وبعد ألف عام ثالثة مرّ بالمكان ذاته مرة ثالثة وقد عادت الحياة اليه فعاد مدينة ضخمة كما كانت قبل ألفي عام ، تموج بالحركة والنماء وبالسكان ، والسعادة الوارفة من جديد .

* * *

والصويدرة واد مستطيل يأتي من الجهة الجنوبية الغربية ، ممتداً إلى هذا المكان الذي عرف في وقت سابق نجهله باسم الصويدرة .. وبجانب وادي الصويدرة خَبْتٌ مرتفع عنه بعض الشيء ، به أقيمت « بلدة الصويدرة » الجديدة . وحينما تكاثر السكان بها اضطروا إلى حفر الآبار العميقة بالوادي ، لتأمين سقياهم وريّ مزارعهم التي بها النخيل والخضراوات والفواكه .. وقد أقاموا خزان ماء الريّ بمنتصف علوّ جبل الصويدرة المليء بالآثار الذي يقع إلى الغرب عن بلدتهم المولودة حديثاً .. على أيدي هؤلاء الماهدين من أبناء البادية ، ومن انضم اليهم . وقد حدثني أحدهم — سُعَيِّدٌ العَجَمي — نسبة إلى قبيلة العجمان ، بأن تعداد سكان بلدة الصويدرة الآن : آخر شهر من سنة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م ، هو نحو مائة شخص ما بين رجل وامرأة وطفل وطفلة .

ولها أمير اسمه مرزوق السُّحيمي . وكما قلنا فقد بنت الحكومة لأطفالهم مدرسة ، ولمرضاهم مستوصفاً . وبها محطة نفط بدائية ومَقهاه . وبناء البلدة من مادة طينها ، ومن الصفيح ، ودُورها من دَوْرٍ واحد .. وبها دكاكين ..

واختراق طريق المدينة — القصيم — المسفلت لبلدة الصويدرة أعتقد انه عامل مهم في الإسراع بها إلى التطور والنمو في السكان ، وفي العمران ، على السواء .. لا سيما إذا استغلوا هذا الاتصال الدائم بين البلدين خير استغلال ، فأقاموا استراحات ، ومقاهي حديثة وفنادق صغيرة لنزول المسافرين ، ومطاعم كذلك .

* * *

هذا وبعد اطمئناننا إلى نجاح قضية مَلْءِ وعاء السيارة بالنفط هدأ البال ، لأن هذا النفط هو « وسيلة » حركة المستقبل ، بالنسبة لرحلة الإياب الوشيكة إلى المدينة . وعندئذ تَلَفَّتُّ فرأيت من حولنا بعض أهل الصويدرة ، جاءوا يرحبون بمقدمنا .. فقد أخبرهم زميلهم المرافق لنا ، بنا ، وقد ألحوا في أن نذهب معهم إلى مضافتهم فيذبحوا لنا الذبائح ويصنعوا لنا القهوة والشاي ، ونرتاح عندهم إلى قريب من الليل .. فوعدناهم وعداً سطحياً غير جازم .. وقلت لهم : ان المهمة التي حضرتُ إلى هنا من أجلها هي أخذ صور لنقوش الصويدرة . . وهي كثيرة .. ونخشى أن تميل الشمس كثيراً إلى الغروب ، فيتعذر أخذ الصور بالآلة المصورة . واننا لنرجو أن تسمحوا لنا بالاياب الآن ، فالوقت ضيق .. وعندما يتم رصف طريق الصويدرة بالاسفلت ويسهل الوصول إلى بلدكم الناشئ الجميل ، عندئذ سنحضر اليكم إن شاء الله ونَقيلُ لديكم ، ونأكل ذبائحكم السمينة ، ونشرب قهوتكم العربية وشاهيكم المنعنع ، براحة وهناءة ... وبعد التأكيد بذلك قبلوا منا العذر على

مضض .. وأقبلنا أنا ومسعود قاضي ، وسائق السيارة نمشي على الأقدام إلى الجبل ، فقد مللنا ركوب السيارة وعانينا منها المتاعب ، وَخَضَّتْ منا الجسوم خضاً كارباً ، وصكّتْ آذاننا صكاً بزمجرتها وبهديرها وبوقع حوادث معركتها الرهيبة مع جماهير حجارة الطريق المتربصة لها ولمثيلاتها إذا سرن في هذه التنوفة الخاوية ..

تقديرات علمية :

هذا ويبدو لي من كثرة النقوش وجمالها وعمقها بهذا الجبل ، ما بين خطوط ثمودية وعربية ، وبين صور حيوان أليف ومتوحش — يبدو لي من كل هذا أنه قد كان للصويدرة هذه ، شأن مجهول لدينا الآن ، ويدلنا على طرَف من هذا الشأن معرفة اسمها والاحتفاظ به وبموقعها حتى صدر الإسلام ، فهي فيما يبدو لي(الترعة) التي وصل اليها بعض الصحابة في معركة أحُد . ويتراآى لي ، أنها كانت مدينة معروفة مقصودة من البلاد .. وقد عُمِّرَتْ في عهد الجاهلية بدليل هذا الخط الثموديّ الذي نقر على بعض صخورها [1] ، كما عمرت في عهد الإسلام ، وبالتحديد في أواخر القرن الهجري الثاني وأوائل الثالث ، بدليل هذه النقوش الخطية التي تنطق بنقرها في هذا التاريخ أو قريباً منه [2] ، ولربما كانت تكون بها حدائق غناء ومراتع ظباء ، وليالي سَمَرٍ في أضواء القمر ، وكثيراً ما ينتقل اليها الناس ومنها بالجِمالِ ، بدليل نقش صورها فيها [3] ، وبها وحواليها كان كثير من الحيوان المفترس وغير

---

١ ستأتي في هذا الفصل صورته ومثاله .

٢ لها صور وأمثلة في هذا الفصل .. تأتي فيما بعد .

٣ في هذا الفصل .

المفترس .. بدليل هذه الظباء ذوات القرون الكبيرة المعقوفة المنقورة على صخورها [1] ، وبدليل هـذا الاسد المنقورة صورته على أحد صخور جبالها [2] .

ولربما لو أُجْرِيَ بها حفر أثري علمي ، لتكشفت لنا أعماق أرضها عن مدينة زاهرة وأثاث ورياش ونقوش وأدوات من حديد ونحاس وعن ذهب وفضة ، مما كانوا يتعاملون به .. كما أنه من الممكن أيضاً أن نعثر كذلك على هياكل وجثث وأجداث لسكانها وروّادها القدامى .

وكل هذا رهن بمجهود دائرة الآثار التابعة لوزارة المعارف ، إلى جانب إسهام جامعة الرياض في قسمها الأثري في هذه المهمة العلميـة الأثرية .

دراسة الآثار بالصويدرة :

وبعد فهذه إلمامة عن دراسة الآثار بالصويدرة ، دراسة أعمق ممـا سبق وأدق .

١ ــ الآثار الخطية :

وإليك قائمة الصور الحيوانية والإنسانية ، والنقوش الكتابية المنقورة في صخور جبل الصويدرة ، التي أخذتُ بعضها بالآلة المصورة ، وبعضها باليد من كثب ، وهي صور مطابقة تمامـاً لأصولها المنقورة بالجبل .

---

١ أخذنا صورها بالآلة المصورة وستأتي في هذا الباب .

٢ له صورة فتوغرافية ستأتي في هذا الفصل .

وها نحن أولاء نبدأ بأقدم النقوش الكتابية . وأقدم هذه التدوينات الأثرية ، هو النقش الثمودي القديم التالية صورته .



النقش الثمودي في جبل الآثار بالصويدرة

وقد نُقِشَ هذا الأثر الممعن في القدم على صخرة كبيرة تقع فوق منتصف الجبل بالنسبة لارتفاعه ، في نقطة غير بعيدة من فم الوادي الذي يخترقه طريق المدينة – القصيم .. وهذا النقش هو أقدم نقش هنا . ونعتقد أنه ثمودي [1] لمشابهته في الحروف ، لنقش وادي بويب القريب من جدة .. ويدل على ان ثموداً كانت تقيم هنا أيضاً ، أقامت

١ أيد هذه النظرية الدكتور عبد الرحمن الأنصاري المتخصص بعلم الآثار والمدرس بجامعة الرياض كما سيأتي ، في نفس هذا البحث .

فيه بهذه الديار ، عقب نزوحها الجبريّ من الجنوب العربي مباشرة أو بعده بأزمان .

ومما هو جدير بالذكر أني كنتُ قد عرضتُ هذا النقش الكتابيّ على عبد الله (فلبي) سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م . وبعد أن قام بدراسته أفادني بما نصه :

« إن هذه الحروف قديمة جداً ، وهي من نوع غريب ، ومتداخل فيها بعض الخطوط القديمة ، وعلى كل فهي إما أن تكون ثمودية ، أو من الخط العربي القديم ، أو العبراني القديم ، أو الفينيقي . وعلى كل فالأربعة من أصل واحد . والارجح عندي انها من العربي القديم . وأرجح أنها أسماء لأشخاص كانوا نزلوا في المحل الموجودة بــه في الحقب الحوالي . وهي تقرأ كالخطوط السامية من اليمين إلى الشمال » . وهذا حلها في نظره :

وهذا تركيبها :

(هتل . ودل . بداد . زهت . زمام . شرح عتيشل) . ولكن (فيلبي) لم يفسر لنا معاني هذه الكلمات ولم يبين عنها شــيئاً في جوهرها ، ومدى صلتها بالعربية الفصحى التي نعرفها .. لقد اكتفى بما ذكره آنفاً .

وقد كان جوابه هذا في سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م ، كما ذكرنا آنفاً .

ثم إني في ١٣ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٥٨ م رأيت أن استطلع رأي الدكتور عبد الرحمن الأنصاري بصفة كونه خبير الآثار العربية القديمة لدينا ، فأعطانا شرحاً وتفسيراً لها حسب ما يلي :

غ ت ل   و د ن   ي د د

غتل[١] ودن[٢] (ابن)[٣] يدد (بن) نغيت[٤] (بن) زمج[٥] (بن) هنش[٦] أشرك يشر ـ يسر يتريل (وترإل)[٧] .

---

١ غتل : غتل المكان كثر فيه الشجر فهو غتل . ونخل غتل ككنف ملتف (يمانية) ، (تاج العروس) .

٢ ودن : المعبود (ود) الحرافي . وقد ورد اسمه في القرآن المجيد .

٣ زاد الدكتور كلمة : (ابن) بين أسماء الأعلام تمشياً مع الطريقة التي سار عليها علماء النقوش والكتابات في افتراض وجودها مستترة .

٤ نغيت على وزن « زبير » : اسم شخص . تاج العروس .

٥ الزمج (بكسر الميم) : الغضبان . تاج العروس .

٦ هنش : الهنش : الخفيف (تاج العروس) . ومن المحتمل أن تكون الكلمة بمعنى الإنسان ، والرجل ، مكونة من (هـ) كأداة التعريف و (ناش) بمعنى إنسان أو رجل .

٧ وترإل : من الأسماء الشائعة بين أسماء الأعلام الجنوبية وخاصة بين ملوك الجنوبيين ، وهو في هذا النقش كما يبدو : كاتب النقش ، ولا نعلم إن كان اسماً لحاكم هذه المنطقة أو هو الخطاط فقط .
(الدكتور عبد الرحمن الأنصاري) .

هذا ومن دراستي لهذا النقش ، بالنسبة لذاته ، توصلت إلى ما يأتي :

أولا ــ إن حروف هذا النقش كلها فرادى منفصلة عن بعضها كما شاهدناه في خط المسند والخط الفينيقي والخط الهيروغيلفي ، وأخيراً الخطوط الافرنجية التي هي امتداد للخط اللاتيني الذي هو امتداد للخط الفينيقي .

ثانياً ــ يتكون كامل النقش من ثلاثة أسطر ، منظمة التكوين منسجمة متساوية في ابتداءاتها .

ثالثاً ــ وهناك خمسة أحرف انفردت بمكانها في آخر السطرين الثاني والثالث . وربما يُكَوِّنانِ توقيع المُوَثِّقِ أو كاتب النقش ، غير ذلك على ما كنتُ رأيته وأيده الدكتور عبد الرحمن الانصاري في تحليله لهذا النقش وتفسيره له .

* * *

وكما سبق أن بيّنْتُ ، فإني قد كنت بعثت بهذا النقش مخطوطاً بيدي ، نقلاً حرفياً ومسطرياً عن النقوش التي بالحبل ، إلى الدكتور سليم حسن عالم الآثار بمصر ليقرأه ، فلم يردني منه جواب ، فلربما يكون خطابي لم يصل اليه ، أو وصل اليه وشغل عنه بما هو أهم في نظره .

* * *

ولعل أقدم النقوش الكتابية ، بعد النقش الثمودي الموصوف آنفاً

هو ما تلي صورته :

وقد قرأته هكذا : « اللهم صل على محمد من أحمد بن أيوب الأهوازي ومعه ولد الفضيل بن ابراهيم سنة خمس ومائتين » .

وملاحظاتي على هذا النقش أنه ذو أهمية أثرية ، لأن ناقشه قـد أرّخه .. كما دَوّنَ فيه اسمه واسم أبيه ولقبه واسم بلده الأصلي (الأهواز) فهو (أحمد بن أيوب الأهوازي[1]) .. ولعله كان في طريق الحج أو التجارة أو الزيارة أو الاستئناس بجو الصويدرة الماتع .. كما أفادنا بأن اسم رفيقه هو (ولد الفضيل بن إبراهيم) ونص لنا في النقش على أنه نقره (سنة خمس ومائتين) .. أي في نصف العقد الأول من القرن الهجري الثالث : ولا بد أن راقم هذا النقش اذن قد ولد في

١ في قراءتي الأولى له لم أتمكن من حله كله .. وقد تمكنت في قراءتي الثانية هذه من حله .

العقد الهجري الثاني .. وجاء هنا شاباً أو كهلاً أو شيخاً .. حيث خلد بخطه الكوفيّ الجميل الخالي من النقط قصة قدومه مع رفيقـــه إلى هذا المكان .

وخط النقش مضلع ، وفي أوائل وأواخر بعض حروفه زخرفة بسيطة لتجميله كما كنا رأيناه ودوناه في مماثله في الزخرفة : كخطٍّ شاهد مقبرة مدينة بني سليم المندثرة [1] .

* * *

وثالث النقوش الكتابية المهمة هو النقش التالية صورته :

١ انظر فصل « قبيلة بني سليم » في هذا الكتاب .

وقد قرأت هذا النقش على النحو التالي :

(اللهم اغفر لطيفور بن باز الخراساني مولى هارون أمير المؤمنين)

ومعنى هذا ، أنّ راقمه كان قد عاش في عصر هارون الرشيد الخليفة العباسي المولود سنة ١٤٩ هـ — ٧٦٦ م والذي استخلف سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦ م . ومات سنة ١٩٣ هـ — ٨٠٩ م . فالنقش على هذا مدون في القرن الهجري (الثاني) أو أول الثالث ، وذلك لأن كاتبه بموجب نصه هو مولى لهرون الرشيد . واسمه : (طيفور) . وأصله من (خراسان) : فهو (خراساني) كما يقول عن نفسه .

وقد جاء ذكر أحمد (بن طيفور) في كتاب الأعلام للزركلي فقال عنه : « أحمد بن طيفور أبي طاهر الخراساني ، أبو الفضل : مؤرخ من الكتّاب البلغاء الرواة ، أصله من مرو الروذ ، ومولده ووفاته ببغداد . كان مؤدب أطفال ، له نحو ٥٠ كتاباً ، منها « تاريخ بغداد » طبع منه الجزء السادس .. إلى أن قال : وله شعر قليل أورد ياقوت نبذاً لطيفة منه »[1] . ولأحمد هذا ابن اسمه عبيد الله وهو مؤرخ خراساني الأصل ولد وتوفي ببغداد[2] أيضاً . ويبدو لي أن طيفوراً صاحب النقش وموضع البحث هو والد أحمد بن طيفور وجد عبيد الله لأنهما خراسانيان وموطنهما بغداد ، وبغداد هي موطن خلافة هارون الرشيد ، وقد يكون طيفور أدَّبَ ولده أحمد في ظل عطف الخليفة فصار مؤرخاً معروفاً ، كما أن ابنه أحمد أدب ابنه عبيد الله فصار مؤرخاً مثله لبغداد والخلفاء العباسيين . ودعاء طيفور لنفسه بالمغفرة يدل على أنه ذو دين وعقيدة طيبة وإيمان بالله عميق .. ولذلك طلب مغفرة الله ، والله غفور رحيم .

---

١ الأعلام للزركلي ، م ١ ، ص ١٣٨ ، الطبعة الثانية بمصر .

٢ نفس المصدر والطبعة ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ .

وهذا والنقش كغيره من النقوش المثبتة هنا، منقور على صخرة ضخمة بركانية سوداء من صخرات هذا الجبل الْحَرِّيِّ البراق .. ومُلاحَظٌ أن الكثير من هذه الصخور عرضة للتدحرج إلى الوادي لأن تماسكها مع بعضٍ وارتباطها بالأمّ — التي هي الجبل — ضعيف واهن .. وهي ضخمة وارتفاع الجبل شبه عمودي .. فَدَحْرَجَتُها أو تَدَحْرُجُها أمرٌ سهل ومرتقب بين سنة وأخرى .. وقد رأينا بعض هذه الصخور وقد هبط بنفسه من عليائه ، بفعل انحلال الجبل وعمودية ارتفاعه ، ونتوء الصخور به ، حتى لكأنها بثور[1] وضعت هكذا لتزيلها يد الأيام بيسر وسهولة متى أراد الله .

وعلى هذا فلو عني بهذه الآثار المهمة وحفظت ثم نُقِلَتْ بِفَنِّيَّةٍ إلى (متحف) الصويدرة المرتقب الذي نرى ضرورة إيجاده بالصويدرة ذاتها أسوة بمتحف كل بلد فيه آثار من هذه المملكة — لكان في ذلك إنارة للتاريخ القديم ، وتنقل هذه الصخور الأثرية إلى متحف الصويدرة بعد تنسيقها مع ما سيكتشف مستقبلاً إذا أجريت الأحافير الأثرية بالصويدرة ، ونود أن يتم ذلك قبل أن تكبر البلدة وتتسع .. فيعصعب حينئذ إجراء هذه الحفريات بأنحائها ، بالنظر لامتداد العمران وانتشار السكان في كل مكان من البلد .

ونَقْشُ (طيفور) المشار اليه لا يخرج في قاعدته الكلية البارزة عن عن قاعدة نقش (أحمد بن أيوب) .. إلا أننا نلاحظ على نقش (طيفور) أنه مجرد من الزخرفة الفنية في أوائل حروفه وفي أواخرها ، بعكس نقش (أحمد بن أيوب) الموجودة فيه هذه الزخارف .

ونقش (طيفور) مكون من ستة أسطر ، متساوية الأطراف الأولى

---

[1] أي دمامل .

والأخيرة .. باستثناء السطر الأخير منه : (مس) الذي جعله راقمه منفرداً ، مع انه يكون الجزء الأخير من كلمة واحدة هي ، (المؤمنين). ولست أدري باعث هذه التفرقة في الكلمة الواحدة مع أن المكان متسع لضمها إلى أولها : (المو) ...

* * *

وهناك نقش عربي قديم آخر ، هذه صورته :

وقد قرأته حسب ما يأتي :

(أحمد بن عباس بن أحمد يعتصم بالله الخالق الكريم) .

ولاحظت من دراستي لهذا النقش أموراً هي :

أولاً — إنه غير متسق السطور ولا متساويها ، ففيه فجوات وكلمات منفصلة عن بعضها بدون علمنا للسبب .

ثانياً — إنه يثبت همزة الوصل في كلمة (ابن) مع وجودها بين عَلَمَيْنِ ، ومع انها ليست في أول السطر وهذا مما ينافي قاعدة الخط العربي التي نعرفها مدونة في الكتب .

ثالثاً — يشبه أسلوب هذا النقش في بساطته وفصاحته اسلوب نقش جبل سَلْعٍ بالمدينة المنورة المذكور في فصله من هذا الكتاب .

فنقش (أحمد بن عباس) يقول لنا : (أحمد بن عباس بن أحمد يعتصم بالله الخالق الكريم) ... ونقش جبل سلع يقول : (يقبل الله عمر الله يعامل عمر بالمغفرة) ومن هذا يمكننا أن نستنتج تقارب عصريهما ، وبالتالي قرب عهد نقش (أحمد بن عباس) من صدر الإسلام .

* * *

ومن النقوش الأثرية هذا الأثر :



نقش القاسم بن محمد بن أبي عيسي

ونص هذا النقش : (اللهم اغفر للقاسم بن محمد بن أبي عيسى الحراني أو (البحراني) .

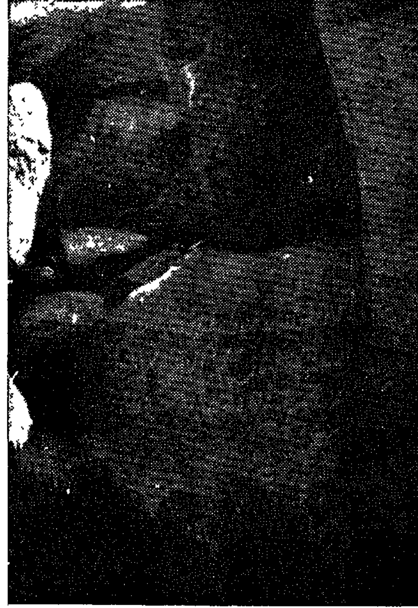
ونلاحظ في هذا النقش أمرين :

أحدهما : خلوه من الزخرف الخطيّ فهو على غرار خط (أحمد ابن أيوب) .

وثانيهما : أنه حذف دفعة واحدة همزة الوصل بين الاسمين العَلَمين سواء أكانت متصلة بعَلَمٍ سابق كما في كتابته لـ (لقاسم بن محمد) أم كانت في أول السطر كما في : (بن أبي عيسى) . والقاعدة الخطية تفرق بين الحالتين .. فإذا كانت صيغة (ابن) بين علمين ، وهي مندرجة في السطر ، فإن همزة الوصل لا تُكْتَبُ . وإذا كانت بين عَلَمَيْنِ وجاءت في أول السطر فان همزة الوصل تُكْتَبُ في هذه الحالة .

* * *

ومن هذه النقوش نقش : (ابي سليمان علي بن طالوت) وهذه صورته :



نقش أبي سليمان علي بن طالوت

وقد قرأته هكذا : (أبو سليمان علي بن طالوت يشهد أن لا اله إلا الله شهادة يلقى بها ربه) .

ومن دراستي لهذا النقش توصلت إلى أنه من قَبِيلِ نقش (القاسم بن محمد) السابق الحديث عنه ، فلا زخرفة به ، وإنما تضليع ، وعقفة إلى اليمين للألفات في ذيولها ... وهو من هذه الناحية يشابه خط (أحمد بن أيوب) الذي كتب سنة ٢٠٥ ه على أنه خير منه انسجاماً وانتظاماً في حروفه وسطوره في أولها وفي آخرها ويلاحظ عليه انه رسم صيغة (يَلْقَى) بفتح الياء والقاف وبعدها الف رسمها بالألف ، خلافاً لقاعدة الرسم المعروفة .

* * *

وهذا نقش آخر عانَيْتُ الكثير في محاولة قراءته كله ، فلم يحالفني كل التوفيق بسبب انطماس بعض حروفه وانمحاء بعضها :



نقش النجمة الخماسية

وقد استطعت قراءة بعض جُمَلِ هذا النقش الكتابي المطموس ، وأعياني حل بعض جمله .

وهذا بيان ما تمكنت من قراءته منه :

اللهم اغفر ...

اللهم اغفر لزيد بن

عبد الله المعتصم رحم الله

من قال آمين (وفي آخر هذا السطر رُسِمَتْ بِدِقَّةٍ النجمةُ الخماسيةُ متّصلة بالسطر نفسه) .

وفي أسفل الحجر نَقْشٌ نصه :

لا اله إلا الله .

وتحته حرفان ثموديان هما على التوالي هكذا :

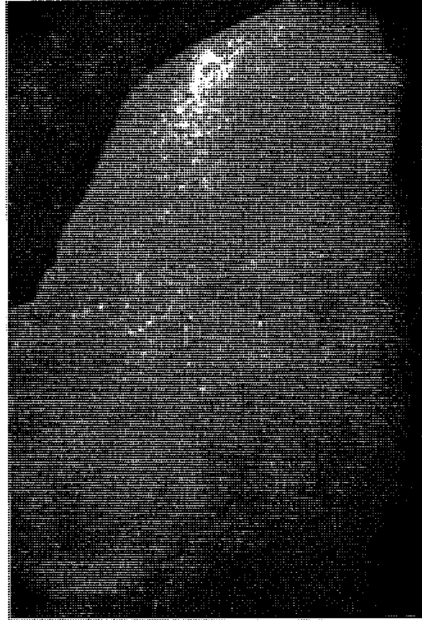
𐪊 هو الحرف العربي (ج)

𐪚 وهو الحرف العربي (ي)

وخط هذا النقش يشبه تماماً نقش أبي سليمان علي بن طالوت إلا أنه أدق صنعةً منه ، وأجمل تكويناً بعض الشيء ، ولعل هذا يعود إلى الكاتب أكثر مما يعود إلى تفاوت العصور وتطور الكتابة العربية .

* * *

وفي نقشٍ آخر ما صورته الفوتغرافية :



نقش ناصر بات على لحم

وقد قرأته مبدئياً هكذا : (نَاصِرُبَاتَ عَلى لَحْمٍ لَذٍّ وَعَليّ منصور .. فَنَاصُ الأيَلِ) .

ونتيجة دراستي له كانت كما يأتي :

أولاً — لا يزال الغموض يكتنف قراءته ، فهي في حاجة إلى مزيد من الحل الصحيح .

ثانياً — إن أسطره غير منسقة ولا مستقيمة ، ففيها مَيْلٌ واضح إلى أسْفَلُ .. وهو بالجملة من نوع خط « أحمد بن عباس » تقريباً ، في الطراز ، وفي اضطراب السطور ، وعدم توازنها .. وكلاهما من نوع

الخط الكوفيّ القديم .. وإذا كان حَلّي له صحيحاً فهو يدلنا على حالة اجتماعية مهمة للقوم تؤيد جاهلية شعر امرئ القيس في قوله :

وظل طهاة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل

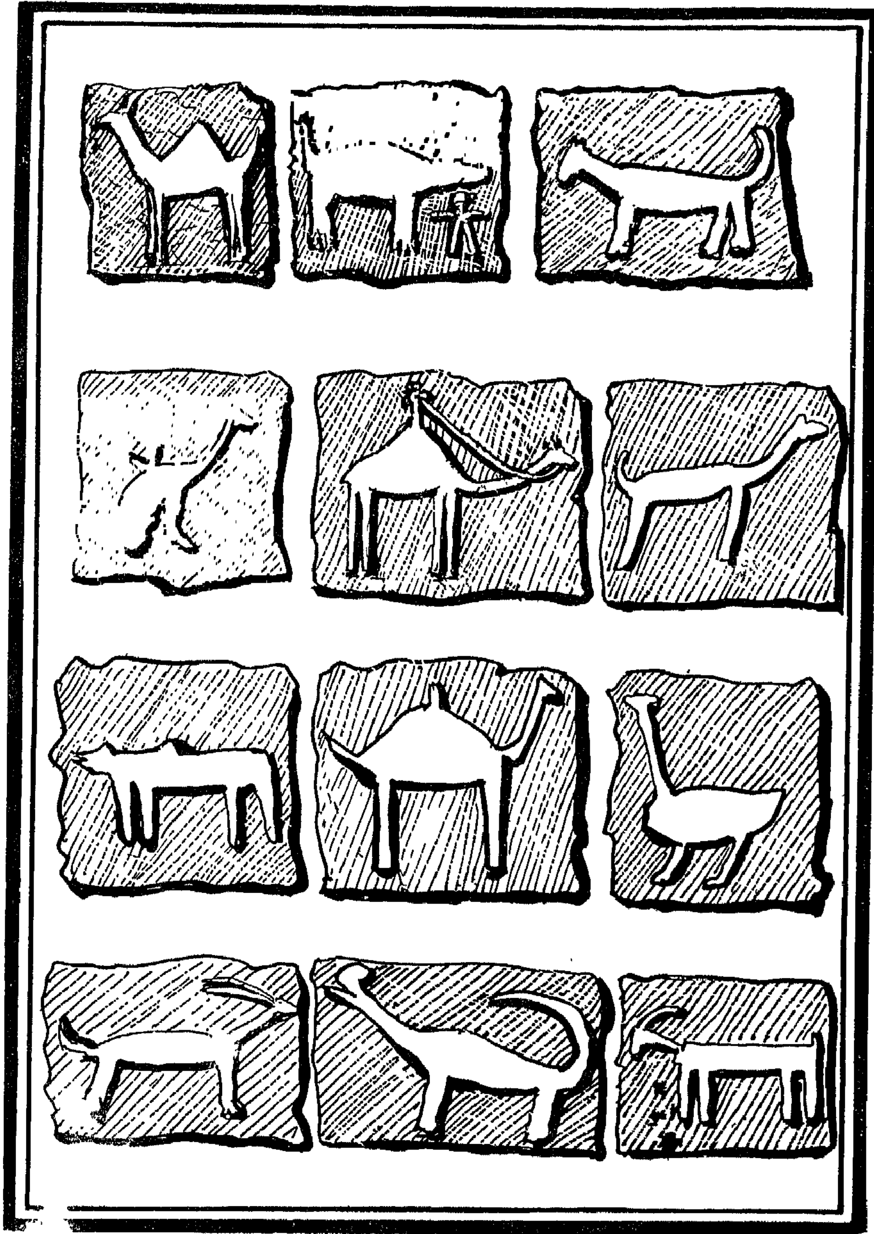
وعلى صخرة ملساء مكسورة أخرى نقش أحمد بن عباس بن أحمد عبارته السابقة المنقوشة على الصخرة التي نقلنا صورتها سابقاً نقلاً مسطرياً ، ولعل الكلام ظهر مبتوراً ، بما كُسِرَ من الطرف الأول للصخرة نفسها .

الصور الحيوانية ، ودراسة لها :

أما الصور الحيوانية ما بين بشرية وغيرها فإن صخور الجبل مفعمة



من آثار الصحراء الكبرى : رسم الخيل التي تجر العربات



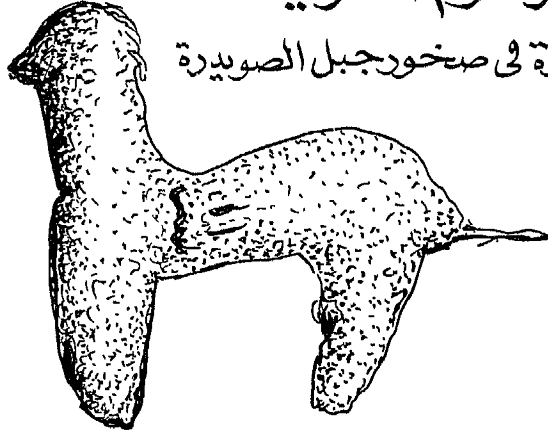
من الآثار المنقوره على جبل الصويدرة

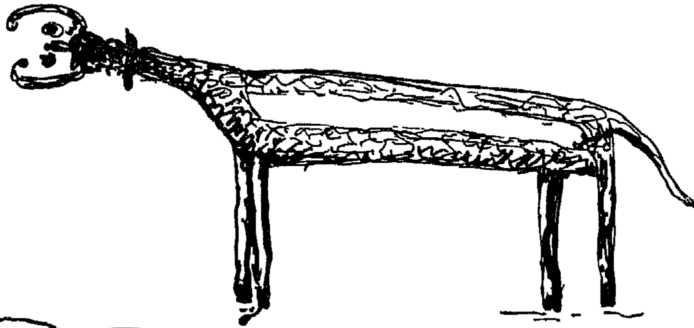
وهي تدلنا على وجود الجمال والبط والظباء والنعام وحيو انات

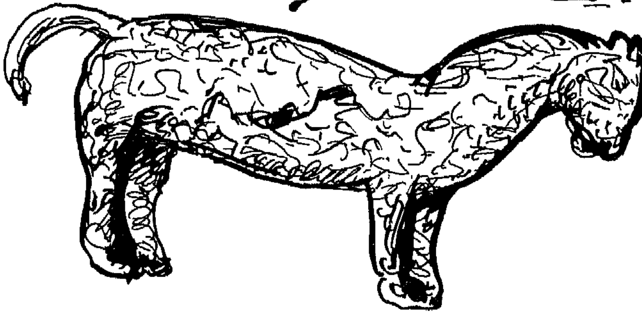
أخرى بعضها يشبه الديناصور ، كانت تعيش بهذه المنطقة

رسوم أثرية

منقورة فى صخور جبل الصويدرة







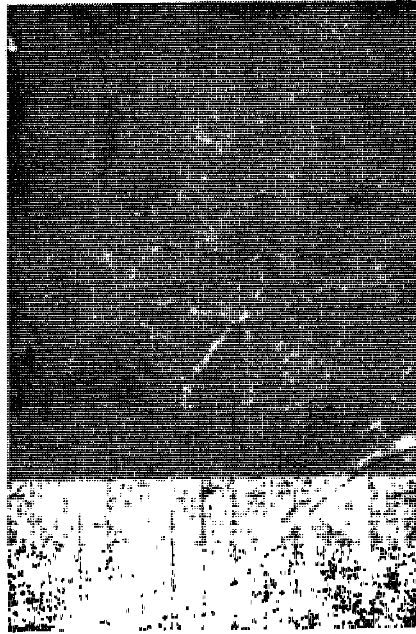
بها ، من كل لون .. فهذه صورة ثَوْرٍ ، بجانبها صورٌ بدائية لحيوانات شتى من حيوان الجزيرة .. وإلى جانب الصورة الكبيرة لحيوان منقرض يقف رجلان ، أحدهما بجانب الآخر وهما يصوبان سهامهما أو رماحهما لأرتال الحيوان البرية الهاربة من أمامهما ..



صورة تمثل صيد الفيل . ويبدو فيها رجل لم يكد يطلق سهمه ، حالما اضطجع آخر ميتاً على الأرض

ويُرَى على الصخرة السفلى الجامعة لتلك الصور العربية البدائية العتيقة كلمة (الله) محفورة بخط كوفي واضح ..

ومقارنتنا لرسوم هذه الحيوانات مع الرسوم المصورة في كتاب : (الصحراء الكبرى) لمؤلفه (جيمس ويللارد) يظهر تماثلها في الشكل والبدائية خاصة رسم الخيل التي تجر العربة وهي التي تحدث عنها (هيرودوتس) فيما كتبه في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وكذلك يشبه تقريباً الرّسم المحفور للرجلين الصيادين ، الرسم المحهور في الكتاب



صورة الصيادين العرب بالصويدرة

المذكور لرجل يقوم بمحاولة صيد فيل [1] .

وهذه صورة أسد متحفز بكل ما لديه من حَوْل وجرأة ، للوثوب على الرجل الواقف أمامه وجهاً لوجه ، وكأنما هما في عراكٌ ، أو على وشك عراك شديد .

هذا وبعد ما انتهينا من التقاط الصور التي تهمّنا من صخور جبل الصويدرة انتهت مهمتنا فيها ، فعدنا فوراً إلى امتطاء سيارتنا آيبين إلى

---

١ كتاب الصحراء الكبرى ، تأليف جيمس ويللارد ، نشر مكتبة الفرجاني بطرابلس ، ليبيا . أمام الصفحة ١٦٠ ، من الكتاب المذكور .



صورة الاسد والرجل

المدينة المنورة [1] .

مسافة الطريق :

والمسافة بين المدينة والصويدرة هي سبعون كيلومتراً قطعناها في الذهاب

١ يرى القارىء في هذا الفصل رسوم الحيوانات الانسية والوحشية المنقورة على صخور جبل وادي الصويدرة الذي يحده غرباً. وبين الرسوم رسم حيوانات منقرضة أغربها شكلا الحيوان ذو القرون المعقوفة ، وذو الذيل الملتوي والفم المهروت . ويبدو انها كانت تجوب هذه المنطقة قبل عصر الجفاف. فلما بدأ هذا العصر انقرضت وزالت من الوجود وبقيت رسومها شاخصة على الصخور التي سجلها عليها معاصروها الاقدمون .

إلى الصويدرة في ساعتين وربع الساعة . واجتزناها في عودتنا إلى المدينة في نحو ساعتين إلا ربع الساعة . وقد حمدنا الله على سلامة الاياب . وهتف الضمير عندما شاهدنا مآذن المسجد النبويّ ترتفع قاماتها الرشيقة إلى السماء ، هتف بهذا البيت الذي كان علي باكثير ارتجله في مساجلة لنا معه :

مآذن مسجد هـذا الرسو ل تزف المسرة للناظرين

آثارُ الرِّيَاضِ وَمَا حَوْلَهَا

من آثار الرياض

لا تخلو مدينةٌ قديمة في المملكة العربية السعودية من بعض الآثار .. وأغلب الآثار التي تَحدَّثْنا عنها في أغلب مدنْ المملكة هي الآثار الظاهرة على سطح الأرض ، ما بين معمور ومنقوش ، أما ما يَستكِنُّ في باطنها مما يحتاج إلى أحافير ، فمن المعلوم أنه إلى هذا التاريخ [1] لم تجر أحافير أثرية علمية بهذه البلاد ، فيما أعلم ، اللهم إلا ما ندر جداً .

وفي مدينة الرياض مبَانٍ قديمةٌ عَفّى عليها التنظيم الحديث لمدينة الرياض . وما تبقى من معالم بعض آثارها يَحسُنُ أن يُحتفظ به كَمَعالِمَ وكَصُوىً للتاريخ .. يَستَدِلُّ بها ، عن عيان ومشاهدة ، طلابُ العلم ، وعشاقُ البحث العلمي والأثري والتاريخي في الجيلِ الحاضر والأجيال المقبلة ، على ما كانت عليه حال عاصمة البلاد في الأجيال الماضية .

المصمك :

ومن تلك الآثار مثلاً : قصر « المصمك » .. وقد أحسنت الحكومة

---

[1] أواخر جمادى الآخرة ١٣٨٧ هـ – سبتمبر ١٩٦٧ م ، حيث كتب هذا البحث في ذلك الوقت .



بوابة بيت جويسر تاجر البقر الذي دخل منه جلالة المغفور له الملك الراحل عبد العزيز آل سعود وصحبه ليلة فتحه للرياض للوصول إلى بيت حريم عجلان أميرها من قبل ابن الرشيد

إذ أبقته على حالته ، فلم تعمل فيه معاول الهدم .. فإنّ هذا القصر المبنيّ بالطين في أواخر المائة الثالثة عشرة الهجرية ، له طابعُه المعماريّ وله أثره التاريخي البارز في مطلع عهد « توحيد المملكة » ورأب الصدع : صدع الفرقة الشاسعة المدى التي كانت تزيد شمل أبناء البلاد الواحدة تمزقاً وشتاتاً .

لقد كان هذا « المصمك » المكان الذي « وئِدَتْ » فيه « الفرقة » و « وُلِدَتْ » فيه « الوحدة » .. كما هو مفصل في التاريخ ، ولا لزوم لإعادته هنا ، فهو معروف .

دار الأشعة :

ومن آثار مدينة الرياض (دار الأشعّة) [1] ، وكانت غرفها واسعة تشرح الصدر ، وكانت في وسط البلد ، وكانت مشادة أيضاً بالطين ، وقد صمدت لحوادث الزمان ، فلم تَرْكَعْ تحت وطأة أقدام الخراب .. كانت كالكهل القويّ العضلات ، الصامد أمام التقلبات. فحبذا لو أبقي هذا « المبنى » الأثري على حاله ، وحبذا لو أحيطَ بسياج يفصله عما يراد تجديده وتنظيمه على الطراز الحديث في هذه المدينة المتطورة ، ليكون بهيئته « الوقور » وبضخامته ، كذكرى حية للتاريخ .

المُرَبّع :

وكذلك قُلْ في قصر « المربع » أي القصر الذي بناه وعاش فيه مؤسس المملكة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، فإنه يعتبر في نظري — وإنْ قَرُبَ أوانُ بنائه — من مهم الآثار الحديثة في البلاد .

أهمية المحافظة على آثار الرياض وعموم الآثار :

وفي اجتماع لي ، مع صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز ، أمير منطقة الرياض ، تحدثتُ إلى سموه عن فائدة المحافظة على الآثار عامّةً ، والعناية بتاريخها ، لحسابِ التقدم الحضاريّ العام في البلاد ، وقلتُ لسموه فيما قلتُ : إنّ مَنْ لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل . وتطرقت

---

[1] هذا من تسمية المحل باسم الحال فيه .. فقد وضعت بها الأشعة الصحية فيما بلغني ردحاً من الزمن . فشاعت تسميتها بذلك . وكانت قبل ذلك داراً للحكم على ما بلغني أيضاً .

إلى أهمية استبقاء ما تبقى من قصر المربع ، الذي كنت لمحته — في رحلتي إلى الرياض بجمادى الآخرة ١٣٨٧ هـ — سبتمبر (ايلول) ١٩٦٧م — وقد بدأت عوامل التنظيم الحديث للرياض تتسلل إلى كيانه وتأخذ من أطرافه ، وتكاد تأتي عليه كله ، واقترحت أن يُعْنى بالمحافظة على ما تبقى منه كَعَلَمٍ مُهِمٍّ من معالم التاريخ الأثريّ الحديث ، لموحد شمل البلاد ، وعَرَضْتُ على سموه فيما عرضته أن يُعْتَنَى — بضم الياء — بجميع آثار الأئمة من آل سعود ، وخاصةً آثار الملك عبدالعزيز كَسُيوفِهِ وبنادقه وبعض أثاثه الذي كان يستعمله ، وبعض آثاره الأخرى ، وتحفظ كلها في (المتحف) التاريخي بالرياض ، بعد أن يسجل بجانب كل أثر ، تاريخه الخاص به .. وقد استحسن سموه هذا الرأي ، ووعد بتنفيذه وتحقيقه ..



عمران الرياض القديم

متحف جامعة الرياض :

وعلى ذكر المتاحف ، فمن الجدير بالإشارة أن في (كلية الآداب) بجامعة الرياض « متحفاً » أثرياً ، أو نواة متحف أثري على التعبير الدقيق . وهذا « المتحف » عبارة عن « غرفة » واسعة عُلْوِيّة ، نُسِّقَتْ بها مختلف الآثار التي تحتويها ، بإشراف عالم الآثار الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري . وقد حَدّثنا عن تاريخ كلّ أثرٍ موضوع بالغرفة ، وعن التعريف به ومكانِ العثور عليه ، وكيف تم جلبه إلى هــذا المتحف ، كما حَدّثنا عن نبذة مما نُقِشَ عليه .. وكان يقرأ لنا بعض السطور المنقوشة بالخطوط القديمة قراءةَ خبيرٍ مُمارِس مستوعبٍ .

وقفة بين أطلال الدرعية

في « رحلة الرياض » رأيتُ أن لا بدّ من مشاهدة « أطلال » مدينة الدّرعية التي كانت إحدى عرائس الجزيرة العربية ، عمراناً وضخامة وازدهاراً . وفي طريقنا اليها من مدينة الرياض رأينا إرهاصات العمران تمتد من الرياض إلى هذه المنطقة الفيحاء التي تفصل بين الرياض والدرعية وبعد نحو عشر كيلومترات — سَيْراً على السيارات كنا نسير في مشارف مدينة الدرعية . لقد أشْرَفْنا على واديها الهادئ الجميل ، الواسع ، الذي تحتضنه من جهةٍ حدائقُ النخيل الباسقة ، ومن جهةٍ مدينةُ الدرعية المرتفعة عن وهدته والمنخفضة ، ومن ثمّ شاهدْنا أبراج الدرعية التي كانت تمثل بعض تحصيناتها الخارجية أيام ازدهار عمرانها وقبل تقويض بنيانها ..

ورأينا سور الدرعية الطيني القوي المتداعى من فعل الحريق .

وقد اقتحمت سيارتنا وادي الدرعية بجرأة وإقدام ، وذلك لأن الطريق اليه وفيه ، قد سُفْلِتَ ، فلم يَعُدْ كما كان صعبَ المراس . وكان وصولنا إلى الدرعية في الظرف الملائم ، فقد خفت حدة أشعة الشمس ، فمنحتنا خفتها فرصة طيبة للتجول الباحث المستطلع بين أطلال

مدينة الدرعية المنهارة بفعل الغُزاة القُساة ، وجاءت لنا المقادير على يد أحدنا : أحمد سليمان داود ، بالشيخ عبد الرحمن اليوسف أحد سكان الدرعية ، فكان دليلنا إلى معرفة أمورٍ ، ما كنا لنقف على حقائقها ولا على ماضي تاريخها لولا دلالته وإرشاده .

أرانا الأماكن التي دارت فيها رَحَى القتال طَحُوناً للعمران وللرجال .

وأرانا قصر الإمام عبد الله بن سعود بمحلة (سَلْوى) .

وأرانا الطريق الهابط المُسَقَّف بالعقود الحجرية المطابقة ، في أيام ازدهار الدرعية وحين عنفوان عمرانها . وهو الطريق الذي كان عبد الله ابن سعود يسلكه إلى (دَكَّتِه) المُفَضَّلة الشبيهة بمدرجات الجامعة أو مدرجات ملاعبِ الرومان في استطالتها وبنائها وهيئتها من حيث العموم .. وقد أصبحتِ اليوم أثراً بعد عين . والدَّكّةُ هذه مبنيةٌ بالحجارة المطابقة المنحوتة البيضاء .. ومع مرور عشرات السنين عليها وهي مهجورة لم يَجْرِ عليها ترميمٌ أو عناية ، فهي لا تزال على حالها في انتظام صفوف حجارتها وتماسُكِها . . لم يطرأ عليها تَفَتّتٌ أو تَكَسّر أو تساقط .. مما دلنا على مهارة من بنوها ، وعنايتهم ببنائها لمن بنوها من أجله .

وهذه (الدكة) العالية المشرفة المديدة تحد الوادي في ناحيته القريبة من الرياض .. تحده شمالاً .

وكان عبد الله بن سعود ، يجلس عليها هو وصحبه وأقاربه وضيوفه ومن كان معه من العلماء ووجوه البلد والحاشية ، جَلْسَةَ الراحة والاستجمام بعد صلاة العصر ، وربما للنظر في بعض القضايا المتعلقة بهذه السوق المتحركة النشطة : (سوق الإبل والشاء) وربما كان من يفدون اليه ويجلسون معه على هذه (الدكة) ، من ذوي الشأن والْحَلِّ والعقد

من أطراف البلاد أو من الخارج . وكان مجلسه فيها بأوقات الأصيل التي تنكسر فيها حدة الشمس حينما تهبط وتتوارى بين أغصان النخيل السامقة وبين التلال قليلاً قليلاً ، كما تتوارى العروس الحسناء عن أنظار الناس بعد ليلة الزفاف . وإذا بدأ قُرْصُ الشمس الكبيرة في السقوط تدريجياً وراء الأفق الغربي ينهض الإمام من مجلسه ، وينهض كل من كانوا معه ، فيصعدون معه إلى المسجد الجامع ، ريؤذّنُ لصلاة المغرب ، فيصلون صلاة المغرب جماعة ، ومِنْ ثَمّ ينصرفون مع الإمام إلى قصره العامر ، حيث السمر البريء ، والأحاديث الدينية ، والمذاكرة ، وعرض الأوراق والأمور المستعجلة المهمة عليه ، ليبَتُّ فيها ، حتى إذا أذّنَ للعشاء ، نهضَ إلى الجامع وصلّى به هو ومن معه ، ومن ثم يعودون إلى القصر ليتناولوا طعام العشاء والقهوة العربية .

وقَصْرُ الإمام عبد الله قريبٌ من كلا الجامع والوادي .. هو في الطرف ويليه الجامع ، ويلي الجامعَ الوادي الذي تقع (المسطبة الإمامية) في طرفه الشمالي .

وكان الإمام ورفاقه يجلسون على هذه الدكة الكبيرة المرتفعة ، بعد صلاة العصر ، كما قلنا سابقاً ، بحيث يشاهدون عن كثب حركة هذه السوق المائجة بالرّغاء والثغاء .. وربما بالصهيل وغيره .. رغاءِ الإبل المعروضة في السوق للبيع ، وثغاء الشاء المعروضة فيه لنفس الغرض ، وصهيل الخيل كذلك .

والجامع ذو عقود ومبنيٌّ بالحجارة المطابقة .. وهو كبير [1] مشاد على مرتفع من الأرض في موقع ليس ببعيد عن الوادي ولا عن القصر

---

[1] في كتاب تاريخ البلاد العربية السعودية للدكتور منير العجلاني ذكر للمسجدالكبير الذي بناه الأمير محمد بن سعود بناء على رغبة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدرعية ص ٩٨ .فهلهو هذا الجامع أو غيره ؟

الكبير ، وقد شاهدناه مُهَدَّماً .. لم تبق منه إلا بعضُ جُدْرانه وبعضُ أطراف عقوده التي أزيلت أعاليهـا فبقيت أكتافها التي لم يتناولهـا التهديم الشامل العامّ الذي شمل كل مدينة الدرعية ، فأحالها إلى أكوام متراكمة من حجارة مطابقة بيض ، ما بين متناثرة ومدفونة تحت أطباق الثرى ، وتحت أطباق أنقاض المدينة التي أشعل فيها الغزاة المهاجمون النار في آخر الأمر ، ولم يَنْجُ في هذه المدينة من هذا البلاء المستطير سوى « بضعة مشاجب » ظلت عالقة بالجدار العلوي في قصر الإمام عبد الله ابن سعود ، وقد رأيناها وهي (مخروطة) ولا تزال مثبتة في بقايا أعالي الجدار الغربي في داخل القصر ، بطابقه الأعلى .. ولعل ارتفاعها البالغ هو الذي حماها من أن تلتهمها النيران المتأججة في هذه المدينة في تلك الأيام السود الحالكة .

وسار بنا عبد الرحمن اليوسف في منعرجات الشارع العام ، فاذا به ضَيّقٌ ومُلْتَوٍ ، مثل شوارع أمهات مدن المملكة ، قبل تنظيمهـا الحاضر .

وتأملتُ طراز بناء القصور والدّور في الدرعية الساكنة سكون الأموات في أجواف القبور المهجورة ، بعد حياة حافلة بالنشاط والمجد الدينيّ والعامي والعملي ، فإذا هي كلها مشادة بالطين وباللّبن الأصفر ، كما شاهدتُ ذلك في مدينة (الرياض) — خليفتها — قبل أن يَحْدُثَ بها هـذا التطور الكبير .

وطراز بناء بيوت مدينة الرياض وقصورها فيما رأيناه — سنة ١٣٦٦هـ — ١٩٤٦م ، هي نسخة طبق الأصل ، من طراز بناء بيوت مدينة الدرعية وقصورها المُشاهَدَةِ أطْلالُها الآن (سنة ١٣٨٧ هـ) .

ولِتَهَدُّمِ كل ما في الدرعية من أماكن ومنازلَ ودكاكين وغرفٍ ومخازن ، ودارات ، لم نتمكن من معرفة حقيقة ذلك إلا أن لنا من

مدينة الرياض قبل تطورها الحديث صُورةً لا تخلو من معالم مماثلة لكل ما ذكر .

وإننا لنأسف أنْ رأينا كل ما في الدرعية مهدوماً ومركوماً .

ومن رأيي أنه لو قامت جامعة الرياض أو أية هيئة علمية أثرية بإجراء البحث والتنقيب العلميين الواسعين في أرجاء هذة المدينة وما يُطيفُ بها من حصون وأسوارٍ وأبراج ، وما حولها وفيها من حدائق ، ومساجد وبيوت ، ومحلات ، بصفة شاملة ودقيقة ، فلا بُدَّ أن آثاراً بالغة الأهمية لتقدم معرفتنا ، لتاريخ هذه البلاد الحديث ، سنجدها بين هذه الانقاض وتحتها .

* * *

والدرعية مدينة عربية إسلامية المنشأ والطراز ، بدأ العمران يَدِبّ فيها بصفة واسعة معروفة منذ اتخذ ربيعة بن مانع بسنة ٨٥٠ هـ — ١٤٤٦ م المليبيد وغصيبة المعروفين بالدرعية مقاماً له .. وقد كان مانع المذكور يَحُلّ بَلَدَ الدّروع من نواحي القطيف ، ثم تراسل مع رئيس دروع حجر اليمامة الذين هم بنو عمومته ، دروع القطيف ، فدعا ابنُ دِرْع حجْرِ اليمامة ، ابنَ عمّه مانع بن ربيعة من القطيف ، فوافاه بحجر اليمامة وأعطاه المليبيد وغصيبة ، فاستقر فيهما هو وبنوه [1] .

وظلت الدرعية عاصمة آل سعودٍ الأولى إلى أن خُرّبت — بضم الخاء وتشديد الراء المهملة — بسنة ١٢٣٣ هـ — ١٨١٨ م . والدرعية الحديدة تُقابِلُ البلدةَ القديمة .. وهي في الجهة الشمالية من وادي حنيفة ، وتقع بغربي الرياض ، غير بعيدة عنها . وقد بلغ سكانها

---

١ تاريخ عنوان المجد لابن بشر ، ص ١٦ ، طبع المطبعة السلفية بمكة المكرمة .

سنة ١٣٥٤ هـ نحو ١٥٠٠ نسمة . وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة وتسقيها ٤٠٠ بئر غزيرة المياه ، وأشهرُ ضواحيها الطريفُ في الجهة المقابلة من الوادي ، ومريح وغصيبة ، وهي منفصلة عن بعضها بأسوارها الخاصة [1] .

ويذكر المؤرخون أن تدمير مدينة الدرعية تم بأمر محمد علي باشا ، في حزيران سنة ١٨١٩ م [2] .



جامع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدرعية

١ كتاب جزيرة العرب لحافظ وهبة ، ص ٥٨ .

٢ تاريخ نجد لفلبي ، تعريب الدبراوي ، طبع بيروت ، ص ١٦١ .

آثار جُدّة وما حولها

الآثار في مدينة جدة

ليست الآثار الماثلة كثيرةً في هذا البلد . ولعل السبب في ذلك يعود إلى طبيعة جوِّ البلد الرطب الذي لا يكاد يُبْقي على أثر أو بناءٍ ، وقتاً طويلاً من الزمن ، إذ تصطلح عليه عوامل الرطوبة والحرارة ، فيقضيان عليه تدريجياً وبصورة منتظمة وغير بطيئة . يضاف إلى ذلك ملوحة الأرض ، فإن أغلب أرض جُدَّة — لقربها من البحر الأحمر المِلْح — سَبِخةٌ — حتى العمارات تتأثر بهذه الطبيعة الغلَّابة فلا تَبْقَى قروناً ما لم تكن ذات قوة وتماسك في البناء يستطيعان مقاومة عوامل طبيعة الجو والأرض القاسية إلى أبعد وقت ممكن .

وكل الآثار التي اطلعتُ عليها في جُدَّة ، أياً كان لونها أو شكلها ، لا ترتقي إلى العصر الجاهليِّ ، بل لم أرَ حتى الآن أثراً شاخصاً يرتقي إلى صُبْح الإسلام أو ظهره .

وأقْدَمُ الآثار الشاخصة التي شاهدتُها ، مسجدان ، هما : مسجد الشافعيِّ القائمُ في حارة المظلوم ، فإن بناءه الماثل للعيان الآن كان بَعْضُه ، في سنة ٩٤٠ هـ وبعضه قبل ذلك ، كما هو مثبت على الحجرين الملصقين ببابه إلى اليوم ، ولا يمنع هذا أن يكون قد حدث فيه ترميم أو إصلاح بعد بنائه ، إلا أن أكثر البناء القديم هو باقٍ إلى اليوم .

وقد لاحَظْتُ أنه أصبح لِتَقَادُمِ عهدِهِ ، أخْفَضَ مُستوىً مــن الشارع الذي يقع أمامه[1] . وقد تلقيتُ عن قِدَمِ هذا الجامع رِسالةً من عمر نصيف رحمه الله ، كتبها بخط يده في أواخر شعبان ١٣٨١ هـ قال فيها :

« وأقدم عمارة في جُدّة هي الدار وَقْفُ الجدّ عبد الله نصيف أمام دار سيّدي الوالد بمحلة الْيَمَنِ ، ثم تليها الدارُ مِلْكُ فرج يسر سابقاً ، وهي سكني آل الحمجوم الآن بالقرب من مسجد الْمِعْمار ، وأقْدَمُ جامعٍ هو جامعُ الشافعيّ ، وأقدم مسجدٍ هو مسجدُ عثمان بنِ عفان رضي الله عنه » .

والمسجد الثاني القديم هو مسجد عثمان بن عفان .

هذا ، وقد أشار عمر نصيف إلى دارين قديمتين في جُدّة ، هما : دارُ جَدِّهِ ، ودارُ فَرَج يُسُر سابقاً . وأعتقد — بناءاً على القرائن التاريخية — أنهما بُنِيتا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري أو أول الرابع عشر .

ومن الدور القديمة ، دارُ الحكومة التي يملكها آل باناجه والتي كانت فيها قائمقامية جُدّة إلى عام ١٣٧٨ هـ ، وتقع أمام « بَرَحَةِ » سيارات الأجرة الذاهبة إلى المدينة سابقاً . وكان قد عمرها الدكتور عارف بك التركي ، الذي كان من أغنياء التُرْكِ ، وقد جعلها مُسْتَشْفىً حينما لم تَبْنِ الحكومة مستشفى بجدة ، ثم وهبها للحكومة فانتقل اليها الوالي ودائرتُهُ ، وبقيت مقرّاً لِوُلاة الترك والأُمراءِ من بعدهم ،

---

[1] يشبه في هذا ما حدث في بيوت المدينة المنورة القديمة في حارة الاغوات وفي زقاق الحمزاوي ومـا شاكلها من المنازل .. حتى المسجد النبوي والمسجد الحرام في واقعهما الراهن منخفضة أرضها عن أرض الشوارع المحيطة بها .

إلى ما قبل أمد ليس بالبعيد . وقد بنت الحكومة التركية المستشفى العام بباب شريف . وجدير بالذكر أن الوالي كان يقيم قبل انتقاله إلى الدار المذكورة — بالدار المعروفة بِالْمَشْوَرَةِ ، وكانت تقعُ غرب دارِ آل الزاهد ، وراء المسجد هنالك ، وكانت تطل على البحر لعلوها عن غيرها وقد هدمت [1] .

وإذا بحثنا في بطون الكتب عن الآثار القديمة الباقية في جُدّة إلى الآن فاننا واجدون بينها مَسْجِدَ الأبَنُوسِ ، وقد تواتر ذكر هذا المسجد لدى الرّحّالة والمؤرخين قديماً وحديثاً . ذكره الرحالةُ ابن جُبَيْر في القرن الهجري السادس ، وقال عنه : « وبها مسجد آخر له ساريتان من خشب الآبنوس » ينسب إلى عمر بن الخطاب ، ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد [2] . وذكره غيره . وأظن البشاريّ يقصده بقوله : « وبها جامعَ سَرِيّ » [3] كما ذكره بطرس البستاني فقال : « وبها جامع الآبنوس يقال : إنه يستجاب فيه الدعاء» [4] .

وقد تأملت بناءه الحاليّ ، فإذا هو من طراز أبنية القرن الثاني عشر الهجريّ . إن له شرفات ، وبناؤه ما زال متماسكاً ، وهو مبني على « تَلِّ جُدّةَ » في نقطة مرتفعة ، وهو صغير ، ولا تقامُ فيه الجمعة الآن ، وإن كان فيما مضى جامعاً تقام فيه الجمعة .

وقبر حواء من الآثار المذكورة في التاريخ ، وهذه مزية كبيرة لِجُدّةَ لو ثبتت ، ولكن دون ثبوتها خرط القتاد .

---

١ عن الشيخ محمد نصيف .

٢ ابن جبير : رحلته ، ص ٥٣ ، ط بيروت .

٣ ابن بطوطة : رحلته ، ص ٤٣ ، ط بيروت .

٤ بطرس البستاني : دائرة المعارف ، ص ٤٠٤ ، ط بيروت .

إنّ قبر حواء على طرازه المعروف هو قبرٌ طويل كَمَجْرى نُهَيْرٍ[1] ذاهِبٍ إلى الشمال بمسافة مائة وخمسين متراً ، وشكله يشبه قناة مسدودة من طَرَفها الجنوبيّ بثلاثة جدران ، وفيه مكان لرأسها ومكان لقدميها ومكان لِسُرّتِها . وكان به حَجَرٌ من الصوّان يبلغ طوله نحو متر ، محفور من وسطه .

وقد ذكر ابنُ المجاور ، هذا القبر ، فقال : « وما أظن هذه البَرَكَةَ لِجُدّةَ بمضاعفة أجر الصلاة والصدقة فيها ، إلا من جهة أمِّ البشر حَوّى صلوات الله عليها ، لأنّها مدفونة بظاهر جُدّة ، وكان الفرس قد بنوا عليها ضريحاً بالآجرّ والجص ، مُحْكَماً ، فبقي إلى سنة إحدى وعشرين وستّمائة ، فعند هذا التاريخ تَهَدّم ، وارتدم بعضه على بعض ، وهو موضع مُبَارَكٌ ، مستجاب فيه الدعوة »[2] .

ولو أخذنا بقول ابن المجاور ، لاعتقدنا أن قبرَ حواء المزعومَ وجودُه في جُدّةَ هو أقْدَمُ أثر بشريٍّ على وجه الأرض ... ذلك أنه يقول : « ويقال إنما سميت جدة ، جدة ، لأنها دفنت بها أمّ البشر حواء عليها السلام ، فهي جدة جميع العالم ، فلما بُنِيَ هذا البلد عرف باسم جدة ، أي حواءَ زوج أبي البشر عليه السلام »[3] .

---

١ يشبه في هذا قبور الأنبياء : هود وصالح وحنظلة في حضرموت ، وقبر حنظلة الوهمي فيها وكلها مفرطة في الطول على ما رواه صالح الحامد في كتابه تاريخ حضرموت ، الجزء الأول ، ط دار الكتب ، بيروت ، ص ٧٢ و ٧٣ ؛ فلعل للأساس في الزعم القائل : ان قبر حواء بجدة في هذا المكان بالذات وتطويل مساحته هكذا ، علاقة بما قيل عن قبور اولئك الأنبياء .

٢ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٤٨ .

٣ نفس المصدر ، ص ٥٢ .

وتطرق ابن المجاور إلى مضاعفة أجر الصلاة والصدقة في جدة ، وعَلّلَ ذلك بِبَرَكَةِ وجود قبر حَوّاءَ فيها ، وهو تعليل لا نوافقه عليه . فإذا كان أجرُ الصلاة والصدقة يُضاعَفُ في جُدّة ، فلعل ذلك يَعُودُ إلى أنها دارُ «رِباطٍ» للمسلمين ، وثغْرٌ من ثغور الإسلام الأولى ، وبابُ الحرمين الشريفين . للرباط فيها أجر كبير ، بالنسبة للرباط ذاته عامة ، وبالنسبة للرباط بها خاصة من أجل حماية الحرمين الشريفين من أيّ تَسَلّلٍ مُعادٍ أجنبيّ . ولا يمكن أن يُعْزى ذلك إلى وجود قبرٍ مزعوم لحواء فيها .

على أننا استفدنا من ابن المجاور أن الذين بنوه ضريحاً بالآجُر والجص هم الْفُرْسُ ، وأنّهُ بقي على بنائه لهم ، إلى سنة ٦٢١ هـ وإن لم يَذْكُرْ لنا تاريخَ بنائهم له . ولعله يقصد بعض جَوَاليهِمْ في عهد الإسلام . ثم أعيد بناؤه بعد ذلك ، وهكذا ، وقد رآه ابن المجاور عامراً وخراباً .

هذا ، ولا يصح مطلقاً الزعْمُ القائل بأن اسم جُدّةَ (بضم الجيم) هو مأخوذ من اسم جَدّةِ البشر (بفتح الجيم) وذلك لتباين الصيغتين : جُدّة (بضم الجيم) وجَدّة (بفتحها) ، في الوضع وفي المعنى معاً كما هو واضح .

ومن آثار جُدّة ، هذه الصهاريج التي كانت مخازن للماء العذب في القرون الخالية . ومن الصهاريج القائمة أطْلاَلُها إلى اليوم صهريجُ الْمَشّاطِ العائدُ للشيخ محمد نصيف ، وصهاريجُ أخرى في المحلتين : البغداديةِ والشرفية ، وهي كلها قديمة البناء مَتينَتُهُ ، ولربما يكون من بينها ما له عدة قرون . وهذه الصهاريج بُنِيَتْ بالطّوب الأحمر والنورة البلدية بناءاً مُحْكَماً ، يُمَكّنُها من اختزان المياه ، ومقاومة الجو والمؤازرة في حالة حصارها ..

ومن صهاريج الماء الخاصة ، صهريج مسجد الشافعيّ الذي يشمل أسفل ساحته الكبيرة ، وصهريجُ دارِ الشيخ محمد نصيف في حارة اليَمَن ، وهو يشغل سفل بَهْوِ الدار ممتداً وشاملاً لكل ما تحت مكتبه المطل على الشارع العام ، وهو في شكل عقودٍ كالأقبية المتينة أو المخابئ الحديثة القوية البناء .

* * *

والمتاحف ، هل يوجد شيء منها في جُدّة ؟..

إن المتاحف لها أهمية كبيرة في وصل حضارة اليوم بحضارات القرون الغابرة . ويوجد في جُدّة « متحفٌ » حكومي للعاديّات [1] يقوم في دار كبيرة بجوار دار معمل الأبحاث ، وتتبعان وزارة البترول والثروة المعدنية .

كان المتحف قبل إنشاء هذه الوزارة تابعاً لمكتب المعادن ، ويَشْغَلُ الطابق المتوسط من الدار .

ويفيدنا « سنت جون فيلبي » بأنه جَلَبَ اليه مجموعة لا بأس بها من قِطَعِ الحجارة المنقوشة وبقايا أواني الخزف وقِطَعِ النقود وما أشبه ذلك ، مما جمعه في رحلته إلى شمال المملكة السعودية عامة ، ومن خرائب تيماء القديمة ومدائن صالح خاصة . ويقول فيلبي : إنه عرض ذلك كله بالمتحف لمن شاء أن يُجْري عليه دراسة [2] .

---

١ أي الآثار القديمة . وقد نقلت الآثار الموجودة بهذا المتحف إلى مدينة الرياض مؤخراً ، ونحن هنا نصف محتوياته كما كانت قبل نقلها .

٢ سنت جون فيلبي : أرض الأنبياء ، مدائن صالح ، ص ٩٥٩ و ١١٣ ، ترجمة عمر الديراوي طبع بيروت ، وهي ترجمة كثيرة التحريف للاسماء العربية حتى ان الترجمة تحتاج إلى ترجمة أخرى صحيحة .

كما حدّثنا بأن أحمد فخري الذي هو أحد تلاميذ « ك. س. تويتشل » كان المسؤول عن هذا المتحف الذي انشئ استناداً إلى مبادهة من رجل انكليزي من (ويلز) يدعى « جيبس » . ثم عمر هذا المتحف بالكثير من الآثار خاصة تلك التي كان فيلبي قد جمعها في رحلاتــه السابقة ، ثم أضيفت اليه النقوش والآثار التي وجدها في رحلته الآنف ذكرها والرحلات التي تلتها .. ويقول : « إنه أثاره سَفَرُ (جيبس) بعد أن انتهى تعاقده مع الحكومة السعودية ، وذلك لأن المتحف وما يحتويه — وكان بعضه ذا قيمة كبيرة ونادرة — سيكون عرضة للدمار[1] ، وكان (فيلبي) يخشى أن أحداً من رجال الحكومة لن يكلف نفســه مشقة زيارة المتحف أو حتى القاء نظرة واحدة على محتوياته ، رغم أنه « أي فيلبي » كثيراً ما ذكر أمام المسؤولين أهمية الموجودات فيه ، وكذلك أهمل اقتراحه الذي قدمه فيما بعد ، بأن يشرف الملك هذاا لمتحف بزيارة سامية[2] .

لقد أزْمَعْتُ زيارة هذا المتحف ، التابع للشؤون الفنية للثروة المعدنية بِجُدّة ، فذهبتُ اليه في يوم الخميس الموافق ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ — ١٦ اغسطس ١٩٦١ م ، واستَقْبَلَنا معتوقٌ باحِجْرِيّ مدير معمل الكيمياء التابع لوزارة البترول والثروة المعدنية ، وبعد تجوال معه في معمل الأبحاث دَلَفْنا إلى المتحف الماثل بجواره في عمارة مستقلة كبيرة ، فوجدناه مليئاً بالآثار والعاديات العربية . وكلها من جــزيرة العرب ، وأغلبها من نواحي المملكة العربية السعودية . فهو يمثّــل حضارات جاهلية قديمة خير تمثيل ، كما أن به بعض آثار إسلاميــة

---

١ لم يحدث ولله الحمد ما توقعه فيلبي فبقي المتحف قائماً مملوءاً بذخائره ، إلى أن تم نقله إلى مدينة الرياض وأعيدت اقامته بها ملحقاً بوزارة المعارف في عناية وصيانة حقتين .

٢ أرض الأنبياء ، ص ٨١ .

قديمة ، وآثار وعاديات من بلاد اليمن ، وآثار رومانية في جوانب المملكة العربية السعودية ، لا بـد أن العرب القدامى جلبوها أو نحتوها . وقد حصرنا موجودات المتحف فكانت حسب ما يلي :

١ — مبخرة حجرية من آثار سبإٍ ، وهي مربّعة الشكل مرتفعة القامة من حجر الغرانيت ، وقد أتى بها من تعز ، إبراهيمُ بن مُعَمَّرٍ ، أيام كان سفيراً للمملكة في اليمن . وقَبَض ثمنها من الحكومة .

٢ — تمثال رومانيّ من القُصَيْرِ ، جنوب بلدة الوجه في وادي الحمض ، جاء به فيلبي وقدّمه هدية للمتحف .

٣ — كتابة سَبَئِيّة منقوشة على حجر جيريٍّ أبيض ، أتى بها ابراهيم بن معمر ، من تعز باليمن ، وقَبَض ثمنها من الحكومة .

٤ — جزء من عمودِ مرمرٍ وُجِدَ في أم القريات ، قُربَ الوجه . قدّمه فيلبي للمتحف هدية .

٥ — عديد من مطاحن الذهب العربية باليد ، من صغيرة ومتوسطة وكبيرة ، مصنوعة من حجر البازلت الأسود ، ومن حجر الغرانيت ، وجدت في منجم ظلم وفي المَهْد .

٦ — حجر لذبح القرابين داخل معبد ، وجد في قرية (وادي الدواسر) ، وجاء به فيلبي هدية للمتحف ، وهو من حجر رمليّ أبيض .

٧ — تماثيل صغيرة لأشخاص من حَجَرٍ مختلف ، ما بين رخامٍ ورملي ، وهي سبئيّة ، أتى بها إبراهيمُ بن معمر من تعز وصنعاء .

٨ – هاوُونُ حَجَرٍ بازِلْتٍ وجد في مهد الذهب .

٩ – قطعة من نحاس منقوشٌ عليها كتابة سبئية أتى بها إبراهيم بن معمر من تعز وصنعاء .

١٠ – كتابات سبئية على حجر رملي ، أهداها فيلبي للمتحف .

١١ – بيضة نعامٍ متحجرة جاء بها فيلبي من « الْفَوّ » قرب تبوك . وأهداها للمتحف .

١٢ – قطعُ فخّارٍ كثيرة من صغيرة ومتوسطة ، من الجنوب الشرقي للطائف ، أهداها فيلبي للمتحف .

١٢ – مَكاحِلُ زجاجيةٌ صغيرة قديمة ، لم يبق إلا أعناقها ، وقد أهداها فيلبي للمتحف .

١٤ – هاوونات من البازلت وجدت في منطقة ظلم ، جاء بها إلى المتحف موظفو المعادن .

١٥ – هاوونٌ كبيرٌ من حجر البازلت قطره (٦٠) سانتيماً ، وجد بجدّة وعليه كتابةٌ محفورة أو نقش قديمان .

١٦ – أوانٍ من حجر الصابون وجدتْ قرب قصر إزلام أو إسلام ، هديةً من فيلبي .

١٧ – قطعة حجر سوداء كبيرة من حجر الحديد عليها رسم جَمَلٍ منقوشٌ بطريقة فنية بارزة .

١٨ – قطع كثيرة من فخّار نبطيٍّ ، وجدت في قرية تبعد عن تبوك في شمالها الغربيّ بـ (٤٥) كيلومتراً في « أم الدّبّة » – بفتح الدال المهملة المشددة بعدها باء مشددة مفتوحة فتاء مربوطة –

١٩ — جمجمة إنسان نَبطيٍّ ، وجدت في مقابر الأنباط بالشمال — هدية من فيلبي .

٢٠ — طَسْتٌ رخاميٌّ جميل صقيل من آثار الثموديين ، قطره (٦٠) سنتيمتراً وعمقه (٢٥) سنتيمتراً ، أهداه ولي العهد اذ ذاك ، للمتحف . وجد هذا الطست بقوز الجعافرة [1] قرب جازان .

٢١ — تدوينٌ كتابيٌّ على حجرٍ وُجد في (قُوزِ الجعافرة) قرب جازان . أهداه للمتحف ولي العهد إذ ذاك أيضاً .

٢٢ — قطعةُ حجرٍ منقوشٌ عليها كتابة عربية كوفية محفورة حفراً واضحاً جميلاً ، والخط جميل وكبير .

٢٣ — جزء علويّ من عمودٍ ، وجد في « قوز الجعافرة » بقرب جازان هدية من ولي العهد إذ ذاك .

٢٤ — قطعٌ زجاجية كثيرة خُضْرٌ وبيض ، وجدت في مدينة خرائب « حَرّةِ خريدة » ، هدية من فيلبي .

٢٥ — قطع فخارية وزجاجية وجدت في « هوارة — مدين » بالشمال .. من آثار ثمود ، هدية من فيلبي .

٢٦ — قِطَعُ صَدَفٍ وجدت في مَسْكَنَةِ مَدْيَنَ ، من آثار ثمود (هدية من فيلبي) .

٢٧ — عمودٌ من حجرٍ رملي أبيض ، فيه زخرفة عربية على شكل معين ، وجدت في « قوز الجعافرة » بقرب جازان . أهديت للمتحف من (ولي العهد ، إذ ذاك) .

---

[1] فوز الجعافرة : تل مرتفع على ساحل البحر بين صبيا وجازان « عن السيد محمد السنوسي » .. ويلاحظ أنه مكتوب في تعريف هذا الأثر بالمحتف اسم : « قوس الجفيرة » وهو تعريب غلط صحته ما ذكرناه . ولعل أصله (قوز الجعافرة) و (القوز) هنا بمعنى التل .

٢٨ – تدوين كتابي على حجرين رمليين من نجران (أهداهما فيلبي ، وريكمان ، للمتحف) .

٢٩ – قِطَعُ فخّار وجدت في الأخدود بنجرانَ من آثار السبئيين ، (هدية من فيلبي) .

٣٠ – مجموعةُ قِطَعٍ فخارية وجدت في قرية « الفْـوَّ » على بعـد (١٠٠) ميل جنوب وادي الدواسر .

٢١ – تدوينٌ كتابي على حجرين من الرمل الأبيض من آثار السبئيين وجدا في قرية « الفْـوَّ » على بعد (١٠٠) ميل جنوب وادي الدواسر ، ويرجع تاريخ السبئيين إلى ما بين عام ٢٠٠ ق. م. و ١٠٠ ب. م.



من رسوم متحف آثار جدة الذي نقل إلى الرياض

هذا وقد أهدى إلى المتحف حمد محمد النُعيُيَنْديّ بعض ما اكتشفه في رحلاته بالمملكة وذلك :

٣٢ – قطع فخّارية وجدها قرب قصر السموأل بن عاديا ، بتيماء .

٣٣ – مجموعةٌ فخّارية وزجاجية وجدها بميناء المدينة القديم : « الجار » ويعرف حالياً بالنْبُرَيْكَة (بضم الباء الموحدة بعدها راء مهملة مفتوحة فياء مثناة تحية فكاف فتاء مربوطة) .

٣٤ – قطعة من جمجمة إنسان وجدها مدفونة في سور قصر السموأل ابن عادياء في تيماء .

هذه جملة أهم موجودات المتحف ساعة كتابة هذا البحث . وكل التحف موضوعة على مناضد خشبية ومكتوب بجانبها التعريف عنها ، ومن أهداها ، أو جلبها ، ولمن تعود ، ومن أين جُلِبَتْ .

هـــذا وتشتمل الحجارة المنقوشة بالخط العربي ، أسماء متوفين والترحم عليهم ، وفي بعضها إخبار أو اشعار تحوم حول البريد حيث ورد فيه ما نصه : (منا من البريد وهو على أشرف سنن بريـــد من الكوفة) وهذا الحجر مكسور كما يستبين من الاطلاع عليه .

متحف آل باعشن بجدة

كما أن بجدة متحفاً آخر خاصاً ، وهو أقدم بكثير من المتحف الحكومي الذي أشرنا اليه آنفاً . وكان قد أنشأه الشيخ المعمر محمد صالح بن علي باعشن المتوفى سنة ١٣٨٠ ﻫ .

وكان مبدأ تأسيسه لهذا المتحف الخاص بسنة ١٣٢٠ ﻫ وقد جمع فيه آثاراً وتحفاً نادرة من مختلف بلاد العالم : من مصر ، ومن السودان، ومن إيران ، ومن الهند ، وحتى من الصين . والتحف والآثار التي جمعها لا تزال مصفوفة ومرتبة في غرفتها المخصصة لها في الدور الثاني من داره في محلة الشام .

وكانت طريقة تجميع محمد صالح باعشن لهذه التحف أن يوصي بعض أصدقائه الذين اعتادوا أن يجوبوا بعض أنحاء العالم — بإحضارها له ، ويأخذها منهم بثمن مرتفع ، وكان من هؤلاء الأصدقاء محمد العروسي التونسي المدني الذي كانت بلاد الهند منطقة جولاته ورحلاته .

وصديق آخر اسمه محمد باشراحيل المولود في أندونيسيا .

ولم يشر محمد صالح بن علي باعشن ، رحمه الله تعالى ، إلى هذا المتحف ، في مذكراته الخطية التي بدأ في إملائها سنة ١٣٥٩ ﻫ ، وانتهى منها في سنة ١٣٦٥ ﻫ .

* * *

وَأخبَرَنا محمود عارف بأنه يوجد لدى محمد إسماعيل التاجر بِجُدّة متحف خاص به في داره بمحلة اليمن ، يحتوي على تحف من الخزف قديمة ، ذوات أشكال منوعة .

* * *

أما الفنون فلا ريب في أن بِجُدّة منها ألواناً ، من أهمّها هـذه الزخرفة من النقوش التي نرى وجهات بعض قصور جُدة مزينة بها ، وإلى جانبها هذه النقوش الفنية التي تحلى بها بعض أبواب المنازل ورواشينها وبعض الجدران .

هذا وقد روى أيوب صبري باشا — كما أسلفناه — أن السيد عمر السقاف حينما بنى قصره المنيف في الكَنْدَرة جلب له مزخرفات هندية وصينية خاصة [1] .

* * *

ومن الفنون الجميلة فَنّ التطريز ، وقد كانت النساء في جُدّة يقمن بتطويز يدويّ للملابس والفُرُشِ بألوان من الخيوط الحريرية والذهبية والفضية وبالترتر وغيره .

وقد دخل فَنّ الرسم إلى مدارس جُدّة حكوميةً وأهليةً ، وهو أمرٌ نأمل أن ينتج لنا رسامين فنيين وفنياتٍ كباراً ذوي مواهب ممتازة .

* * *

ومن الفنون الجميلة الحديثة بِجُدّة « فَنّ التصوير الآلي » . وأول دخوله كان في عهد الأتراك . حدّثني الشيخ محمد نصيف بأنه في سنة

---

[1] مرآة الحرمين باللغة التركية لأيوب صبري باشا .

١٣٠٠ هـ ، أخَذَ رَسْمَهُ وهو ابن ستة أشهر ، المستشرقُ الهولندي « سنوك هرجرونه » الذي كان يومئذ نزيلَ جُدة قادماً اليها من مصر . وكان ذلك برغبة من الشيخ عمر نصيف جد الشيخ محمد لأبيه . وهذا يدل على أن الرسم الفوتوغرافي كان معروفاً بجُدّة في مطلع هذا القرن الهجري ، كما يدل على أنه كان وقتئذ مقصوراً على الافرنج من نزلاء هذا البلد ، وخاصة دُور القناصل بها .

آثار وادي بويب

في وادي بويب ، بقرب جدة ، وإلى الشمال الشرقي منها على بعد نحو ١٥ كيلومتراً ، عثر على نقش ثمودي ، نصه وتفسيره كما يأتي حسب ما ورد في كتاب : « من الساميين إلى العرب »[١] لنسيب وهيبه الخازن :

الاصل	التفسير باللغة العربية الواضحة الآن
هكهل اثمن ورد	يا كاهل (اله) اجعلني كاملا سلام(ود)
شمل اكه التبب فلل	رسول التباب ذهب (فل)
هارضوٴ سمع لملوك هاولت	يا رضى اسمع لملوك الرئيس (ورضى اسم صنم معروف في عهد الجاهلية الأولى)
هسكت بن يشعى بت	هنا ساكت بن يشعن بات ليله
محل حب مت	محل حب ماوات

١ ص ١٦١ ، طبع مطبعة الحياة ببيروت ١٩٦٢ م .

حممت جمأت جمأت أصيب بالحمى[1] .

(وجمأت – على ما أرى – اسم « جمعة » و « حممت » أي أصيب بالُحمّى ، ولم يدغم كاتب النقش الميمين في بعضهما ، لأن ذلك لم يُعرف في الكتابة بعد . وقد تكون جمعة امرأة كاتب النقش لأنه أنث فعل الماضي : (حمت) .. وهذا خلافاً لما رآه الشيخ نسيب وهيبة الخازن من أن (جمأت) اسم رجل .

١ انظر كتاب من الساميين الى العرب .

عسير
ملامح وآثار

عسير

لعل أقدم مرجع عربيّ عُنِيَ بعسير هو كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني . ولكِنّهُ لم يذكر عسيراً على أنه اسم لمنطقة أو إقليم كما هو موضوع بحثنا .. وإنما أورده على أنه اسم لقبائل عربية متساكنة .

يقول : «ثم يواطن حزيمة من شآميها ، عسيرٌ : قبائل من عنزة». ويحدد لنا مَواطِنَ هذه القبائل فإذا بها لا تخرج عن مواطنها الحالية تقريباً فيقول : «فأوطان عسير إلى رأس تية ، وهي عقبة من أشراف تهامة .. وهي أبها ، وبها قبر ذي القرنين فيما يقال .. عثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة[1] .

ويفيدنا فؤاد حمزة بأن «عسيراً» كاسم جغرافي ، هو اصطلاح حديث جداً ، يعود إلى نحو ١٥٠ عاماً خلت فقط . أما هو كاسم لقبيلة أو لحلف قبائل فقديم جداً .. والأصل في الاصطلاح الجغرافي هو إطلاق اسم القبيلة على البلاد التي تسكنها فيقال : بلاد عسير ، ثم أهملت النسبة ، واشتهرت البلاد باسم (عسير) . وقال : إنها كانت في العهد العثماني متصرفية ، وقال : إن قبائل عسير تعود إلى أسلم على خلاف في ذلك .

---

١ صفة جزيرة العرب ، ص ١١٨ ، طبعة مصر ١٩٥٣ م .

ويعطينا الهمدانيّ مواطن قبائل عسير وقد عـــد منها العشر التالية اسماؤها : الدارة ، وأبها ، والحللة ، والفتيحا ، فحمرة ، وطبب ، فأتانة ، والمغوث ، فَتَجُرُشَة ، فالايداع . ويضيف إلى ذلك قوله : « أوطان عسير من عنز ، وتسمى هذه الأرض طَوْداً » كما عدد غيرها من مواطنهم الكثيرة [1] .

وتقع مواطن عسير على ضفاف أودية منها : الدارة ، والفتيحا ، واللصبة ، والملحة ، وطبب ، وأتانة ، وعبل ، والمغوث ، وجرشة ، والحدبة » [2] .

وتدلنا إقامة القوم على ضفاف الأودية الجارية على أنهم كانوا يبتغون من وراء ذلك تأمين « لقمة العيش » ، إذ على شواطئ هذه الأودية ، يمكنهم إيجاد مزارع القمح والذرّة والشعير والفواكه والبقول والخضراوات التي تقوم بغذائهم وكسائهم .

وعَسِيرٌ — القبائلُ والموطنُ — هما في سلسلة السّراة التي هي الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن ، وتشرف على البحر الأحمر من المغرب وعلى نجد من المشرق . وتحديد هذه المنطقة بالدقة كما يصفها رحالة مشاهد هو : أنها (تتألف من الجبال والأودية والسهوب الواقعة بين أعلى سراة الأزد في الغرب ، وبلاد قحطان في الجنوب ، وبالأحْمَرِ وبالأسْمَرِ في الشمال) . وبعبارة أخرى هي البلاد الواقعة بين جبل تمنية وعقبة القرون ووادي دكان الممتد إلى « الحقو » بالبحر ، من جهـــة الجنوب . وبلاد بني شعبة وربيعة باليمن ، ورجال ألْمَع ووادي حلي من جهة الغرب ، وعقبة شعار ووادي (تَيّة) والسهب الممتد إلى

---

١ ص ١١٨ من نفس المصدر .

٢ ص ١١٨ من المصدر السابق .

بلاد بَلأحْمَر من الشمال ، وسلسلة الهضاب والسهوب المتصلة ببلاد شهران ، من الشرق . وإذا قيست المسافاتُ بالساعات للمشاة ، كانت المسافات من (شعار) في الشمال ، إلى (تمنية) في الجنوب ، ثلاثاً وعشرين ساعة بالمشي السريع .. والمسافةُ من الشرق إلى الغرب ، تقرب من المسافة التي من الشمال إلى الجنوب وهي بين أبها وبلاد شهران تبلغ (٣٥) كيلومتراً . وعلى هذا الاعتبار تكون بلاد قبيلة عسير عبارة عن بقعة من الأراضي الجبلية يبلغ طولها ١٥٠ كيلومتراً وعرضها ٤٠ كيلومتراً على وجه التقريب [١] .

* * *

ومنابع أودية عسير العشرة هي من عقبات عسير الجبلية .. فلولا العقبات العالية ما تكونت الأودية الفياضة إلى السهول . وتبلغ (٢٤) عقبة .. وهي ما بين رئيسية وفرعية . واتفق الهمداني وفؤاد حمزة في تعداد أودية عسير . . لقد عدّاها لنا عشرةَ أودية . ومنها بعض ما ورد عن الهمداني اسْمه ، ومنها ما هو مختلف عنه ، وهو الأكثر فيما أورده فؤاد حمزة .

يقول فؤاد حمزة : إن أودية عسير هي : وادي خبيبي ، ووادي الملاحة ، ووادي أتانة ، ووادي طبب (وقد أوردها الهمداني) ، ووادي جوجان ، ووادي ضلع ، ووادي مربة ، ووادي عتود . وقال : إن الحقيقة أنهما واديان : أحدهما شرقيّ والآخر غربي ، وكلاهما ينبع من عقبة عتود التي كانت مسكن الأُسُودِ في شبه جزيرة العرب [٢] .

وتبلغ قرى عسير اثنتين وثلاثين قرية بعد المائة .. وهي متصلة

---

١ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، من ص ٨٨ إلى ٩٠ .

٢ المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

ببعضها بحيث يرى المسافر القرية تلو القرية طيلة رحلته في ربوع عسير .. وقدر عدد سكانها بمليون ونصف المليون ، ولربما كان هذا التقدير لا يخلو من مبالغة . والإحصاء الصحيح للسكان تُعنَى به الحكومة ، لما لمست من مزاياه . وأغلب السكان شافعيو المذهب وتوجد قلة منهم حنبليون . والمرأة سافرة في القرى والبوادي .. عاملةٌ مُجِدّةٌ .. ويستعملون في لباسهم جُلُود الحُمْلانِ : (صغار الضّأن) المدبوغة المخروزة ، وفي تِهامةِ عسير تغطي النساء رؤوسهن بالطفشة ، وهي قبعة من خوص .. ونساء الحاضرة في جبال عسير يستعملن الخمار على رؤوسهن ، وتلبس الأبكار قبعةَ خوصٍ مصنوعةً من القماش .

والعسيريون يلبسون القمصان المجنبة البيض ، ونساؤهم يلبسن هذه القمصان حمراً وسوداً فقط . كما يرتدين العباءات الثمينة ويتحلين بالدمالج والخلاخل ، وبالخواتيم والعقود ، وبالأساور الذهبية والفضية [1] . ومن الجلد مضفور تستعمله النساء كالحزام .. ومن عجب أن هذه « النسعة » وبهذا الاسم نفسه يستعملها رجال قبائل حرب وأطفالهم في جنوب المدينة المنورة بينها وبين رابغ ، كما يستعملها رجال جنوب مكة من بعض القبائل كقبيلة هذيل ، وهي تستعمل في عسير للنساء فقط بالاسم نفسه .. وتلبس ربيعة (الْفُوَطَ) ويتقلد رجال عسير خناجر طويلة تسمى الواحدة (جنبية) . وأكبر خناجرهم ما يلبسه رجال ألْمَع . ومعظم نساء هذه القبيلة يخرقن آذانهم لتحليتها بالزِّمام . ومن ملابسهم كذلك « السبتة » وهي حزام من جلد منقوش مخروز تتمنطق به النساء فوق أثوابهن . و « المكفة » قطعة جلد بشكل إكليل تضعها النساء فوق رؤوسهن ، و « إكليل » من الحسف والأعشاب البرية العطرة كالشيح ليمسك الشَّعَرَ عن تلاعب الريح به . و « الشّملة » عباءةٌ من الصوف

---

١ تاريخ عسير للنعمي ، ص ٦٢ .

قصيرة جداً ، تُطرح على الكتفين ، وهي لباس الأغنياء [1] .

* * *

أما وقد ذكرنا « الملابس » ، فبقي أن نذكر « المطاعم » . إن طعام العسيريين الرئيسي الوطنيّ هو « البُرّ » و « السّمْنُ » وكلاهما من انتاج بلادهم . واللّحْمُ مقامه في الأعياد والمواسم والضيافات . والفاكهة والخضراوات وجودهما كعدمهما .. وهناك طعام العَرِيكَةِ أهم الأطعمة وأعمّها . ونوع آخر من الخبز يُسَوّى على النار في « الطابوق » أو في إناء ثم يُصَبّ عليه السمن والعسل ، أما اللحم السليق فيقطع إرباً [2] .

وفي عسير آثار مطمورة ، وآثار ذكرها لنا المؤرخون .. ومنها الكهف الذي يحوي جُثث أربعة أموات قدامى ، أحدهم رجل ضخم الجثة جداً . ويوجد هذا الكهف المجهولُ الأجدثِ في غارٍ بالشرحة : جبلٍ شامخ ، يفصل بين تمنية وتهامة ، وفي قمته يقع الغار المسكون ، وقبر ذي القرنين الذي ذكرنا أن الهمداني قد ذكره بِأَبْهَا . ومع أن فؤاد حمزة عد هذا من باب التخريف إلا أن عمر رفيع ردّ عليه وأبدى أن ذا القرنين هذا الذي يقال إن قبره بأبها هو غير ذي القرنين الاسكندر المقدوني اليوناني .. إنه عربي صميم من أهل هذه الدارة [3] . ومن رأيي أن أنقاض البناء التي أخذ رسمَها عمرُ رفيع في كتابه ، هي انقاض لبناء مستجد في عهد الإسلام ولا يرتقي إلى عصر ذي القرنين مطلقاً ، وإنما بُنِيَ في عهد انتشار الاعتقادات الخرافية في عصور

---

١ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، ص ١٢٧ .

٢ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، ص ١٢٧ و ١٢٨ .

٣ ص ٤٤ من كتاب في ربوع عسير ، لعمر رفيع .

التأخر والجمود . وقد أقامه بعضهم بَعْدَ ما شاع أن قبر ذي القرنين كان هنالك ، بدليل وجود مسجد بجوار الأنقاض ، وبدليل هدم الضريح من عهد ليس بالبعيد ، وليس من المعقول أن يبقى بناء قبر ذي القرنين القديم على حاله إلى يومنا هذا حتى يُهْدَم . فليس في جزيرة العرب بناء قائم على حالته – فيما أعْلَمُ – منذ ذلك العهد مطلقاً سوى ما في مدائن صالح [1] ، ولا بُدّ أنه توجد آثار مطمورة أو مجهولة في تلك المنطقة الخصبة المعروفة بالازدهار من قديم الأزمان . والتنقيب العلمي الرصين كفيل بإظهار الحقائق الكامنة .

* * *

وبعسير ثروة زراعية وحيوانية .. فمما يُزرع بها ويجود ، أنواع الحبوب : كالدخن ، والذرة ، والقمح ، والشعير ، والقطن . والزيتون البري منتشر هنالك ، وهو بحاجة إلى التلقيح ليثمر ، وقد أخذت الجهات المختصة تُعْنى بذلك ، ومن مشهور حبوبها حَبّ الْهَمِيسِ [2] الذي كان يجلب بكميات وافرة إلى أسواق الطائف ومكة إلى عهد غير بعيد . ومن ثروتها الزراعية غاباتُ العرعر . والعِسل كثير بها .. ولاشتغال أهلها بالزراعة كانت البادية الرّحّلُ قِلّةً بينهم .

ومن ثروتها الحيوانية الْمَعْزُ والأبقار والإبل والحمير ، وقد شاهد عمر رفيع إبلاً صاعدة في عقبة كؤود بكل مشقة ، وصاحبها يساعدها بدفعها على السير إلى أعلى . وبعسير ، النمور وأنواع الثعابين ، والطيور المغردة ، وكان بها الأسودُ في عقبة (عتود) .

* * *

---

١ ولعل سبب ذلك أن بيوت مدائن صالح منقورة نقراً في الجبال وليست بناء بالمعنى المعتاد في البيوت .

٢ أي قمح الهميس ، ويمتاز بصفرة اللون وضخامة الحبات .

وفيها معادن ، كمعدن التِّبْرِ بجبل (ضَنْكَانَ) من أعمال القحمة [1] . ويصفه الهمداني بأنه معدن غزير لا بأس بتبره . ومعدن جبل (تهلل) الذي يرتفع عن سطح البحر بـ (٢٨٧٥) متراً ، ويقع إلى الشمال من قرية السَّودَة ، وهو معدن حديد . وكان صناع عسير يستخرجونه بِطُرُقِهِم البدائية ، ليصنعوا من حديده أدواتهم المنزلية والزراعية وغيرها ، ولا تزال آثار المصانع بقرية السودة موجودة لليوم [2] . ويَبْعُدُ جبلُ تهلل عن أبها ، عشرين كيلومتراً ، إلى الغرب منها ، وفيه ينابيع جارية في الصيف والشتاء . وارتفاعه أحد عشر ألف قدم [3] .

ولم يُورِد رشدي ملحس هذا المعدن في كُتَيِّبِهِ الموجز : « بحث المعادن » .. لقد كان تأليفه له وطبعه قبل ظهور كتاب « في بلاد عسير » لفؤاد حمزة ، وكتاب « في ربوع عسير » لعمر رفيع بنحو ربع قرن . وهما اللذان قاما برحلتين إلى بلاد عسير وجابا مدنها وقراها وجبالها وكتبا عنها معلومات أوسع ، مبنية على المشاهدات والمسموعات .

وفي عسير مَنَاجِمُ أخرى للحديد والرصاص والمركبات الكبريتية والنحاس . ويوجد الملح الصخري في سفوح عسير الغربية . وفي فَرَسَان على سواحله مكامنُ النفط ، ومعدن الاسمنت . وفي أطراف جازان مَمَالِحُ صخرية ثمينة . وفي رفيدة ، معدن للحديد يستخرجه الأهلون بالفؤوس . وفي الصليف معدن الملح . ويوجد معدن للنحاس قرب سوق الاثنين . وأكثر الجبل هناك يُرَى وهو يلمع صفرة ، وترابه

---

١ تاريخ عسير ، ص ٦١ .

٢ تاريخ عسير في الماضي والحاضر . لهاشم بن سعيد النعمي ، ص ٦١ و ٦٢ ط. مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر .

٣ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، ص ١١٣ و ١١٤ .

أصفر بَرّاق [١]

* * *

هذا وللعسيريين لهجة خاصة بهم ، في نبراتها وبعض تعبيراتها . وفيهم طمطمانية وكشكشة وينطقون بأم بدلاً من (أل) ، ولا ينطقون بالجيم . انهم يبدلونها بالياء . ويقولون : « كيف حالُش » بدلاً من « كيف حالُكِ » . و « إيش بِشِ » بدلاً من « إيش بِكِ » ، و « امْكتَاب » بدلاً من « الْكتاب » . والمعز في لهجتهم اسمه (زعابة) و (أرِيدُ) عندهم هي (ميدي) . ومن أناشيدهم البلدية :

يا عسير امهول ما هذي القضيه   ودِّنَا نجران نهب له سريه

يريد : يا عسير الهول ما هذي القضية ....

ويقولون : « صليت في المسيد » أي في المسجد . ويقلبون النون راء : « محمد بر يعقوب » أي « ابن يعقوب » ، « فاطمة ابرة سالم » أي « ابنة سالم » . ويقلبون الظاء والضاء لاماً : (فَاتَ اللّهر) أي « الظّهر » وهي لهجات عربية قديمة .

* * *

ونرى أن تاريخ عسير ينقسم إلى ثلاث صفحات : صفحة مجهولة إلا من أخبار ، بعضها خرافيّ إن لم يكن جلها وهو ما كان في عهد الجاهلية . وصفحة معروفة معرفة غير مستوفاة من جميع النواحي ، وهذه الصفحة تتمثل في صدر الإسلام وما بعده .. فقد أسلم جماعة من العسيريين ، ودخلت عسير كلها في حظيرة الإسلام في زمن الرسالة ، وسار بعض رجالاتها في جيوش الفتوحات الإسلامية ،

---

١ بحث المعادن ، من الصفحة ٧٧ إلى ص ٨٠ .

وأهل عسير معروفون بالشجاعة ، وكان منهم العلماء والأدباء والشعراء .. ونالهم أول الأمر قسط من الاستقرار بعد ذهاب غبيّة عصر الجاهلية والقبلية الطائشة ، ثم دخلوا في فوضى النزارية واليمانية ، واستنفدت — أخيراً — طاقاتهم الحروبُ المتواليةُ الداخلية والخارجية ، وأكلتهم الفتن ، في عهود الفوضى بدول الإسلام ، بعد انقضاء العصر الذهبيّ ، وتفشي الجهل فيهم ، وانضمت بلادهم ، إلى الغزاة الفاتحين في شرق وفي غرب .. انضموا تارة إلى الحجاز ، وتارة إلى الاتراك ، وتارة إلى غيرهم ، على ما هو مفصل في كُتُبِ التاريخ .. وما حظوا بالاستقرار والاطمئنان إلا في عهد الحكومة العربية السعودية . فقد نظمت في عهدها شؤون الادارة ورتبت ، وأرسلت الهيئات لتأمين مشروعات الإصلاح في ديارهم . وعُبِّدَتْ طرقهم الوعرة فتنفسوا الصعداء ، وأصبحت السيارات تشق عقباتهم الكأداء العالية بعد أن كانت الحمير والجمال تُرْهَقُ بصعودها وعبورها .

والآن عاصمة المنطقة هي (أبها) المدينة العروس الجميلة . وقد اتسع عمرانها ، وأدخلت اليها وسائل المعرفة والتقدم ، شأنَ المدن والقرى الأخرى بالمنطقة ... كما أنشئ مطار حديث في مدينة (خميس مشيط) مما سهل المواصلات براً وجواً إلى ربوع عسير ، بعد أن كانت (شبه مغلقة) بسبب وعورة طرقها ووعورة مسالكها .. مما دعا بعض الباحثين إلى أن يقرن بين اسم (عسير) الذي يطلق عليها ، ومسماها من هذه الناحية .

* * *

الآثار

شمال البلاد العربية السعودية

رحلة الشمال

بدء الرحلة

في الساعة الثالثة والربع من يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ــ٥ــ١٣٨٢ هـ ، بدأت الرحلة ، من المدينة المنورة حتى تيماء .. وكان رائد الرحلة ، هو السيد حبيب محمود أحمد ، وكان الزملاء هم : السيد أديب صقر ، وأسعد خليل ، وأسعد شيرة ، وعبد العزيز خليل ، وحسين كاتب ، ومحمد أبو عيد الحيدري ، وعدنان حبيب وكاتب هذه السطور .

وكان السائقون هم : حمد بن حسن الدوسريّ ، وناجي حامد .

وكان الطاهي هو نعمة الله البخاري .

اثنا عشر شخصاً كانوا قوام الرحلة الشمالية .

وقد قام رائد الرحلة بإعْدَادِ ما يلزم لهذه الرحلة وكانت السيارات ثلاثاً : صغيرتين ، وونيتا ، وقد أصْلِحَت الصغيرتان وكُشِفَ عليهما مبدئياً حتى تقرر صَلاحهما للسفر البعيد المدى ، وملئتا بالنفط والماء . والْونَيتُ الذي يعتبر بحق (جَمَلَ أحمال الرحلة) قد أصْلِحَ هو الآخر ، وَهُيِّءَ له « عَجَلَةٌ جديدة » وملئ بالنفط في خزاناته الواسعة

الثلاثة التي تسع ما شاء الله أن تسع من النفط .. كما مُلِيءَ خزانـاه الكبيران اللذان يسعان ما يشاء الله أن يسعا — بالماء النمير ، استعداداً للرحلة الطويلة المدى .. كما أنه قد شُحِنَ بأصناف الزاد من أرز وسمن وخبز ولحم وسكّر وشاي ونُقُلٍ وفواكه وصابون .

ولم يكتف بذلك الونيتُ ، بل حَمَلَ على ظهره جميع أفرشتنا ، وجميع لوازم رحلتنا من أوانٍ وأباريق وقِرَبٍ وثلاجات وزمزميات .

كانت رحلةً مرتبةً ، مقدراً فيها كل شيء تقديراً حسناً .

وكان الفنيون منا ذوي استعداد ومواهب حساسة لتلافي كل ما يحدث من خراب هذه السيارات .

وكان الرفاق منسجمين فرحين مغتبطين في قرارات أنفسهم ، بهذه الرحلة الموفقة ، في أصحابها وفي مكانها ، وفي زمانها ، وفي موضوعها. فقد كان الوقت ملائماً مقبولاً .. فالصيف قد انسلخ إهابه ، وولت وَقْدَته ، وأدبر سَمومه ويَحْمُومه ، والبَرْدُ لم يقدم بَعْدُ قارسه، ولم يركب فارسُه ، ولم ينتشر زمهريره في الآفاق . والمكان الذي نقصده أثري هام .

وتسجيلاً لمعالم الرحلة .. أخذ أحَدُنا — أسعد شيرة — آلة تصوير معه .. لتصوير ما يحلو لنا أو يبدو لنا أن نصوره من معالم الرحلة ، مما قد نشاهده في خيبر ، أو في تيماء ، أو قبلهما ، أو بينهما ، من معالم وآثار ومناظر ..

وفي الوقت المحدد كان رَتَلٌ مؤلف من ثلاث سيارات : صغيرتين وونيت .. مستعداً . وإحدى هذه السيارات الثلاث صغيره من نوع (الأولدزموبيل) وهي بيضاء موشحة باخضرار ، وهذه هي السيارة « القائدة » .. ووراءها السيارة الصغيرة الأخرى الحمراءُ المطرزة بالسواد

وهي من نوع الفورد ، ومن ورائها سيارة الونيت الحمراء اللون ، من نوع الفورد أيضاً ..

بدأ هذا الموكب الصغير سيره من المدينة صوب المشرق ، على الخط المسفلت الناحر مبدئياً لمنطقة المطار ، في « الحِفْنَةِ » بشرقيّ المدينة . وقبيل المطار أشار رائد الرحلة بأن نوقف سياراتنا كيما تتزود من (محطة رشوان) الماثلة في الخط القائم قبيل المطار .. وقال : إن هذا جارُنا ، فما علينا إلا أن نملأ أوعية سياراتنا من نفط محطته .. وكذلك وقفت السيارات الثلاث واحدةً تلو الأخرى في نظام يوحي بالروعة والانسجام ، وعبئت بمادة النفط ، حتى فاضت خزاناتها جميعاً .. وكان هذا الصنيع من باب « الاحتياط » وإلا فإن لدينا في خزانات سيارة الونيت ما يكفي لإيصالنا إلى مشارف الشام ، على ما أعتقد ، بيسر وسهولة .

وبعد أن شربنا الماء ، امتطينا سياراتنا ، وسارت في طليعتها « السيارة القائدةُ الرائدةُ » التي يمتطيها كل من : السيد حبيب وكاتب هذه السطور ، ومحمد عيد الحيدري والسيد عدنان حبيب ، مؤذنة ببدء الرحلة على بركة الله .

وسرعان ما التوى بنا الطريق ، من شرق إلى شمال .. بين جبال حُمْرٍ ودُكْنٍ ، وبين طَلَعَاتٍ ونَزَلاتٍ ، ومرتفعات ومنخفضات ، وبين أودية وسهول .. وكانت سياراتنا تنساب انسياباً محبباً سريعاً رشيقاً بين هذه التلال والوهاد ، وتمر بنا الأشجار والأعشاب والأنام مرّ السحاب . وكان الإسفلت جديداً وقوياً متماسكاً ، وكان لا يخلو الطريق المفروش به من ضيق ، وكانت الأودية تتخللها أشجار السّلَم وشجيراتُ الرِّمْثِ ، إلى جسور من مادة الإسمنت شيدت فوق ممرات السيول الجارفة .

وبعد هنيهة رأينا أنفسنا نمعن في السير إمعاناً ، ورأينا الجبال تضيق

علينا الآفاق ، حتى لكأنها تريد أن تمد أصابعها إلينا أو إلى هذا الخط الرقيق الممتد بينها كالأفعى .. وبعد أن سرنا نحو عشر دقائق أفضى بنا المسير إلى وادٍ فسيح جميل : « وَعِيرَةَ » تتناثر فيه شجيرات السَّلَمِ ، ويشقّه الطريق من وسطه ، وقد تباعدت عنا بعضُ الشيء الجبالُ الدُّكْنُ المتراصة من يمين ومن شمال ، وشاهدْنا في هذا الوادي الجميل ، الجِمالَةَ الصُّفْرَ ترعى شجر السَّلَم مادة بأعناقها المديدة اليه فكأنها أشجار ترعى أشجاراً .

وشاهدنا تلاً مرتفعاً جداً ، أمامنا ، يعلوه الطريق المسفلت ، بهندسة محكمة .. وكدنا نعتقد أن امتداده عموديّ وليس أفقياً من شدة ارتفاعه . وسرعان ما علته سياراتنا بسهولة فإذا بها تعدو فوق متنه ، ثم إذا بها تهبط منه إلى واد عميق ، بسهولة ويسر .

في الصلصلة [1]

وما زالت سياراتنا الثلاث مُهْطِعَةً بنا في نشوة واضحة ، وفرحة غامرة ، ونظام بديع في السير ، يتخلله حديث متواصل ، ونُكَت وأخبار ، ومذاكرات ومباحثات ، حتى قال القائل لنا : إننا الآن في منطقة الصلصلة .

وبعد هنيهة لاحظتُ أننا دخلنا في سهل أحمر اللون ، متسع الجوانب وتناءت عنا الجبال قليلاً ، وصغرت أحجامها عن ذي قبل وتكاثرت آجامُ السَّلم والطَّلْحِ أمامنا وحولنا .

---

[1] الصلصلة هذه غير الصلاصل التي بالعقيق والتي أنشأ فيها عروة بن الزبير بستاناً معروفاً له في سابق الحقب ، في جنوب المدينة المنورة .

وفي الساعة الخامسة والربع تماماً .. كان رَتلُ سياراتنا يقف بنا في مَحَطَّةٍ أوْ قَرْيَةِ « الصَّلْصلَة » .. ودلفنا إلى مقهى كان يقوم على يسار الطريق ، بعد أن تبينا أنه أنظف مقاهي المحطة ، ووقفت عنده السيارات ونزلنا منها ، فإذا صاحب المقهى يمانيّ وكان يستمع إلى مذياع يذيع أخبار اليمن وغيرها وهذا « المقهى » أرضيّ لا أثر فيه للكراسيّ، وإنما هنالك في داخله خسف مفروش مستدير ، فجلسنا عليه ، في شيء من مضض ، فهذه حالة لم نألفها من قبل في المقاهي ، وطلبنا الماء والشاي وشربناهما على عجل .

وهذه الصلصلة لم أجد لها ذكراً في التاريخ .. وإنما هناك (الصلصل) والصلاصل وهي (على ما يبدو مما ذكره صاحب « وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى ») من الأودية أو الأماكن التي تقع جنوبَ المدينة المنورة لا شَمالَها .. كما هو حال « الصلصلة » موضع الحديث .

وعلى ذكر الصلصلة فهي قرية صغيرة ناشئة [1] ولها امير اسمه علي ابن نهود من قبيلة « الْعِقِدَةِ » أهل هذه المنطقة من قديم ، وأخوه هو مطوّع القرية وإمامها ، وقد بدئ في زراعة النخيل والبقول بالصلصلة ، وفيها حدائق ناشئة . وبالصّلصلة بضعة مَقَاهٍ ، وبضعة منازل ، بعضها مبنيّ باللَّبِنِ النّيْ ، وبعضها بالإسمنتَ ، وأفضل عماراتها مَبْنَى أميرها .. فهو أبيض ناصع البياض ، واسع الأرجاء ، وقد بني بالاسمنت وهو من دَوْرٍ واحد .

وماءُ الصلصلة عذب فرات ، قريب من سطح الأرض جــداً . . حتى لكأنه من « الاحساء » . وقيل لنا إنه هاضم للطعام ، وإنه صحّي، حسب ما قرره طبيب جاء إلى هذه الناحية قبل مدة من الزمن .

* *

---

١ تتبع إمارة الصلصة إمارة المدينة المنورة الآن .

وقد أقبل علينا أمير الصلصلة ، محيياً ، وأقبل معه أخوه الأكبر منه سناً ، وهو مطوع القرية ذو اللحية الكبيرة المصبوغة بالحناء ، وذو الوقار والهدوء .. وقد هم الأمير بأن يستضيفنا ، ولكننا اعتذرنا له بشتى الأعذار ، فقبلها بعد لأي .

وستصبح الصلصلة — إن سارت الأمور على هذه الوتيرة — إحدى متنزهات المدينة المفضلة ، لطيب مناخها ورقة هوائها ، وعذوبة مائها .. ولقربها من المدينة الآن بهذا الخط المسفلت وبالسيارات التي ترتادها بسهولة ويسر .. وقال لنا أميرها فيما قال : إنها كان بينها وبين المدينة قبل مدّ الاسفلت ، خمسةُ أيام ذهاباً ، ومثلُها إياباً ، وربما كان ذلك على الجمال .. أما اليوم فكل ما بينها وبين المدينة هو (١١٠) كيلومتر ، تجتازها السيارة الصغيرة في نحو ساعة ونصف ساعة من الزمان .. وقال لنا أيضاً : إنه فيما قبل العهد السعوديّ كان البادية يغيرون عليهم في الصلصلة وتحصل مذابح بينهم .

والصلصلة واد فسيح مستطيل ، يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وتحفّ به حرّتان ، من شرقه ومن غربه .. ومثله في هذا ، قرية خيبر ، وفي الوسط منه في مكان مرتفع ، تقع قرية الصلصلة الصغيرة الناشئة .. ومثله في كل ذلك قرية الصويدرة الناشئة ، فان واديها تحف به الحرة من غربه ، والقرية في مكان مرتفع .

وبالصلصلة ، كما قيل لنا — (١١٠) آبار ، كلها قريبة الماء من سطح الأرض ، ولا ينضب ماؤها في صيف ولا في شتاء ، مهما يُنْزَحْ منه .. وبها مضخات ماء زراعية .. وشجر السلم والطلح متناثر فيها بكثرة كسائر أجزاء هذه المنطقة الشمالية حتى مبتدأ منطقة تيماء ...

وبالصلصلة ، يوجد إلى جانب بيوت اللبِن والاسمنت ، بيوتُ الشعر يسكنها البادية .

الى خيبر [1]

وبعد أن استعدنا نشاطنا في الصلصلة ، امتطينا سياراتنا ، وسارت « السيارة القائدة الرائدة » أمامهن ، تتبختر على الطريق المسفلت وتَدْلُفُ بسرعة فائقة ..

– إلى أين أيها الركب المسرعون ؟

– إلى خيبر !!

وخيبر بلد أثريٌّ له تاريخه القديم في جاهلية وفي إسلام .. ويقول « معجم البلدان » : إنها سميت ، بخيبر بن قانية بن مهلائيل بن إرم ابن عبيل ، وعبيل أخو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وهو عم الربذة وزرود والشقرة [2] بنات يثرب ، وكان خيبر المذكور أول من نزلها .. على قول ياقوت الحموي . وبلدة خيبر موصوفة بالحُمّى ، بسبب المستنقعات المنتشرة فيها قال شاعر :

كَأَنَّ بِهِ إذْ جِئْتَهُ خَيْبَرِيَّةٌ
يَعُودُ عَلَيْها وِرْدُهَا ومَلالها

ويلاحظ أن الشاعر وصف الحمى بقوله : (خيبرية) من غير أن يسميها لأنها معروفة في أوساط العرب .

وتقول دائرة معارف بطرس البستانيّ : إنّ حيبر ـت في الزمان القديم للعمالقة ، ثم صارت لبني غرة بنِ أسد بن ربيعة ، وهي الآن

---

١ تتبع إمارة خيبر إمارة حائل ، منذ أسست الحكومة السعودية حتى الآن . وكانت تتبعها من قبل . راجع قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٦٨ .

٢ الربذة ، وزرود والشقرة أسماء مواضع حول المدينة لها ذكر في تاريخها وقد شاهدت بعضها في إحدى رحلاتي .

لبعض البادية من عَنَزَةَ ، وأهلُها أمشاج من الناس . وهي على ثمانية بُرُدٍ من المدينة[1] لمن يريد الشام ، وتشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخلٍ كثير . وأسماءُ حصونها : حِصْنُ ناعم ، والقموص حصن أبي الحقيق اليهودي ، وحصن الشق ، وحصن النطاة ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة ، وحصن السّلاَلِم . وقد غزاها النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع أو ثمان للهجرة في ١٤٠٠ رجل ، معهم ٢٠٠ فارس ، وافتتحها ، وأقر اليهودَ على قيامهم بالنخيل ، وعاملهم على الشطر من التمر والحَبِّ ، فلما كانتِ خلافة عمر رضي الله عنه ظهرت منهم الفاحشة وعبثوا بالمسلمين ، فأجلاهم عُمَرُ إلى الشام .. وقد فعل ذلك لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » .

وقد كان حصنُ السلالم آخِرَ حصن فتحه الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوته لخيبر ، وقد خرج منه مرحب اليهودي وهو يقول :

قد علِمَتْ خيبرُ أني مَرحبٌ أطعن أحياناً وحيناً أضرب
شاكي السلاح بطلٌ مُجَرِّبُ إذا الليوث أقبلت تلتهبُ
كان حِمايَ كالْحِمَى لا يُقربُ

ويبدو لي أن حصن السلالم المعروف بحصن مرحب إنما دُعي بهذا الاسم لوجود هذه السلالم الحجرية والتي لا تزال به ويصعد اليه منها وينزل منه بها وهي كثيرة لأن الحصن يقع على قمة الجبل .

وسارت بنا السيارات في هذا الطريق اللاحب المسفلت صوب خيبر ، تبعد عنا ومن ورائنا اثنتان من سياراتنا ، تارة ، وتقربان تارة . تبعدان إذا أغذذنا السير ، وتقربان إذا خففناه .. وقد اجتزنا وهاداً وأنجاداً ،

[1] بينها وبين المدينة على خط الأسفلت ١٦٠ كيلومتراً .

وتباعدت عنا الجبال ، وكانت منطقة الطريق منسجمة في طبيعتها مع طبيعة منطقة الصلصلة ، حتى إذا قربنا من وادي الدَّوْم » شاهدنا تغيراً في معالم الأرض ، فهذه منطقة حِرارٍ محترقة .. إذن لقد دخلنا مشارف خيبر . وخيبر كما نعلم تقع بين حِرَارٍ .

في وادي الدوم *

دخلنا وادي الدَّوم أو أودية الدوم ، فهي أودية وليست وادياً واحداً .. والدَّوْم هو نخيل هذه الأودية .. والدَّوم شجر من فصيلة النخيل ، يشبه النخيل في الشكل العام ، ويختلف عنه في الثمار ، فثمار الدوم كِبار ، ونواها أكبر من ثمارها . والثمار عبارة عن لحاءٍ داخليٍّ يقع بين النواة الكبيرة والقشرة الخارجية .. وهو أبيض مائل إلى الصفرة وهي حمراء دكناء عليها شيء من البريق إذا نضجت .

أما ثمار النخيل فبالعكس من ذلك .. وقال لنا السيد أديب صقر : إن جذوع الدوم لا تكاد تبلى ، ولا يلحقها السوس بأذى ، مهما يَطُل عليها الأمد .. وقال السيد حبيب : الآن فهمتُ لماذا أَوْقَفَ بعضهم شجر الدَّوم على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادي الصويدرة — وادي الترعة — وذلك لِتُبْنَى سقوفُه من جذوع الدوم . فلا يلحقها سوس أو خراب أطول أمد ممكن .

ولوادي الدَّوم هذا ، ذكر في التاريخ .

(*) وجدنا كذلك بعض شجر الدوم هذا في الصويدرة ، سنة ١٣٥٤ هـ، وجدناه متعانقاً في كتلتين أو ثلاث قرب مجرى سيل وادي الصويدرة صغيراً . وفي سنة ١٣٨٧ هـ وجدناه قد كبر كما هو مشروح في فصل (الصويدرة : عود على بدء) من هذا الكتاب .

ولقد رأينا ثمر الدوم متدلياً كَكُرات كبيرة ، فقررنا أن نأخذ معنا شيئاً منه من باب التذكار لهذه الرحلة في طريق عودتنا .. ولكنه لم يكن نضج .

في خيبر

ومضينا في طريقنا واكتنفتنا الحرارُ وضيقَتْ علينا خط سيرنا .

وفي الساعة السادسة والربع ظهر اليوم نفسه ، وصلنا مشارف خيبر ، وأشرفنا عليها من عَلُ ، وشاهدنا أبنيتها المتداعية المتهالكة . ورأينا أطلالها القديمة الشبيهة بالأطلال المماثلة ، في حرّة المدينة الشرقية .. وهنا جرت على الألسنة من الأفكار ذكرياتُ جهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ليهود خيبر ، وفتحه لحصونها المنيعة عنوة وصلحاً . ودخلنا خيبر ، فإذا منازلها حجريّة وطينيّة صغيرة ، وفي مدخل خيبر الوحيد توجد محطة نفط ، لصاحبها : عبيد القريّان ، وهي محطة لضخ النفط بالآلة الأوتوماتيكية ، على النحو المستعمل في كبريات مدن المملكة ..

وقرية خيبر واطئة جداً عما يحيط بها .. تحيط بها حرتان : شرقية وغربية ، وفي داخلها جبل عليه الحصن القديم الذي يُدْعى « حصن مرحب » وهو مقر الإمارة ، وهو أحد حصون خيبر القديمة .. وهو مبنيّ بحجارة منحوتة بدون ملاط ، كسائر أبنية المنطقة الشمالية الأثرية ، ولعل ذلك من عوامل بقائها إلى اليوم .. فالملاط يتفتت فتسقط الحجارة التي كانت متماسكة به ، أما إذا لم يوجد ، فالحجارة باقية على بعضها طيلة الدهور لا تزول ولا تحول .. ولا تسقط ولا تتحرك عن مواضعها

ما لم يحدث لها أو فيها ارتجاج كبير يؤثر عليها بالذات ...

وبجنوب خيبر جبل أحمر ، وبشمالها كذلك .. ومداخلها من ناحية الجنوب ، تتكون من أراضي طمي واسعة الأرجاء .. وحرتاها : الشرقية والغربية تذكراننا بحرتي المدينة : الشرقية والغربية .. وجبلاها الجنوبي والشمالي يذكراننا بجبلي أحُدٍ وعَيْرٍ . ومخرج خيبر من ناحية الشمال واطئ كذلك .

وقد أوقفنا سياراتنا على جانب الطريق العام المسفلت الذي يخترق قرية خيبر من طرفها الشرقيّ في الطريق إلى تيماء ، ودخلنا القرية مشياً على الأقدام ، لنشاهد معالمها من كثب ، ولنتفهم واقعها عن مشاهدة وعيان .. وكان أول ما أثار انتباهنا هو ما يدعى بحصن مرحب .. وقد اتجهنا اليه سالكين طريقاً أو زقاقاً كريهاً في منظره ومخبره ، متعرجاً ضيقاً ، تجري ببعض جوانبه أقنية ماء متعفن آسن ، من عين غـير غَدِقَة ، لهم ، هناك ، تقع في الناحية الجنوبية الشرقية من البلد ، وقد سَدَدْنا أنوفنا ، ونحن نجتاز بعض الأماكن ، مما نلاقيه من رائحة المستنقعات ، وضيق الأزقة وغبارها .. وسرنا حتى وصلنا مقبرة الشهداء وكانت مهملةً في مرتفع ضئيل من الأرض قبل حصن مرحب ، وتبدو عليها حجارة الشواهد متناثرة غارقة في الطين اليابس وبدون أية عناية ، وليس عليها سُورٌ ، إنها معرضة للمرور ، ولكل شيء .. ومما يُرْجى العناية به تسوير هذه المقبرة الكريمة حفظاً لها من الأذى .. كما صُنِع في غيرها من مقابر الشهداء في مكة والمدينة ..

ومن هناك تَوَجّهْنا إلى المسجد الذي قيل لنا انه مَبْنيٌّ على أرض المعركة — المعركة التي جرت بين الرسول عليه السلام ، واليهود في خيبر — وقد دخلناه وأخذنا له رسماً من الداخل .



حصن مرحب بخيبر مأخوذ من ناحية جنوب غربي الحصن ،
(يشير السهم إلى مدخل الحصن)

وهو مسجد مبني بطين ولَبِنٍ (بفتح اللام وكسر الباء) مستطيلُ الشكل ، وفيه محراب لا أثر فيه للزخرف ، وهو غير مُبَيّضٍ ، وليس له مِئذنة .

وتَأمّلْنا قصر مرحب من تحته .. فإذا به مُشَيّدٌ على جبل عال في وسط خيبر ، وهو مقر الإمارة اليوم كما قدمنا ، وبناء حصن مرحب — أو حصن السّلالم — كما هو اسمه التاريخي — بالحجارة المطابقة التي لا أثر فيها للملاط . ويبدو لي من شكله أن البناء الأصليّ هو ما كان أسفل من ناحية الأساس . أما ما فوقه من بناء فهو مستجد ، كما أن اللّبِنَ الذي هو فوق هذه الحجارة هو جديد بطبيعة الحال . . والحصن متآكل يبدو عليه أثر القِدم ، وهو من دَوْرٍ واحد ، ويُشْرِف على

خيبر ، كما تشرف قلعة سَلْعٍ على المدينة المنورة ، وحِصْنُ السموأل على تيماء . ولحسن الحظ أخذنا رسماً لأمير خيبر الشيخ عبد الرحمن الحمدان ورجاله وهم هابطون من القصر أو الحصن لصلاة الظهر في المسجد الذي سبق ذكره .

وقد تجولنا في أنحاء خيبر ، في أزقتها الضيقة الشديدة الضيق ، فهي من الناحية الأخيرة تشبه حالة منطقة القطيف حين زُرْتُها سنة ١٣٧٥ هـ ..

والناس في خيبر ضامرون واهنو القوى الجسمانية ، ولعل ذلك راجع إلى ما ينتابهم من حُمّى الملاريا : (البرداء) وهم بطبيعة اختلال صحتهم كُسَالى ، يمشون الهُوَيْنى ، متثاقلين ، ولا يَبْدُون في الأزقة إلا فرادى .. لعلم يفضلون النوم أو الاسترخاء في منازلهم ، في الفترات التي تعقب أو تسبق نوبات الحمى المعتادة لديهم .. حتى الموظفون الذين يقيمون بطرف خيبر الجنوبي الأعلى ، في منازل معدة لهم هي خيرٌ بكثير من الأخرى — حتى هؤلاء تبدو عليهم مسحة من عدم انتظام الصحة .. حسب ما يتراءى على سحناتهم وحتى النخيل تراه ضامراً هزيلاً متلاصقاً ، يبدو عليه أثر الضمور والهزال ..

وفي خيبر مدرسة حكومية ابتدائية لتعليم الصغار كانت منزل أحد المستشرقين ، على ما رواه فيلبي في كتابه : (أرض الأنبياء) ، وتتبع المدرسة وزارة المعارف .

وأبواب المنازل في خيبر لا بدّ من الحديث عنها .. إنها أشبه بأبواب الخزائن ، وهي تُصْنَعُ محلياً من جذوع النخيل ، بأن يُشَدّ بعضُ



أحد بيوت خيبر القديمة

هذه الجذوع إلى بعض ، وقد لا تتجاوز المتر والنصف طولاً ، والمتر عرضاً ، وهي تُقفَلُ بشكل عجيب ، فلها ضَبّاتٌ خشبية ، وفوق الضَّبَّةِ حبل من سعف مشدود به الباب أفقياً ، وفي وسط هذا الحبل عقدة مربوطة في خشبة عمودية .. عقدة لا نفهمها .. ولا ندرك مغزاها .. ولا أساسها ..

ودلفنا إلى منبع عين خيبر ، وتقع في مكان بناحيتها الجنوبية يشبه الفضاء . والمنبع مسور بسور من حجر الدبش الأسود .. غير المنتظم في البناء .. والبناء في جملته وتفصيله متداع ، وهو مربع الشكل أوشبه مربعه .. وترى الناس من حوله يغسلون ملابسهم وأنفسهم وارتقينا إلى طرف من سور المنبع لنشاهد العين من كثب .. فإذا بالماء يسيل منه واهِناً آتياً من ناحية الجبل الذي يقع بالجنوب .. وقد وضع بعض الناس على المنبع (حصيراً) لتصفيته كما

يبدو .. الحصير في حد ذاته بالٍ ومتسخ وقذر ، فيا عجباً من قَذَرٍ يُصَفّي قَذَراً ...

* * *

ومما مررنا به سوقُ خيبر القديمة في داخل البلد ، وهي مغلقة مهجورة الآن .. وعليها أقفال من حديد ، وأقفال من خشب : (ضَبّاتٌ) .

* * *

وقُصور خيبر أو دُورها القريبةُ من هذه السوق إلى ناحيتها الغربية الشمالية صغار أشبه بالأوكار .

* * *

وقال لنا مرافقنا الخيبريّ : انه توجد سوق جديدة غير هذه .. وسار معنا ، وسرنا معه حتى بَلَغَ بنا أو بَلَغْنا به إلى طرف خيبر الجنوبي المرتفع عن وهدتها .. ووصلنا هذا المكان ، والترابُ يعفرنا ، والغبار يغطينا ، ولم نر شيئاً صحيحاً سَمِيناً في خيبر سوى الحمير والبقر .. فلا بُدّ أن لهذين الحيوانين حصانة طَبَعِيّةً من الحُمّى الخيبرية المشهورة .. لا بُدّ أن لهما وقاية جسمية أو نفسية جسيمة ، تحميهما من سريان سموم بعوض (الأنوفيل) ولسعاته الفتاكة [1] .

---

١ الأنوفيل : البعوض الذي يولد لسعه حمى البرداء (الملاريا) ويمتاز بأنه مخطط البدن..بلونين أبيض وأسود .

والسوق الجديدة عبارة عن سطرين مضطربين يتكونان من خرائب متناثرة ، وفتحات مسدودة بأبواب جذوع النخل المُضَبَّبة .. ورأينا من كثب ، واحداً من هذه (الدكاكين الجديدة) وبداخله أشباح من الناس يلفهم الظلام الدامس في باطنها لفّاً ، فلا يتبين إلا بريق عيونهم وملابسهم البيض ، وبعض حاجيات متناثرة بغير ضابط في أرض الجُحرِ أو الكهفِ أو الدكان الجديد ...

ونأمل أن تلقى خيبر من العناية الصحية ما تستأهله كبلدٍ زراعي خصب، ذي مياه ثرة ، فتطمر المستنقعات وتُنَظَّف العيون في منابعها وقنواتها ، وتقاوم حمى الملاريا بالوسائل الطبية الحديثة من علاجية ووقائية .. بصفة مستديمة وعميقة وجدية .

ونأمل مع ذلك أن تلقى من العناية الزراعية ما تستحقه في انتاجها وحقولها ومياهها وأشجارها ونخيلها .

ونأمل أن تنال من وزارة الشؤون الاجتماعية ومن مجلس التخطيط الأعلى[1] الرعاية الكافية لعمالها ومزارعيها ، ولشوارعها وأزقتها ودُورِها ، تنظيماً وتخطيطاً ، وتوسعة وتبليطاً ..

نأمل أن تنال خيبر كل ذلك لتتحول حالها من حسن إلى أحسن ، في كل شيء .. ولتتضخم وتتسع وتصبح مواردُها الزراعية الغنيةُ ذاتَ أثر حميد في أنحاء المملكة .. فالماء الذي هو عماد الحياة متوافر فيها بشكل كبير ، والأرض خصبة ، والأمن وارف الظلال والناس إذا صَحّوا نشطوا للعمل المجدي ، وعندئذ تجود الأرضون بالخيرات والثمار

---

١ صار اسم هذا المجلس فيما بعد : الهيئه المركزية العليا للتخطيط .

والإنتاج الحافل .

بعد أن عدنا أدراجنا من جولتنا في خيبر رأينا على جانبي الطريق المسفلت مقهى فيه أناس جالسون يشربون الشاي والقهوة وقد تجاوزناه في الطريق إلى سياراتنا اللائي كانت بانتظارنا آنذاك .

وكنا قد أوعزنا إلى سيارة (الونيت) التي تقل أرزاقنا وماءنا وأمتعتنا بأن تسبقنا وأن تُتَابِعَ السير قُدُماً حتى تبلغ الساعةُ الثامنةَ ، وعندها تقف ، ورأيناها وهي تخترق طريقها إلى الشمال .. في نشوة وقوة وتصميم ..

في الطريق الى تيماء

وقد بلغت الساعة — ونحن على أبواب سياراتنا — السابعةَ والرُّبَع من النهار ، وقد اشتد حميم الشمس ويَبِسَتْ شِفاهُ بعضنا من الظمأ .. وكان كاتبُ هذه السطور من هؤلاء الظِّمَاءِ .

وامتطينا السيارات الصغيرة وسارت بنا تتهادى في سيرها الحثيث .. وحوالي الساعة السابعة والنصف تعطّل قلب سيارتِنا : سيارةِ القيادة .. فقد انبعث من قلبها دخان ورائحة .. فَجَزِعَ السائق حَمَد الدوْسَرِيّ من هذه الحركة .. وأوقف السيارة على مَهَلٍ ، وحينما كشف عليها بدقة وإمعان ، قال لنا : إن قلب مولد الكهرباء قد احترق .... فَخَالَجَنَا نوعٌ من الاضطراب .. فقد كنا زايلنا خيبر ، وتركتنا

سيارةَ الماءِ والطعامِ والأمتعة ، وهي – حسب الخطة المرسومة لها – لن تقف إلّا بعد أن تصل إلى المدى المحدود لها .. كالاقمار الصناعية التي تطلقها دول العصر الكبرى لأغراض سلمية وحربية خفية فلا تتوقف إلا في المدى المحدد لها .. والشمس من فوقنا محرقة ، والجبال من حولنا ملتهبة ، والظمأ مُتَفَشٍّ في بقية الرّكاب ، ولا ماء لدينا في سياراتنا ولا في هذه التَّنُوفَةِ الجرداء .. وكان السائق حكيماً ولبقاً ، فقد فصل البطارية عن المولّدِ ، فصارت البطارية هي التي تتحمل عبء تحريك السيارة وتسييرها وحدها .. بما اختزنته من كهرباء .. وسِرْنا على بركة الله سيراً حثيثاً إلى الشمال على شيء من القلق وشيء من الأمل . وسارت خلفنا السيارةُ الصغرى الأخرى ومررنا بعمال « شركة المشاريع العامة » القائمين بسفلتة هذا الطريق من المدينة حتى تبوك .. مررنا بهم وهم منهمكون في نشاط وحماسة في رش مادةٍ مائعة من الاسفلت على الاسفلت الجاف ، لتشكلا الطبقة التي تغطي وجه الطريق ، وتكسبها النعومة والبريق . ونال عجلاتِ سياراتنا رشاش من هذه المادة التي تشبه القطران في الميوعة والسواد والبريق .. إن هؤلاء العمال أو مهندسهم لم يحسبوا للسيارات الذاهبة والقادمة ، أي حساب ... وهكذا رشوا الطريق المسفلت كلّه بهذه المادة الخبيثة الطيبة في وقت واحد .. والممران الأرضيان من حول الخط المسفلت ضيقان لا يكفيان لمرور عجلات السيارات كلها .. فلا بد إذن من أن يغوص جانب منها في بعض هذا السائل الذي يلوثها ويلوث ما فوقها أيّ تلويث ..

جرعة مـــاء

بعد أن اجتزنا منطقة القطران مررنا على مُعَسْكَرِ : (كَمْب)

الشركة ، ورأينا الزمزميات معلقة ، بأطراف الخيام ، فتشهينا أن نطلب منهم جرعة ماء نبل بها الريق ، ولكن سير السيارات كان أعجل من الانتظار أو النزول .. ثم مررنا على مُخَيّمِ أمير خيبر ، وقد اختار الأمير أن تكون اقامته في هذه المنطقة الصحية .. وهي منطقة فيحاء جميلة نقية الهواء ذات بطحاء حمراء مغرية .. وَنَصَبَ خيامه بها ، وحفر له فيها بئراً للسقيا ، ونصب أعمدة اللاسلكي فيها .. فهو يقضي بياض نهاره في خيبر يَحْكُمُ فيها بين الناس وَيُصَرِّفُ شؤون الإمارة ، فإذا انتهى من عمله الرسميِّ اتجه إلى منطقته المفضلة يقضي فيها أوقات فراغه وطعامه وشرابه ونومه ولوازمه الخاصة ..

وتابَعْنَا المسير صوب الشّمال ، وصرنا ننظر مليّاً في ساعاتنا ، فإذا بها قد بلغت الثامنة والرّبع ، وَقَدّرْنَا مدى بُعْدِ السيارة الونيت عنا وخَمّنّا أنها لا تزال تجري إلى الأمام ، كأحد الأقمار الصناعيّة المصَوّبَةِ إلى هدف معين ، كما قدرنا أننا لن نبلغها حتى تدق الساعة ، التاسعةَ والنصفَ على أقل تقدير .. وهذا وقت طويل ، والظمأ يحرق حلوقنا ، ويجفف ريقنا ، ولكننا صبرنا وتلثمنا حتى لا يَدْخُلَ الهواءُ الحار إلى أفواهنا وأجوافنا فيزيدنا ظمأ على ظمأ ، فَعَلَ ذلك أول من فعله ، محمد عيد الحيدري ، وتابعتُه .. وبعد هنيهة رأينا سيارة من نوع اللّوري ، واقفةٌ على حافة الطريق ، وما إن لمحناها حتى تصايحنا : لنقف هنا ، ولنطلب من سائق هذه السيارة جرعة ماء .. وقد خاب أملنا حينما وقفنا إزاءها ، فاذا بها معطلة وليس بها أحد ، فتركناها وراءنا ، ثم عارضتنا سيارة كبيرة أخرى قادمة من ناحية تيماء .. فاستوقفناها وطلبنا من سائقها (جُرْعَةَ ماءٍ) .. وقد

أجاب طلبنا بسماحة نفس ، وارتوينا من ماء زمزميته الزلال .. ثم سألناه عما إذا كان قد شاهد في الطريق سيارة ونيت حمراء ؟ فأجابنا بأنها واقفة ومعطلة على مسيرة نحو عشرة كيلومترات منا ، فتأثرنا من جهة وحمدنا الله من جهة أخرى ، إذ قد اقتربنا من سيارة الماء والزاد ، وعقب مسيرة نحو عشر دقائق رأينا سيارة الونيت ، واقفة إلى الجانب الأيمن من الطريق ، وسائقها ومن معه منهمكون في البحث عن شيء لا نعلمه.. وبعد أن وصلنا اليهم أدركْنَا أنَّ (ضَبّة) أو (طَبّةَ) السّلِنْدِرِ قد سقطت ، والسيارةُ تسير ، فنزل جميع ما في (اللّديتر) من ماء يُبَرِّدُ الْمَكِنَةَ إلى الأرض ، وبذلك اضطر السائق « ناجي حامد » إلى التوقف عن المسير ، وحدث تساؤل منا .. (والحاجة أم الاختراع) و (لكل نازلة فاصلة) .. وقد أجمع رأي الإخوان أخيراً على أن نبحث عن عودٍ أو خشبة ، وننحته أو ننحتها ونجعلها على مقياس من محل الضّبّة أو الطّبّة ، ثم نحشوه به أو بها ، فإذا امتلأ فراغ المحل امتلاءاً محكماً فقد حصل المقصود وزال المحذور .

وبعد المداولة في كل هذا وإقراره رأينا أن الوقت قد مضى كثيراً وأكثر مما يلزم .. فالساعة الآن تشير إلى الثامنة والنصف ، ونحن لم نذق طعاماً من الصباح .. وعلى ذلك قررنا النزول في هذا الوادي ذي الأشجار المظلة . برغم ما ينتشر فيه من أشواك حادة مسنونة .. وبالفعل ترجلنا ونزلنا . .

وتحت شجرةِ طَلْحٍ شائكة كبيرة بسطنا أفرشتنا ، وكان الطاهي قد أوقد النار تحت القدر الكبيرة ، وبدأ في إعداد وجبة الغداء الدسمة .. وقد تركنا المختصين منا يبحثون عن عودٍ للضّبّة ، وسرعان ما رأوا أن يقطعوا عوداً من شجرة طلح في حجم معين قدّروه ، وشذبوه تشذيباً محكماً ، ثم وضعوه في محل الضَّبَّةِ الساقطة فاستوى به كقطعة

من حديد موزونة ، وملأُوا (اللديتْر) بالماء وجربوا السيارة جيئة وذهاباً ، فإذا كل شيء على ما يُرام ، وعندما علمنا بهذه النتيجة السارة دَاخلَنَا الاطمئنان وزال الغم ، وطاب لنا المُقَامُ والطّعَامُ . فأتينا بسيارتينا الصغيرتين ، ووضعناهما أمام بعض ، وفتحنا بينهما مكاناً سوياً كَنَسْنَاهُ من الشوك ، وفرشناه ، وبسطنا (حنبلاً) كبيراً ، فوق السيارتين المتقابلتين لنستظل به ، ومن ثم قُدِّمَ لنا الغداءُ .. فتناولناه بشهية .

وفي أثناء جلوسنا ، عَنَّ لأحَدِنا أن يفتح (المِذْيَاعَ) لنتصل من طريقه بالعالم في هذه البرية المقفرة ، وقد راعنا أن سمعنا منه فجاءة بأحداث (كُوبَا) المزعجة ، فأرهفنا الأسماع ، وخطر ببالنا أنّ شرارة الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت ، وعمّا قريب يلقى العالم أسوأ مصير ... ونحن في برية هوجاء .. ولكننا لم نضطرب ، ولم نقرر العودة للمدينة ، قلنا : لِيَكُنْ ما يكونُ ، فنحن في طريقنا إلى تيماء ... برغم أن الإنذارات الأمريكية المصممة بالقضاء على صواريخ الهجوم السوفيتية المنصوبة في قواعد لها بِكُوبَا ، تنذر بخطر عالميّ جسيم وشيك الوقوع بين لحظة وأخرى .. ولا نعلم مدى مفعول هذه الإنذارات في الجانب المقابل .. والأمر جد — كما يبدو — وليس بمناورة .. فأمريكا قد أدركت أن أمن نصف الكرة الغربية معرض لخطر بالغ ، ولا بُدّ من القضاء على هذا الخطر بأيّ ثمن ... وإذن فهي نُذُرُ الحرب العامة الثالثة تلوح في الأفق من كثب ... وترقبنا (رد الفعل) في الجانب السوفيتي ، فعليه ، يتوقف الأمر سلباً أو إيجاباً .. وبعد الهزيع الأول من الليل أنَخْنَا رَكَائبنا ، أو ترجلنا عن سياراتنا وفتحنا المذياع مرة أخرى ، فإذا بروسيا تذيع بياناً رسمياً مطولاً عن الحادث الكبير الخطير ، وإذا بالبيان يحمل في طياته الانحناء للعاصفة الأمريكية لكي تمر بسلام ... إنه يدعو ضمناً وأخيراً ، إلى عرض الموضوع على مجلس

الأمن .. وعندئذ أدركْنا أن احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة الآن قد زال أكثر ضبابه المشؤوم .. كما أدركْنا مدى قوة أمريكا ، العالمية والحربية والإرادية ، من هذه الحادثة بالنسبة لخصمها السوفيتي الذي استعرض عضلاته ثم طواها بلباقة .

هذا وفي الساعة الحادية عشرة والنصف حزمنا أمتعتنا ووضعناها في سياراتنا ، واتجهنا بها ، أو اتجهت بنا ، صوب الشمال .. وقد أعْجَبَنا منظرُ الشمس في الصحراء ، وهي تكاد ترتمي بين أحضان قِمَمِ الجبال التي تحيط بهذه الأودية المتعانقة من قديم .. كمسافر أنهكه السير بياض النهار ، فأوى إلى قرار مكين .. ليأخذ قسطاً من الراحة يستأنف بعده المسير صبيحة اليوم التالي إلى حيث يُريد .

والهدف بعيد مجهول المكان والمدى .. ألا ما أجمل السيارات البيض والحُمْرَ الصغرى ، وهي تتهادى فوق بساط الطريق الأسود الناعم في خفة ورشاقة كالعرائس !! وما أجملها وهي تصعد في خفة ورشاقةٍ ، الأنجادَ ، وتهبط الأودية !! وما أروع ألوان الجبال من حولنا ، من أخضر إلى أبيض إلى أصفر وداكن ، مما ينبؤنا بتشبعها بأنواع المعادن التي تتطلب رجالاً علماء عاملين ، ليفيدوا البلاد من معادنها المستقرة في أجواف هذه الكُتَلِ من الحجارة ..

في السهل الأفيح

وبعد هنيهة من مسيرنا ، وقُبَيْلَ أن تتوارى (ذُكَاءُ) عن الأنظار وتستقر في مخبئها العجيب البعيد ، انفتح أمامنا سهلٌ رمليٌّ

أفيحُ لا نرى له حدوداً ، وتخلفت الجبال والأودية من ورائنا .. حقّاً لقد خرجنا الآن من طبيعة أرضٍ ، إلى طبيعة أرض أخرى .. فهل يا ترى خرجنا من منطقة خيبر ودخلنا منطقة تيماء .. منطقة الفراغ اللاّنهائي تقريباً في أنظارنا وشعورنا ساعتئذ ؟.. وقد اندفعت السيارات في سيرها اندفاعاً ضرب الرقم القياسي في السرعة نحو ذلك الأفق البعيد البعيد ، الذي يربط كرة الأرض السوداء ، بقبة السماء الزرقاء في الآفاق البعيدة الحرد .. وقد شعرنا عندها بنوع من القلق يساورنا .. وبجو من الخوف يخيم فوق رؤوسنا ، وربما كان جُلّ سبب ذلك جهلنا بمدى المسافة التي سنجتازها إلى تيماء ، خاصة ونحن الآن في قفر واسع الأرجاء .. لعلّه طرف من النفود الكبير ..

وبعدُ ، فما أحوج كثيراً من مناطق بلادنا الواسعة كهذه المنطقة إلى أناس صالحين مصلحين كثيرين يعمرونها ..

* * *

وما زلنا نسير ونسير في اندفاع شبهِ مجنون وسط هذا السهل الأفيح الذي يبدو ، كأن لا نهاية له ، وكلما أوغلت غيلانُ الظلام في الالتفاف من حولنا ازداد قلقنا ، وازدادت سياراتنا إمعاناً في الاندفاع إلى الأمام .. ترتاد ذلك المجهول البعيد المنشود .. كأنّ لها إحساساً مثل إحساسنا ، وبها قلقاً مثل قلقنا ، ولها أهدافاً مثل أهدافنا .. وكانت عدّاداتُ سياراتنا تشير إلى : (٨٠ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٤٠ ، ١٥٠) ... وأخيراً أطبق علينا الظلام من كل جانب ، ونحن في وسط السهل الممتد من كل جانب ، وقد نال منا التعب والاعياء ، وحدث أن تأخرت عنا بعض سياراتنا في هذه التنوفة القفراء بسبب إمعان « السيارة القائدة الرائدة » في السير الحثيث .. فاضطررنا لانتظارهن ،

وأزمعْنا أن نؤدي صلاة المغرب والعشاء جمعاً وقصراً ، ولكنّ التعبَ الذي فَتّ في أعضادنا وحَلّ من قوانا ، حال بيننا وبين ذلك مرغمين . فأجمعنا أمرنا على تأخيرهما إلى فرصة أخرى من الليل .. وأخيراً تسمّرت عيوننا على خط السير الذي اجتزناه .. وبَعد نحو ساعة لمَحْنا بصيص نورٍ يلوحُ في الأفق من بعيد ، وإنه ليبدو ويختفي ، ومن ورائه أقبلت السيارتان وراء بعضهما تزمجران ، وقد حمدنا الله على جمع الشمل في هذه الصحراء الموحشة المجهولة .. وفي وسط هذا الظلام المطبق .

ولما أنِسْنا بشيء من الراحة استأنفْنا السير نحو ذلك المجهول المنشود .. وسِرْنا في ظلام شديد السواد تشقه أضواء سياراتنا ، وتتلألأ من فوقه النجومُ التي ترصع كبد السماء وجوانبها ، ولم يكن هناك أثر للقمر .. إنه في دَوْرِ استجمامه أو محاقه ، فهذه الليلة هي السادسة والعشرون من الشهر .

وبعد أن سرنا نحو ساعتين لمحنا بصيص أنوار من بعيد ، وسمعنا نَأمَةَ أناس ، ونباح كلاب ، وثغاء شاء ، فقدّرْنا أننا قد اقتربنا من المجهول البعيد المنشود : (تيماء) . ولكّن صُدِمنا بالواقع الأليم .. فما ذلك إلا بعض مضارب البادية الذين يقطنون متنقلين في هذه التنوفة الجرداء ..

وفي تمام الساعة الثالثة ليلاً بالتوقيت العربي المحلي ، بَدَأنا نبحث عن مكان صالح للبياتِ بجانب الطريق ، على أن يكون خالياً منَ الجُحور التي قد تكون مأوىً للحشرات والآفات .. وطال بحثنا على أضواء السيارات .. وأخيراً وصلنا إلى مكان اتفقنا على صلاحه للمهمة المنشودة .. فحططنا رحالنا ، إن صح هذا التعبير ، وفرشنا بُسُطَنا وأفرشتنا وأوقدنا مصابيحنا المتوهجة : (اللوكسات) ورفعناها في مكان

عَلَيَّ ، وأشعل الطاهي النار للطعام ، وللشاي ، وبعد أن تناولنا العشاء الدسم ، وشربنا أكواب الشاي المنعنع ، أسْلَمْنا أجفاننا لنوم عميق حتى الصباح أو قبيل الصباح .. على التعبير الدقيق .

أما كاتب هذه السطور فكان في غاية الرهق والقلق والإعياء ولذلك اضطر أن يستسلم لنوم غير عميق ولا مريح .

وكانت مهمة المصابيح مزدوجة في هذا المكان .. فبها نستنير في أداء لوازمنا وقضاء حاجاتنا ، وبها نتقي عدوان الحيوان .

وقد نَهَضْتُ من فراشي في ساعة متأخرة من الليل ، وصوبت بصري إلى السماء .. فإذا هي في مهرجان حافل ومواكب رائعة من سواطع النجوم في أشكال مسدسة ومخمسة ومربعة ومتناثرة .. يا لَلّهِ ! ما أجمل هذه القبة الزرقاء في هذه الليلة الصحراوية المجلوة السوداء ..

وقد رأيت الثريا في موكبها الخاص تتلألأ في المشرق البعيد فكأنها حلقة مترابطة من كواعب بيض أتراب رواقص ، أو كأنها عنقودٌ فضيٌّ متلألئٌ يتدلى من السماء كما تتدلى الثريا البلورية من سقوف أبهاء القصور الرائعة العظيمة في احتفال سامر راقص ..

وجاء (أبو الحُصَيْنِ) يتحسس في آخر الليل ، وأنا في يقظتي وتأملاتي وتجوالاتي الفكرية .. إنه جاء يتطلب وجبة عشاء شهية من الفضلات الملقاة في هذا الجزء من الصحراء الخاوية .. جاء يخطو خطواته الخفيفة السريعة متسلحاً بإحساسه المرهف ، وحذره اللماح .. وأضَأْتُ في وجهه الكَشّاف (مصباح الحجارة النفاذ المُرَكّز الضوء) فما تحرك .. إنه كان في تلك اللحظة منهمكاً في تناول (أكلة) لذيذة من بقايا الطعام .. يظهر أن صاحبنا كان في منتهى المسغبة .. فتركتُه وشأنه .. وماذا يفعل الثعلب المسكين هنا ؟.. وليس لدينا دَجَاجٌ ولا دَوَاجن نخشى

عليها من سطوة ذراعيه ، وهو أضعف شأناً وأهون قوة من أن يخطر بباله أن يهاجم أحداً منا أو يفترسه مهما يستبد به الجوع !

ووضعتُ أذني على سطح الأرض ، وأرهفت سمعي لأية نبأة تأتي من بعيد .. فالهدوء هنا تام ، والسكون مخيم .. ولا بدّ أن أيّ صوت مهما يَبْعُدْ أو يضؤُلْ – إذا كان في إحدى نواحينا – سيصلني شيء منه بهذه الطريقة .. وقد اتصل بسمعي خيط رقيق واهن متقطع من نباح كلاب وأصوات مضخات ماء .. فأدركْتُ أنّ صاحبنا الراعيَ ، راكبَ السيارة الكبيرة الذي استنبأناه عن مدى قربنا من تيماء ، فقال لنا : إننا منها على مسافة كيلوين – كان صادق الحديث ودقيق المعرفة والبيان .. وكان قد سبق لغيره من السائقين والراكبين أن زَوّدُونا بمعلومات متناقضة عن مدى بُعْدِ تيماء عنا .. قال لنا بعضهم : إنّ بينكم وبينها نحوَ مائة كيلومتر .. في الوقت الذي يُقَصِّرُ آخر هذه المسافة على (٦٥) كيلومتراً .. معلوماتٌ مضطربة لا تهدي إلى شيء .. لعل من أسبابها عدمَ نَصْب علامات الكيلوات في هـذا الطريق الذي لم يستتم انشاؤه بعدُ ، وجهلَ أكثر السائقين والراكبين معهم ، للتقدير الصحيح لمسافات هذه التنوفة الجرداء الملساء المتشابهة المناظر القاتمة الأعماق .. الخاوية المخترق .. كما وصف شاعر أعرابيٌّ قديم ما يماثلها من مهامه .

وطلع الفجر الكاذب ثم الصادق ، وكنتُ يقظانْ مرهف الإحساس والشعور .. وتوضأنا وصلينا الصبح جماعة في تؤدة وخشوع . كان إمامنا السيد أديب صقر ، وقد أذن لصلاة الصبح أذاناً مُرَتّماً يُشيعُ في النفوس المسرة والخشوع والأمل ، بصوت مشج رقيق .. وذلك ديدنه في كل صلاة .. وقام بعض الرفاق ، وأرخى بعضهم جفنيه للنوم اللذيذ .. وقام الطاهي ليهيئ لنا وجبة الإفطار المكونة مـن بَيْضٍ (مُطجّنٍ) وفول مُدَمّسٍ ، وشاي ممزوج بالحليب ، وخبز طري

وشابورة ، وبقسماط إلى « دقّة » السيد أديب صقر الشهية الدكناء اللون من كثرة الفلفل الأسود الذي يمتزج بملحها ..

وما كادت الشمس تشرق حتى مُدّت سُفْرة الطعام ، فأكلنا هنيئاً ، وشربنا مريئاً .. وفي ذلك الوقت أحسسنا بدبيب النشاط يسري في أعضائنا .. كما شعَرْنا بدبيب الأمل يسري في قلوبنا .. فلقد اقتربنا من الهدف المنشود .. وقد أطْلِقت النّكاتُ ، وارتفعت الضحكاتُ ، وشاعت الفرحة والبسمات على الثغور والوجوه ..

وفي الساعة الواحدة والنصف صباحاً بالتوقيت العربي المحلي للمدينة المنورة ، تحرّكنا بسياراتنا ، الشّمالَ ، وأمامهن « السيارةُ القائدةُ الرائدةُ » .

وكان السهل الأفيح قد تخلف عنا ، مُودّعاً لنا إلى رجعة ، ومُسْلِما لنا إلى حزن من الأرض أدكن ، يشبه الحرّار . وبدت إلى جانبنا الأيمن سلسلة جبال مختلفة الأحجام والأشكال قدرنا أنّ بها الكثير من آثار الثموديّين ، وأيّدَنا في ذلك الدليلُ فيما بعد وقد رأينا الرعاة وبعض الأعراب ، فتأكدنا أننا على مقربة من « الهدف المنشود » وأنه الآن ليس ببعيد عنا كما أراد بعض السائقين أن يدخلوه إلى أفكارنا ، وأن يملأوا به أدمغتنا فيسدوا باب أملنا .

وحينما ارتقت بنا السيارة ، تلاّ مُنْبَسطاً شاهدنا أمامنا في وهدة مستطيلة من الأرض (خَيْفا) كبيراً ملتفّ النخيل والحدائق .. وكان ذلك الخيف هو حقيقة الهدف المنشود ، هو « تيماء » بالذات . ومررنا بسور البلد القديم المتهالك من طول ما مر عليه من سنين وفتن ، وما سطع عليه من شمس وقمر ، وما نزل عليه من مطر وحَرّ وقَرّ ، وعواصف ، وما حل به من مختلف الكوارث .. وكانت سلسلة الجبال عن يميننا يشبه بعضها الخيام ، ويشبه بعضُها البيوت ، ويشبه بعضُها

المربعات ، ويشبه بعضُها الأبراج الحربية .. وشاهدنا الشواخص التي طالما شاهدناها في هذا الطريق على التلال والجبال .. وكان يخيل الينا أنها تماثيل منصوبة لآدميين ، فإذا اقتربنا منها تبدّت لنا شواخص بدائية ، لعلها نصبت لتبيان معالم الطريق ، وكأن هؤلاء (الشماليين) تأثروا بأسلافهم الأقدمين من ثمود وغيرهم ، في نصب التماثيل البشرية في كل مكان يمرون به أو ينزلون فيه .. بخلاف (الجنوبيين) فليس يهمهم من هذا القبيل شيء ..

في تيماء

ها نحن أولاء الآن لقد بلغنا (الهدفَ البعيد المنشود) وحققنا الحُلم الغالي إنّنا الآن في قلبِ واحةِ تيماء ، الرابضة في وسط صحراء مخوفة فيحاء .. وها هي ذي نخيلها وآطامها المتداعية التي يقول عنها أمير شعراء الجاهلية : امرؤ القيس الكندي في معلقته :

وَتَيْماءَ لَمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ
وَلاَ أُطُماً [1] إلا مَشِيداً بِجَنْدَلِ

ولقد قطعنا في طريقنا اليها السهل والوعر ، والجبل والوادي ، وأجمات السلم والطلح ومنابت العشب وبعض الفيافي الجرد .

هذه تيماء يا رفاق ! بلد العمالقة ، هذه شرطتها .. وهذا لاسلكيها ، وهذه محكمتها ، وهذه مدرستها ، وهذه بيوتها ونخيلها ، وهذا جوها

---

[1] يبدو أن ثمة علاقة خاصة بين الآطام والجهات الشمالية من جزيرة العرب .. من المدينة المنورة وما في شمالها .

الباسم الجميل ، وهؤلاء هم أهلها الذين تبدو عليهم أمارات الصحة والنشاط بعد بؤس كارب وفقر مدقع ، مر بهم ، أيام كانت في عزلة عن العالم ، بالموقف الذي وضعها فيه حاكمها الأسبق (عبد الكريم ابن رمان) .. وشتان ما بين حالها في ذلك العهد الماضي ، وحالها في عهدها الحالي . فقد أصبحت في نعيم وتقدم وتطور مشهود .

* * *

ودخلنا البلد بسياراتنا من غير دليل .. إلاّ أننا ألقينا سؤالاً على بعض من شاهدناهم عرضاً في الطريق عن بئر هدّاج ، وأبهجنا أن شوارع البلد نظيفة على خلاف ما كان أورده عنها عبد الله فيلبي في كتابه (أرض الأنبياء) . ولا بد أنها تغيرت في هذا الظرف .

وشوارع تيماء ضيقة متعرجة ، ولكنك لا تشعر فيها بتقزز ولا بانكماش ، بل تشعر بغبطة غامرة من هذا الجو الشمالي اللطيف الساحر .

وما زلنا نسير بسياراتنا وئيداً في داخل البلد ، مستطلعين ، وقد مررنا بقصر شامخ في وسط المدينة فقررنا أنه (قَصْرُ ابنِ رُمّان) الذي له نحو نصف قرن من الزمان .. وهو قصر قَرَوِيٌّ شامخ ، شُيّد باللّبِنِ النّيىء ومن طينة أرض تيماء القوية التي تشبه الاسمنت في قوّتها .. حسب ما بدا لنا حين زرنا عاصمة (نبونايدس) البابليّ .. وشاهدنا طلل أحد قصورها فإذا به متماسك برغم مضيّ عشرات القرون عليه هنا . وقد أمسكتُ بين أصبعيّ ببعض هذا المِلاَطِ الذي يربط بين حجارة القصر المصقولة ، فإذا به من طينة البلد ، وبعض حجارة البلد أصفر اللون ، وبعضها أدكن قاتم .

والأمر الذي جعلنا نقرر أن القصر هو قصر ابن رمان ، يتمثل في هذه الثّغرات التي تحيط بجداره الخارجيّ من كل ناحية .. وهي معدة

لإطلاق الرّصاص على المهاجمين له من الخارج ، وبجانبي القصر (دَكّات) لجلوس رجال الأمير ومن يقصدونه من عامة الناس وخاصتهم وقد اضطرت سياراتنا إلى أن تقف على مسافة نائية من بئر هَدّاج . . . فالْقَنَوات المائية المفتوحة التي تعترض الطريق عاقتها عن المضيّ إلى قرب البئر .. وإن كنا لاحظنا أن بجانب البئر رأساً (وَثِيتاً) واقفاً لأحد أهل تيماء ..

ومشينا على أقدامنا إلى بئر هداج ذات السمعة المدوية في عالم آبـار هذه المملكة الغزيرة القديمة .. وقد وجدها فيلبي قبل اثني عشر عاماً ، وهي حفرة مستديرة الشكل دون انتظام وجدرانها مبنية بحجارة مصقولة وقال : إنها تحتاج إلى إصلاح .. أما نحن فشاهدناها على غير ما وصف فيلبي .. إنها الآن مربعة الشكل وقد أصْلِحَتْ .

ويقول فيلبي : إن عمقها ست قامات تبدأ من سُفْلِ البئر ، وإنها كانت مورداً لكثير من قوافل الجمال وقطعان الماشية التي تقصدها للورود ، كما أن الواحات المجاورة ترتوي منها ، ويقول : إنهـا تستطيع أن تسقي (٩٩) جملاً دفعة واحدة في فصل الصيف القائظ . وقد علم فيلبي أن عدد الجمال التي ترد هداجاً في الدفعة الواحدة أيام زار تيماء هو (٧٧) جملاً .. كما أن مثل هذا العدد من الجمال ضروريّ لنزح الماء من البئر .

وتمنى فيلبي أن توجد مضخة ماء واحدة لإراحة الحيوانات من ذلك العبء الثقيل . وقد حصل ما تمناه فعلاً ، فإن على هداج اليوم عدة مضخات تنزح الماء الوفير منها نزحاً ، ليل نهار . وقد ارتاحت الجمال دفعة واحدة من عناء رفع الماء منها إلى سطح الأرض .

وبئر هداج عذبة الماء جداً ، وإن كان يعكر هذه العذوبة ما بها من جرثومة (البلهارسيا) على حَدّثَنَا به عبد الله الشنيفي أمير تيماء



المؤلف : على بئر هداج بتيماء ومعه جعلي الاعرابي

وغيره .. وقد أفادنا بأن الحكومة بدأت في مقاومة هذه الحرثومة بإلقاء المطهرات على البئر .. ويبدو أن الأمر يتطلب إصلاحاً جذرياً في نفس بناء البئر التي نمت فيها الأعشاب ، واستطالت حتى كادت تبلغ حافتها .. كما يتطلب تنظيفها وطلاءها بالإسمنت ومعاودة تطهيرها بصورة مستديمة حتى تزول منها الجراثيم إلى غير رجعة .. وذلك وقايـــة لصحة سكان هذه المنطقة والمارين بها ، الذين يكثر اعتمادهم على ماء هذه البئر الثرة ، العذبة ، الزلال وهذا ما قررت الحكومة القيام به .

ومضخات بئر هداج ست ، واحدة أو اثنتان منها معطلة ، وهي لا تقف ليل نهار ... وهذا مما يؤكد غزارة ماء هذه البئر ، ومطابقة واقعها لشهرتها .. وحدثني فهد العبد العزيز الطلق التيماوي أن هـــذه المضخات قد أمرت الحكومة بوضعها على هذه البئر وتشغيلها .. وبئر

هداج تسقي الآن حدائق الواحة المنتشرة ذات اليمين وذات الشمال ، وقد لاحظنا أن قنوات مياهها يعلو بعضها بعضاً بنظام ، حتى يأخذ كلٌّ نصيبَهُ المقررَ له من الماء .

وقد عَدّ فيلبي (٢٧) قناة ، في تيماء ، صالحة للعمل ، ووصف القنوات بالضيق ، وبأنها مصنوعة من الحجارة غير المصقولة ، وقال : إن المياه مقسمة إلى ٣٠ سهماً . وعد أشجار النخيل في واحة تيماء التي كان يملكها « رُمّانٌ » في الأصل (٨٠٠) نخلة ، وقدر سكان تيماء بألف نسمة ، ونعتقد أنهما الآن أكثر ، وتمنى أن يعاد حفر بئر « الوجّاج [١] » لتعود تيماء غنية بالماء كما كانت قبل ٢٥٠٠ سنة .

وكانت تيماء قد تقلبت في خضم السياسة والحروب ، خلال الدهور الغابرة . كانت في الزمن القديم عاصمة صيفية للملك البابلي « نبونايدس » (٥٥٦ـ ٥٣٩ ق. م.) وقد جعل منها قاعدة لِحَمَلاتِهِ على العَرَبِ حسب ما قاله كارل بروكلمان في كتابه : « تاريخ الشعوب الإسلامية » .. ثم كانت منزلاً لليهود الذين أجلاهم ضغط الفتوح البابلية والأشورية عن فلسطين ، فقد خربت هـذه الديار ، فاضطروا للهجرة منها ، فنزلت قبائل منهم تيماء .. و (تيماء) بالفتح والمد — كما في « معجم البلدان » لياقوت الحموي — بلد في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق .. وكانت تيماء — كما في دائرة المعارف لبطرس البستاني — حصناً أعمر من تبوك وحاضرةَ طَيٍّ ، وإلى الشمال الشرقي منها الثعلبيةُ ، وإلى الجنوب الشرقي : فيد ..

* * *

وفي منطقة تيماء آثار ثمودية وافرة رآها فيلبي ونقل الكثير منها إلى

---

١ ص ١١٦ ؛ وقد تكون صيغة « الوجاج » هذه تحريفاً من المترجم للكتاب : عمر الديراوي .. وأصلها إذن « هداج » .. كما يفهم من سياق الكلام عن بئر هداج .

١

متحف ُجدّة ، كما رآها غيره ممن سبقه إلى هذه المنطقة من المستشرقين ، وهي إمّا نقوش من خط الثموديين ، قوم صالح ، وإمّا هياكل ومعابد ، وإما أسماء المسافرين الثموديين [1] ، وإمّا صُوَرُ أناس وخيل وجمال وحيوان ، وإمّا قلاع وحصون وقنوات وصخور ، وقد شاهدنا بعض هذه الآثار في رحلتنا إلى تيماء ورسمنا بعضها .

وعلى قِمّةِ برج المراقبة عشرات من الأسماء الثمودية حفرها أصحابها هناك في قديم الزمان لِيَدُلّوا على مرورهم بالمنطقة .

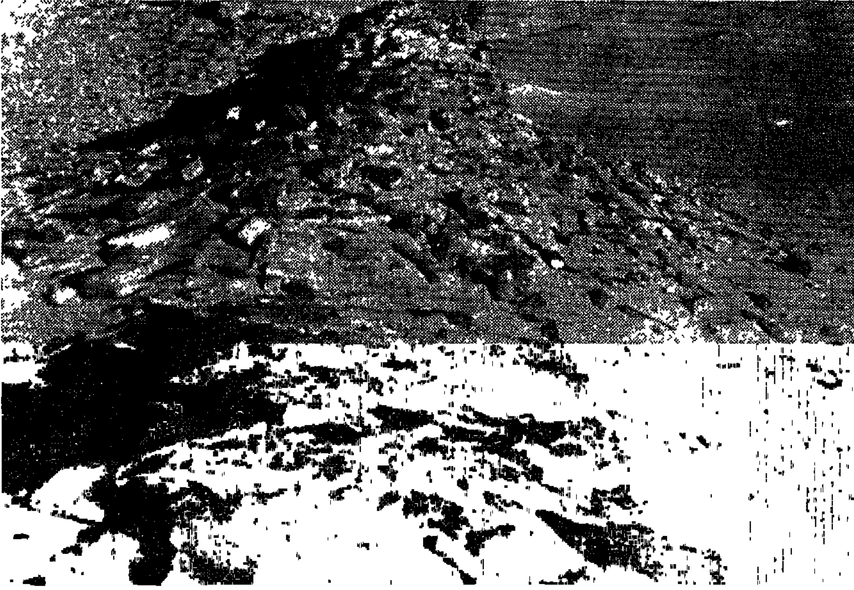
وبتيماء في طرفها الغربي حصن السموأل ، وهو يهوديٌّ أصله من خيبر ، على ما في دائرة المعارف لبطرس البستاني ، حسب ما سبق أن أوردناه في الحديث عن خيبر ، وأصل صيغة (السموأل) : صموئيل .

وفي الجبل الأبلق الفرد يقول السموأل من قصيدة له :

لَنَا جَبَلٌ يَحتَلّهُ مَنْ نُجيرُهُ
مَنيعٌ يَرُدّ الطّرْفَ وَهْوَ كَليلُ
رَسَا أصْلُهُ تَحتَ الثّرى وسَما بِهِ
إلى النّجْمِ فَرْعٌ، لاَ يُنَالُ طَويلُ
هُوَ الأبْلَقُ الفَرْدُ الّذي شَاعَ ذِكْرُهُ
يَعِزُّ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَيَطُولُ

---

١ وردت هذه الأسماء الأعلام في نقوش تيماء وجوارها : ناضر ، نمر ، سالم ، عفيف ، حنا ، طايح ، مرة ، كميلة أو : كاملة ، ناتان ، طريف ، رفيق ؛ راجع كتاب : « من الساميين إلى العرب » لنسيب وهيبة الخازن ، طبع بيروت ١٩٦٢ م ، « وهذه الأسماء يستفاد من دراستها وتأملها ارتباط عرب الجاهلية القريبة من الإسلام، بعرب الجاهلية القدماء كثمود وغيرهم » .



يشاهد فوق ، طَلَلُ قصر السموأل في تيماء ، ويبلغ عرض جداره حوالى مترين ونصف المتر إلى ثلاثة أمتار

وهذا من مبالغات الشعراء .. إن صَحّ أنّ هذا القول للسموأل ، وقد لا يكون صحيحاً ، فإننا قد شاهدنا « أَبْلَقَهُ الْفَرْدَ » هذا من كثب .. فإذا هو جبل أسود صغير ، لا يُرهق الصعود اليه أيّ إنسان ، كما أن الحصن الذي يعلوه أسود ، أو إن بقاياه هي السود الآن ، وقد يكون فيما مضى أبيض أبلق وذهب بياضه مع الأيام أو بحوادث ، إلا أن الجبل على كل حال ليس كما وَصَفَه : له فرع لا يُنال طويل .. ومن

مبالغات شعراء العرب المماثلة قول عمرو بن كلثوم التغلبي :

مَلأْنَا الْبَرّ حَتّى ضَاقَ عَنّـا
وَنَحْنُ الْبَحْرَ نَمْلَؤهُ سَفِينَا

ويقول فيلبي : إن قصر الأبلق أو قصر السموأل ، الذي هو قلعة يوجد في الناحية الغربية من النقطة التي تقوم فيها المدينة الرئيسية ، وعلى مقربة من طريق السيارات المؤدية إلى المدينة ، وتَحَدَّثَ (بأن السموأل لاقى قصاصه العادل في هذا المكان بسبب موالاته لأعداء العرب ، مقابل ضمان هؤلاء الاعداء ما يملكه من أسلحة وأشياء أخرى ، إذا ما حاول الهرب من ذلك القصر) (ص ١١٢ من كتاب أرض الأنبياء ، تعريب عمر الديراويّ) .

وقد انعكس الموضوع على فيلبي أو المترجم ، فالقصة الأسطورية العربية تقول : إن السموأل كان متحصناً بقصره الأبلق .. حينما وافاه خصوم امرئ القيس الكنديّ الذي كان أودع لديه دروعاً وسلاحاً له ، فأرادوا من السموأل أن يعطيهم إياها فامتنع فهددوه وسلم منهم السموأل في حصنه المنيع ، ومن ثم هددوه بقتل ابن له كان خارج القصر ، فما بالى .. فنفذوا تهديدهم ، وسلمت الدروع ، ومن ثم ضُرِبَ به المثلُ في الوفاء ...

وَزُرْنَا قصر « الرَّضْمِ » ، وهو من القصور الأثرية التي لم تتداع في تيماء .. به نقوش عربية قديمة وثمودية ورسومُ جِمال وفي وسطه بئر أثرية محفورة في الصخر الاصم ، وهي الآن مطمورة .. وقال لنا الدليل : إنها كانت ثرة بالماء .. ولم يذكر عبد الله فيلبي هذا القصر فيما ذَكَر ، وهو الآن مِلْكٌ لعبد الله القين .

وإذا كان فيلبي وَجدَ بين خرائب تيماء القديمة ، الكثيرَ من الأشياء الأثرية ، ومن ذلك قطع الحجارة المنقوشة وبقايا أواني الخزف فإني قد وجدت من ذلك شيئاً أيضاً .

وقد اكتشف فيلبي في هضاب « غُنَيْمٍ » التي يبلغ ارتفاع قمة جبلها ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، الأوْثَانَ الثموديةَ الكثيرةَ ، ومن

بينها صَنَمٌ (سلم) الذي هو على صخرة ناعمة يبلغ ارتفاعها ٢٠ قدماً في عدة صور منحوتة تمثل رأس ذلك الصنم . وكان رأسه بيضاويّ الشكل لا ذِقْنَ له ، وجبهته واسعة مستقيمة يبرز من طرفيها قرنان فوق الأذنين الواسعتين .

من تاريخ تيماء

يذكر فؤاد حمزة في « قَلْبِ جزيرة العرب » : أنّ واحة تيماء على حافة النفود الكبير الغربيّة وأنها من الواحات الواسعة الخصبة التّربة ، وأن تيماء ، وخيبر ، تقعان في المنطقة المرتفعة الممتدة من شمال مدين إلى حدود اليمن .. ويقطن السّعَادَاتَ من قبيلة الصّلبَةِ ، وعددهم (٩٠) بيتاً ، قُرْبَ تيماء .. وأهلُ تيماء الأوائل من العمالقة ، وكان معاويةُ رضي الله عنه وَجّهَ سرية إلى جهات تيماء لاحتلالها ، بعد قضية التحكيم ، وقد أنشأت سليح التي كانت تعرف باسم الضجاعمة في الشام ، ومنها كَلْبٌ — دولةٌ مستقلة في دومة الجندل حتى تبوك وتيماء . . والضجاعمة كما في المعاجم : بطن من قضاعة ينتسب إلى ضجعم بن سعد ابن عمرو الملقب بسليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وكانوا عُمّالاً للرُّومِ ، فلما نزحت غَسّانُ من مأرب إلى الشام ، كان الضجاعمة يأخذون من كل رجل ديناراً ، فأتى العامل رجلاً اسمه جذع الغسانيّ وطالبه بدينار ، فاستمهله ، ثم قتله .. فثارت الحرب بين غَسّانَ والضجاعمة .

وفي العهد الحديث كانت تيماءُ تابعة لإمارة حائل منذ عهد آل الرشيد واستمر ذلك حتى العهد السعودي ، وقد تتابع على إمارتها أمراءُ

رَشيدِيّونَ حتى استقل بها رُمّانُ بْنُ حطيم ، وتسلسل حكمها ،في أبنائه ، حتى كان آخرهم عبد الكريم بن رمان ، وقد زارها « غورماني » سنة ١٨٦٤ م مُوفَداً من قِبَلِ الحاكم التركي ، ليشتري له منها عدداً من الخيل فوجدها مستقلة تحت إمرة رمان المذكور ، وقد ظل حكمها في نسله إلى ما قبل قدوم فيلبي اليها ، بقليل ، قبل نحو اثني عشر عاماً ، من تأليفه لكتاب « أرض الأنبياء » .

ووادي تيماء مغلق من ناحيتيه : الغربية والشمالية بسلسلتين من الصخور الواطئة ، وتقع بساتين النخيل على طول الطرف الجنوبي من تلك الصخور ، وحقول الحبوب وبيوت السكن الحديثة التي أنشئت حول الواحات ، في حين تقع خرائب تيماء القديمة بين الجداول والصخور ، وما زال قائماً قسم من السور الدائريّ الذي بُني حول تيماء .

وفي تيماء أودية تعتمد في مياهها على ما يرد منها .. ومن هذه الأودية وادي « الحمل » بشرقيّ تيماء ، ووادي « حسينية » ووادي « خويلد » ، ووادي « صيفية » الذي يأتي من سلسلة هضاب جبل « غُنَيْمٍ » العالية ، ويمر بالخرائب الأثرية ويدور حولها .

ويذكر فيلبي أن النبي صلى الله عليه وسلم نَصَبَ خيام مُعَسْكَرٍ في الأرض الصخرية التي تعرف باسم « المحجة » بتيماء . ويقول : إن هذا الاسم أقدم من هذه المناسبة .. عرف ذلك من النقوش الأثرية التي عثر عليها في المنطقة .

وكانت تيماءُ تابعةً الحجاز في عهد الملك حُسين بن عليّ ، ثم ضمها هي وخيبر السلطان عبد العزيز آل سعود إلى أملاكه في يوليو سنة ١٩٢٢ م .

هذا وقد جاء إلينا شابان من أسرة الطّلَقِ ، إحدى الأُسَرِ الثلاث

المعروفة في تيماء ، والثانيةُ هي آلُ سَلاَمة ، والثالثة آلُ رُمّان .. وهما أخَوان اسماهما فَهْدٌ وعبدُ اللطيف العبد العزيز الطلق .. وأرَيانا بُسْتاناً لهما آثرنا أن نَقيلَ به ، لأنه كان جميلاً وفينان وتتدلى ثمار الليمون الكبيرة من شجرة ليمون باسقة في وسطه ، فرأينا أن ننزل تحتها بظلها الوارف .. والأخوان موظفان في الحكومة ، وأحدهما وهو عبد اللطيف موظف في دائرة الجوازات والجنسية ، بتيماء .. وقد أنسنا بلقائهما ، فهما بشوشان وديعان ، وكانا يفضيان لنا بما لديهما من معلومات عن بلدهما في لُطْف وغبطة . وقد رافَقَنَا فهدٌ في تجوالنا بخرائب العاصمة القديمة ، ودلَّنا على أشياء مهمة كثيرة .

وقد سرني مرآى طلاب مدرسة تيماء الصغار في الصباح ، وهم ذاهبون إلى مدرستهم الابتدائية ، حاملين مَحَافِظَهُمْ المدرسية ، ومرتدين ملابسهم البيض النظيفة ، وعلاماتُ الصحة والانشراح تلوحُ على وجوههم ..

وبعد أن ارتحنا هنيهة في حديقة آل الطلق ، قال لنا السيد حبيب : آلا ترون أن نزور الأمير عبد الله الشنيفيَّ أمير تيماء ؟.. فارتحنا للفكرة وارتدينا مشالحنا وذهبنا لقصر الإمارة الذي يقوم على مقربة من مقيلنا .. وسألْنَا فهداً الطلق عن جلوس الأمير .. فافادنا بأنه جالس .. وذهبنا اليه وسلمنا عليه فحيانا ببشاشة ساحرة ، وجرت أحاديث معه عن تيماء وماضيها وحاضرها من النواحي السياسية والثقافية والعمرانية والاجتماعية والزراعية ، وقد فهمنا أن بها مدرسة ابتدائية تحوي ٣٠٠ طالب ، ومدرسة ليلية لتعليم الكبار فيها نحو ٨٠ طالباً .. كما أرانا فهد الطلق المسجد الذي هو في قصر الإمارة والذي اغتيل فيه عبدُ الكريم ابنُ رمان آخرُ أمراء آلِ رُمّان ، وأرانا محل اغتياله بالذات .

واستأذنّا من الامير في أن نتجول في آثار تيماء .. وقد دعانا إلى أن

نتغدّى عنده فوافقنا ، وامتطينا سيارتنا ومعنا الدليل فهد الطلق وذهبنا إلى غرب المدينة ووقفنا على السور الدائريّ الخاص الذي يحيط بخرائب تيماء الأثرية ، ووقفنا على السور الدائريّ العامّ الذي يحيط بتيماء في عمائرها الحالية وخرائبها القديمة المتداعية ، وقصدنا أحد القصور الأثرية المتداعية التي بقي منها جدار ضخم متآكل ، لعله برج أو كتف جدار فوقفنا تحته وكان فوق ربوة عالية وأخذنا لنا رسماً ونحن وقوف تحته في الظل .

وتحت هذا القصر في داخل السّور الدائريِّ الخاص بِئْرٌ منجورة في صخر صلد ، وهي مربعة الفتحة ، واسعة ، وقد طُمِرَتْ قديماً ، وقام أحد أهل تيماء بمحاولة حفرها وإعادة جريان المياه فيها . وفي حفائرها وجدتُ كوزاً خزفياً أو زهرية تكاد تكون متكاملة ولَوْحاً رقيقاً من مَعْدِنٍ نحاس أصفر صدئٍ لا أدري حتى الآن ماهيته إذ لم أجْلُ الصدى عنه بعد [1] .

وأرانا الدليل قصراً متداعياً يقوم على جبل صغير غربيّ موقفنا بمسافة ليست بعيدة عنه .. وقال لنا : إنه قصر السموأل وجبله .. فاكتفينا بمشاهدته عن كثب .. إذ لا شيء فيه مُهِمّاً على ما روى لنا الدليل ..

وقد تأملتُ بالمنظار الذي أحضره معه عدنان حبيب — وهو منظار ألمانيّ — في السهل الناعم الذي يحيط بـــه السور الدائريّ الخاص والذي وقفنا تحت أحد أبراجه أو أكتافه .. فبدا لي أن هذا السهل كان مَزارعَ وحدائقَ مدينةِ « نبونابيْدس » البابليّ .. فلما تداعت مدينته أو

١ هذه القطعة أرسلتها بوساطة شركة الزيت العربية – الأميركية إلى أميركا للكشف عليها وإيضاح تاريخها علمياً .. فورد جواب المستر كارل برنت من الظهران بما ملخصه : انه لدى الكشف على القطعة ظهر أنها كانت لمحراث قديم صنع باليد من مادة النحاس الأصفر ، ويرجع تاريخها إلى ما بين عام ٢٠٠ و ٤٠٠ م .

عاصمته الصيفية هذه ، وانتقل الناس إلى المدينة الحالية بشمالها الشرقيّ ، جفت المياه ، وصوحت الحدائق بحكم الإهمال ، واهتم السكان باستصلاح أرض تيماء الحالية وزراعتها — عرضتُ هذا الرأي على الدليل التيماوي ، فأيّده وقال لي : إنه توجَدُ أطلالُ سَواقٍ وقنواتٍ قديمةٍ جداً في هذا السهل بذاته مما يدل على صحة ما ذَكَرْتَ ..

وفي طريق عودتنا إلى المدينة عند الظهر وبعدما خرجنا من الرمل الناعم كانت السيارة تسير على مَهْلٍ فإذا بها بجانب حُفْرَةٍ عميقة انفتحت حديثاً .. فَتَنزّلْنا وتأمّلناها ، فإذا هي نَفَقٌ واسع مسقف بالحجارة المصقولة المطابقة . وكان النفق آتياً من مدينة الخرائب ، ومن ناحية حِصْنِ السموأل بالذات متجهاً إلى الناحية الشرقية التي هي خلاء .

فقلنا : لعله أحد الأنْفَاقِ التي كان ذوو الأمر والنهي القدامى يستعملونها في قصورهم احتياطاً للحوادث المفاجئة من حصار أو هياج أو شغب أو فتن ، لينجوا من طريقها بدون أن يستطيع أحد أن يتعقبهم أو يتعرف على طريق نجاتهم .

وعدنا إلى منزلنا مترقبين قدوم رسول الامير .. وبعد هنيهة جاء ودعانا فلبينا الدعوة .. واستقبلنا الأمير الهادئ البشوش الذي قضى في خدمة الدولة ٣٠ عاماً ، بعضها أميراً على رِمَاحٍ ، وبعضها أميراً على الدوادميّ ، حيث نُقِل بأمر الملك المرحوم عبد العزيز آل سعود إلى إمارة تيماء هذه منذ اثنتي عشرة سنة ، ولا يزال بها إلى عام رحلتنا إلى تيماء .. عام ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م .

وأُحْضِرتْ مائدة الطعام ، وكانت جَفْنَةٌ معدنية [1] فضية اللون ،

---

١ تقديم الطعام في مثل هذه الجفنات من تقاليد العرب القديمة منذ جاهليتهم . قال حسان بن ثابت في الجاهلية :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وكان ذلك إلى اليوم رمز الكرم لديهم .

ضخمة عالية ، تحمل كبشين سمينين مطهوين على كومة كالأكمة من الآرز المطهو على الطريقة العربية ، وتحت الحفنة مُدّت السفرة وَصُفّتْ فوقها صحون الصِّبْغ : « الإدام » من البامية والملوخية والباذنجان الأسود والبطاطس والخبز والفواكه وَزَهْوٍ تيماء الضخم الحلو الجميل . وكان الأمير قد دعا قاضي البلد الشيخ محمداً الْخَلَف .

وبعد شربنا للشاي ذهبنا مع الأمير بالسيارات إلى دار القاضي ، فتناولنا بها الفواكه والشاي ، وهي دار رحبة .. وكنا زرنا القاضي هذا ضحى ، في طريقنا إلى الخرائب الأثرية وهو يقضي بين الناس في المحكمة ، فرحّب بنا وأبدى رغبته في تكرارنا الزيارة له في داره ، وكانت منا الاستجابة له في المساء .

وفي تيماء محطةُ نفط بدائية ، ودكاكينُ أدوات السيارات خفيفةُ البضائع ، ودكاكين غير منظمة للحاجيات . وأغلب بيوتها من طينة البلد القوية . وقد بدئ في إنشاء بيوت فيها بالإسمنت المسلح على الطراز الحديث . ولعل أول ما أنشئ في ذلك هذا المركز الحكوميّ القائم على الطريق المسفلت إلى تبوك .

وقد شاهدنا في قصر الإمارة حجرين كبيرين مستطيلين منقوشين نقشاً عربياً قديماً .. قال فيلبي إنه لم يستطع تَبَيُّنَ محتوياتهما .. ولكنني قرأت الكثير مما فيهما فإذا هو عبارة عن كلمة التوحيد وكلمات تسبيحية وتذكارية ولعلهما مما كُتِبَ في القرن الهجريّ الثالث .

هذا وقد أعرب لي الشاب عبد اللطيف العبد العزيز الطلق الموظف بالجوازات والجنسية بتيماء عن مطالب أهل هذا البلد من الحكومة وهي ثلاث : مدرسة إعدادية يدخلها المتخرجون من المدرسة الابتدائية ، وبلدية تنظم وتنظف البلد ، ووحدة زراعية تُنْهِضُ وتُنْعِشُ زراعتها

فهاتئذا أضَعُ هذه المطالب الثلاثة الضرورية لرفع مستوى تيماء بين يدي الجهات المختصة وهي جديرة بالاستجابة إن شاء الله .

الحجر [1] أو مدائن صالح

الْحِجْرُ في القرآن المجيد :

يقول المراغيّ في تفسيره للآيات الكريمة التي خوطب بها ثمود ، قوم صالح ، عليه السلام : « واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِنْ بعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ في الأرْضِ تَتَّخِذونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً » — يقول : أي تَذَكّروا نِعَمَ الله عليكم ، وإحسانه اليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد ، في الحضارة والعمران والقوة والبأس ، وأنزلكم في منازلهم تتخذون من سهولها قصوراً زاهية ودوراً عالية ، بما ألهمكم من حذق في الصناعة (الطوب المحرق) وتستعملون الْجِصّ ، وتُجيدون هندسة البناء ودقة النجارة ، وتنحتون من الجبال بيوتاً ، إذ علمكم صناعة النحت وآتاكم القوة والتَّجلّدَ .. رُوِيَ انهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء ، لما في البيوت المنحوتة من القوة ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف . ويسكنون في السهول بقية الفصول ، للزراعة والعمل [2] .

---

١ في تفسير الألوسي أن اسم مدينة الحجر هذه ، هو « قرح » . وفي شرح قصيدة نشوان الحميري « ان مدينة الحجر كانت تسمى في عهد ثمود : « مدينة قرح » ، ص ٣١ ، و ص٣٥ ، طبع المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٧ ﻫ .

٢ تفسير المراغي ، ص ١٩٠٩ ، ج ٨ ، طبع مصر .

وتؤيد الدلائل التاريخية والأثرية ما ورد في الذكر الحكيم من أن ثموداً خلَفَتْ عاداً في الحضارة والقوة .

وتتمثل مظاهر حضارة (عاد) أسلاف (ثمودَ) ، في قوله تعالى : « أتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) .. فإنَّ هوداً عليه السلام لما فرغ من دعاء قومه (عاد) إلى الإيمان ، أتبعه بإنكار بعض ما هم عليه .. أنكر عليهم بناء القصور المشيدة لمجرد التفاخر والدلالة على الغنى في كلِّ مكان مرتفع ، وأنكر عليهم بناء الحصون الضخمة كأنهم خالدون في الدنيا .. ثم وصل العظَةَ بما يوجب قبولها بأن ذكّرهُم بنعم الله التي غمرتهم .. ذكرهم بها أولاً مجملة ، ثم مفصلة ، ليكون ذلك أوقعَ في نفوسهم : (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أمَدَّكُمْ بِأنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) .

وهذا المشهد نفسه قد تمثل في (ثمود) مع نبيهم صالح ، عليه السلام ، فقد شادوا القصور في السهول ، ونحتوا من الجبال بيوتاً في الأعالي ، كأنما هم مخلدون ، وقد أنكر عليهم صالح ذلك ، ثم وصل العظَةَ بما يستدعي قبولها بأن ذكرهم نعمة الله عليهم إذ جعلهم خلفاء عاد وبوأهم الأرض بعدهم .

وجدير بالذكر أن هذه الحضارة الزاهرة الشامخة وصل صولجانُها لثمود بعد هزيمتها لعاد فقد دُحِرَتْ عاد ، نتيجة عتوها .. لقد صرعها بَغْيُها — ولكل باغ مصرع — وكانت دولتها تتخذ جنوب المملكة العربية السعودية ، مستقراً لها ، ولم يَطِبْ القرارُ لثمود في تلك الربوع ، إذ لم تر فيها البُقْعة الملائمة لأحلامها ، فهاجرت إلى ناحية الشمال .. وألقت بها عصا الترحال في وادي القرى الواقع في منطقة الجبال ، ذي التربة الخصبة والآبار المترعة والجبال المشرقة .. وهناك أنشأت ثمودُ

حضارتها الخاصة بها ، فبنت في سهول الأرض ، القصور العالية ، ونحتت جبال الْحِجْرِ بيوتاً ، فَضَاهَأتْ بهذا الصنيع عاداً في الجنوب وتفوقت عليها ، وبُنَاةَ الأهرام في مصر .. وقد يكون مما ألجأهم إلى نحت البيوت من الجبال الحجرية ضيق رقعة دولتهم أو رغبتهم في حصرها في مكان معين يحافظون عليه بسهولة من غارات الأعراب المجاورين وغير المجاورين الذين من دأبهم الطمع في المال المجمع الوفير ..

وقد رأينا عبيد بن شرية الجُرْهميّ يفسر لمعاوية بن أبي سفيان ، الآيةَ الكريمة : (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا . إنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) — وقد نزلت في ثمود وديارهم — يفسرها بقوله : (ساقطة خربة) [1] والسقوط والخراب هما المظهران اللذان يجللانها حتى اليوم .

على أن سياق الآية يدل على أنها نزلت — بقصد الاعتبار — تعبيراً عن حال واقعة ومُشَاهَدَةٍ في عصر الرسول (محمد) صلى الله عليه وسلم .. وهذا التأويل يُساعد مباشرة على الدلالة بأن المقصود بصيغة (الْبُيُوتِ) هنا ، هو هذه المنحوتات الحجرية الماثلة للعيان في زمنه عليه السلام ، وحتى زمننا الحاضر بعد نحو أربعة عشر قرناً من الزمان .

والمراغيُّ يسير في تفسيره على هذا الرأي فيقول : إن ثمود ، إمعاناً منها في الأخذ بأسباب العظمة والحضارة بنت لنفسها مدينتين في الْحِجْر لتكون إحداهما المنحوتة في الجبال (مشتى) أميناً لها ، تنزله رِدْءاً لها وأماناً في موسم الشتاء وفيضانات الأمطار وقصف العواصف ، ولتكون الأخرى ذاتُ القصور الشماءِ الواسعة في السهول (مصطافاً) لها يتلاءم مع جو الصيف وجَنْيِ الثمار وجَمْعِ المحصولات والعمل .

---

١ التيجان في ملوك حمير ، طبعة حيدر آباد دكن بالهند سنة ١٣٤٧ ﻫ .

الحِجْرُ في اللغة :

ولِنَرْبطَ الماضي السحيق بحاضر الحِجْرِ عامة ، وبخاصة فيما يتعلق ببيوته الجبلية ، نعودُ إلى متن اللغة العربية .. لِنُحَلِّلَ ولنقارن ، كي نصل إلى النتيجة العلمية المنشودة في هذا المجال .. فنقول : إن صيغة (البَيْتِ) هي من الصيغ المشتركة ، ذوات المعاني المختلفة المتقاربة المتآلفة الوفيرة . وجمعه : بُيوت وأبيات ، وجمع الجمع منه : أبَايِتُ وبُيُوتَاتٌ وأبْيَاوَاتٌ .. فالبيت يطلق على المنزل المكون من الشَّعَرِ (بفتح الشين والعين) والمكون من المَدَرِ والحَجَرِ والصَّفيح والقَشِ والزّجاجِ والحديد الخ ... كما تُطلق صيغة (البيت) على معنى الشريف ، ومعنى التزويج ، ومعنى القصر ، ومعنى عيال الرجل ، وعلى الكعبة المقدسة ، وعلى القبر ، وعلى فُرُشِ البيت ، وعلى البيت من القصيدة — وهو ما أطْلَقَ عليه صاحبُ (القاموس المحيط) وصف (بيت الشاعر) [1] ، ونستطيع أن ندرك من هذا إمكان تأويل وصفه تعالى لمنحوتات ثمود في الحِجْر ، بأنها (بيوت) لكونها (مساكن) لأولئك القوم ، يعيش فيها أحياؤهم .. ويؤكد لنا ذلك روايةُ رحالة عربيٍّ مشاهد ، شاهد آثار الحِجْرِ وتأملها من كثب قبل ارتحال المستشرقين اليها بما يقارب ألف عام .. ألا وهو الإصطخريّ الذي صرح لنا بقوله : « ورأيتها — أي بيوت الحجر المنحوتة فيه — بُيُوتاً مثل بيوتنا في أضعاف جبال ، وتسمى تلك الجبال الأثالِبَ . ويتراءى لي ، أنا كاتب هذه السطور — أن صيغة « الأثالب » ، خطأ مطبعي صحته (الأثالثُ) — وهي جبال إذا رآها الرائي من بُعْد ، ظنها متصلة ، فإذا توسطها رأى كلَّ قطعة منها منفردة بنفسها ، يطوف بكل قطعة فيها الطائف .. وحواليها الرمل ، لا تكاد تُرْتَقَى .. كل قطعة منها

---

[1] القاموس المحيط ، ج ١ ، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م .

قائمة بنفسها لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة .. وبها بئر ثمود التي قال الله تعالى فيها وفي الناقة : « لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ »[1] .

كما يمكن من الجهة الأُخْرَى أن تُحْمَلَ لَفْظَةُ (بيوتٍ) الواردة في القرآن ، على أن تلك المنحوتات هي (قبور) للقوم ... لأنَّ « البيت » في اللغة العربية التي نزل بها القرآن المجيد يطلق أيضاً على (القبر) كما يطلق على مسكن الأحياء ..

وهذا الرأي لم يأخذ به ما اطلعنا عليه من التفاسير وكُتُبِ التاريخ والجغرافية العربية الإسلامية القديمة .. وإنما مصدره الأول والأخير هو جماعة المستشرقين ، ومن سار على دربهم من مؤلفي العرب بعدهم ، في العصر الحديث .. وقد اعتنق هذا المذهب بعضُ من كتبوا في الصحف المحلية عن (رحلة نادي البحر الأحمر بجُدّة) إلى مدائن صالح ، وتحدث به إليّ ، بَعْضُهم ، جازماً بأن المنحوتات ليست إلا قبوراً لقوم صالح .. ولا يمكن أن تكون منازلهم ، لضيقها الشديد ، ولأنها عبارة عن كهوف ومَغَاوِرَ ، ولوجود عظامِ مَوْتَى بها ... وقلت له : إن ضيق البيوت لا يدل دائماً على عدم صلاح البيوت للسكنى .. وها نحن أولاءِ نرى في البلاد المكتظة بالسكان اليوم كيف أن أشخاصاً عديدين يسكنون غرفة واحدة .. لكلٍّ منهم ما هو على قدر نومه وجسمه منها ، وإذا ثبت علمياً أنها قبور من قراءة النقوش التي عليها .. فالحقّ أحقّ أن يُتَّبَعَ ... وهذا رهن باكتشاف جميعها ..

ولأن أصل هذه النظرية وارد ووافد من المستشرقين ، كما أوردناه

---

[1] المسالك والممالك : ص ٢٤ ، طبعة مصر .

آنفاً فأرى أن علينا أن نأخذ دائماً معلومات المستشرقين بحذر ، خاصة فيما يتصل بديننا ولغتنا وآثارنا وبلادنا .. وذلك من جهتين لا من جهة واحدة .. وأولاهما : أن افهامهم بعض الأحيان مُلْتَوِيَةٌ نغلب عليها طبيعة بيئاتهم فتشذ وتند عن الصواب الواضح بحكم طبيعتها إلى خطأ فاضح ... وثانيتهما : الغرض الدفين طَبَعِيّاً وتقليدياً بين جوانح الكثيرين منهم . وواجِبٌ علينا اليوم — وقد نهضنا من إغفاءتنا الطويلة — أن لا نتكل على مجهوداتهم العلمية وحدها .. بل نسعى بأنفسنا لكشف كنوز حضارتنا علمياً وعملياً وفكرياً وقولياً وأثرياً وخبرياً .

جاء في كتاب فؤاد حمزة قوله : « وقد زار كثير من المستشرقين بلاد ثمود هذه ووصفوا ما شاهدوه فيها من الآثار والمنازل المنقورة في الجبال الصخرية .. ووضَعَ الرحالةُ (دُوتي) رسماً تقريبياً يعين به المواقع الأثرية في مدائن صالح ، ووصف المغاور المحفورة في الصخور بأنها رمُوسٌ ، ونقل صور بعضها ونشرها في كتابه ، منها : قصر البنت والبرج ومربط الحصان وبيت الشيخ .. وعاين المستشرق (موزيل) أماكن أخرى تُنْسَبُ إلى ثمود في جهات الغوافة ، بين تبوك والبحر »[1] .

وهذا « جرجي زيدان » يخالف في أن أطلال الحِجْرِ ونُقُوشَه ، هي « ثمودية » . إنه يقول ما نصه : « وأما الثابت من قراءة الآثار (فهو) أن مدائن صالح : (الْحِجْرَ) دخلت قبيل تاريخ الميلاد في حوزة النبطيين سكان « بطرا » الآتي ذكرهم ، بدليل ما على أطلال هذه المدن من الكتابة النبطية » . ثم يعطف على ذلك بقوله : « والأطلال المشار اليها زارها غير واحد من المستشرقين ، كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب ودرسوا بقاياها ، وهي منقوشة في الصخر ، أهمها نقوش

---

١ قلب جزيرة العرب ، ص ٢١٣ ، المطبعة السلفية بمصر ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

تعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج ، وقرأوا ما عليها من النقوش النبطية فإذا أكثرها أو كلها تبركات منقوشة على القبور) ... ثم نقل نقش القبر الذي « بنته كمكم بنت واثلة بنت حرم وكليبة ابنتها »[1] ، ويؤيده في ذلك جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » .

وبالرأي نَفْسِهِ يقول صاحبُ كتاب (الجزيرة العربية) فيقول : « وفي مدائن صالح وأطرافها تقوم مقابر أثرية قديمة ولا بد أنها ستكون موضع اهتمام علماء الآثار الدقيق ، ففي منطقة مدائن صالح توجد مقادير (مقابر) كثيرة منحوتة في الصخر ، حُلّيَتْ واجهتها بالرّسوم . وكثيراً ما نرى رسوم النّسْرِ على واجهتها ، فوق المدخل أحياناً ، وعلى جانبيه أحياناً أخرى .. كما نرى فوق داخل المقابر ، البقايا المهشمة لرؤوس إنسانية ، على كل من جانبيها رسم حية . وما من شك في أن بعض هذه المقابر ما زال مدفوناً تحت الرمل ، والمنطقة كلها في انتظار من يقوم بالبحث فيها »[2] ..

الحِجْرُ في كتب البلدانيات :

في (صفة جزيرة العرب) ما نصه : « فَرَاجِعاً ، إلى وادي القرى ، إلى الحِجْرِ ، موضعِ ثمود ، والناقة مرحلة ، وفيه آثار عظيمة »[3] .

ومحل الشاهد هو قوله : « وفيه آثار عظيمة » .

---

١ العرب قبل الإسلام ، ص ٧٨ ، طبع مصر .
٢ ص ١٣١ ، ج ١ ، طبعة دار الطليعة في بيروت .
٣ ص ١٣١ ، طبعة مصر .

وفي كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) : « الْحِجْرُ ، ديار ثمود بوادي القرى ، بين المدينة والشام [1] . »

وفي (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودي ما لا يخرج عما سبق ذكره [2] .

وفي (جغرافية شبه جزيرة العرب » لعمر رضا كحالة : « الحجر قرية صغيرة قليلة السكان وهي من وادي القرى على يوم بين جبالها . وبها كانت ديار ثمود الذين قال الله فيهم : « وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ » .. ونقل ما قاله الإصطخريّ عن مشاهدته لها : (بيوتاً مثل بيوتنا) .

وقال البشاريّ : إن الحجر ناحية صغيرة وحصينة .

ويحدثنا فؤاد حمزة بقوله : « ورد في الكتب العربية أن ثمود كانت تقيم في الجهات الجنوبية من المملكة بين عسير واليمن وحضرموت ثم انتقلت بدواعٍ غير معلومة بعد حروبها مع عاد ، وافنائها إياهم — من بلادها الأصلية في الجنوب ، إلى شمال الحجاز في وادي القرى ، وأنشأت في العلا مدائن صالح والْحِجْرَ ، منشآت ، بقيت لنا آثارها حتى الآن » [3] . أما من ناحية سكانها الحاليين فإن فؤاد حمزة يفيدنا بأن « إمَارة العُلاَ ، مركزها بلدة العلا ، على خط السكة الحجازية الحديدية أيضاً ، ويتبعها من العربان هتيم وولد علي وبعض حرب » [4] .

---

١ ص ٩١ ، طبعة بيروت ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م .

٢ ص ١١٨٤ ، ج ٤ ، طبعة مصر ، نشر محمد النمنكاني بالمدينة .

٣ ص ٢١٢ من كتاب « قلب جزيرة العرب » . وربما كانت كلمة « إفنائها » في الأصل « اجلائها » .

٤ المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

ويحدد لنا صاحب كتاب « الجزيرة العربية » موقع مدائن صالح بأنها « تقع للشمال الشرقي من العُلا ، وعلى بُعْدِ ثلاثين كيلومتراً منهـا . وكانت محطة من محطات الخط الحديدي الحجازي ، على بعد ٩٥٥ كيلومتراً من دمشق .. وترتفع عن سطح البحر ٧٨١ متراً .. وهي في البـلاد المعروفة في العصور السابقة باسم « الْحِجْرِ » (بالكسر ثم السكون) من وادي القرى ، بطريق الحج الشامي إلى مكة » [1] .

كما يعطينا فكرة عن تاريخ الْحِجْرِ القديم إذ يقول : « والمشهور أن قبيلة ثمود الوارد ذكرها في القرآن الكريم مع النبيّ صالح ، كان مُقَامُها في (الحجر) وكانت عشائرها تمتد غرباً إلى البحر الأحمر ، وشرقاً إلى جبلي أجَإ وَسَلْمَى ، وذكرت في جملة الشعوب التي تغلب عليها سرجون الثاني الأشوري في القرن الثامن قبل الميلاد . وآخر ذكر عثرنا عليه للثموديين هو التحاق خيالة منهم بجيش البيزنطيين في القرن الخامس للميلاد . ومنذ القرن الخامس حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، كان يملك (الْحِجْرَ) وجميعَ المنطقة المجاورة ، اللِّحْيَانِيُّونَ ، فكانت مدينتهم الرئيسية تعرف باسم (هجرا) .. وعلى رأي بعضهم إن مدائن صالح اليوم هي مدينة الحِجْرِ القديمة [2] » . وقد أورد هذا الرأيَ أيْضاً جواد علي وَدَعَمَهُ ، في كتابه : (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

---

١ الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام : لمصطفى مراد الدباغ ، ج ١ ، ص ١٣١ ،طبع بيروت .

٢ الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام : لمصطفى مراد الدباغ ، ص ١٣١ ، ج ١ .. على أن تحديده لامتداد عشائر ثمود غربـاً إلى البحر الأحمر نعطف عليه قولنا : وجنوباً عن البحر الاحمر أيضاً . فقد اكتشف في وادي بويب شرق جدة نقوش لهم.. وتحديده امتدادهم إلى جبلي اجا وسلمى شرقاً تبدو صحته، بما دلت آثارهم بالصويدرة في طريق القصيم على حلولهم بها.

الحِجْرُ في البحوث الاقتصادية الحديثة :

في عام ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٣ م أوفدت الحكومة العربية السعودية بعثة أمريكية زراعية جابت كثيراً من بقاع المملكة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، ووصلت إلى مدائن صالح وكتبتْ عنها نبذة طيبة في تقريرها العام الذي قدّمته إلى الحكومة وطُبِعَ التقرير باللغتين : العربية والإنكليزية .. وجاء فيه : « على الرغم من أن الخرائب الفسيحة الموجودة بمدائن صالح تُبيّنُ بجلاء أن عدداً من السكان أكبر نسبياً في الأزمان الغابرة يزرع هذه المنطقة بإروائها من الآبار ، فإنه لا توجد هناك في الوقت الحاضر غير مغروسات تَمسّ قليلة .. وهذه المغروسات تُروَى من بئر ، سطح الماء فيها على عمق ١٣ متراً من سطح الأرض ، وقد اتصل بنا ان سحب الماء بواسطة جملين لم يخفض مستوى رفع الماء عنها .. ويعتقد مالك البئر أن في استطاعتها أن تتحمل بسهولة سحب الماء منها بأربع قِرَبٍ أو أكثر . وتوجد في هذه المنطقة عدة مئات من الأفدنة جيدة التربة . أما الماء الذي يمكن الحصول عليه فلا يمكن تقدير كميته إلا باجراء تجارب فيه بالمضخات »[1] .

ومعلوم أن هـذا التقرير كُتِب عن مدائن صالح قبـل عشرين عاماً . ولا بدّ أنّ حالتهـا الزراعية قد تحسنت كثيراً أو قليلاً عن ذي قبل ..

الحِجْرُ في الشعر الجاهلي :

ورد اسم (الحجر) في قصيدة الشاعر الجاهلي الحجازي (العجلاني)

---

١ ص ١٥٧ ، طبع القاهرة .

التي استسقى بها المطر لجميع مَواطِنِ بلاده الدانية والقاصية ، وقد سردها فيها .. من شمالها إلى جنوبها ، ومن غربها إلى شرقها . وقد دعا اللهَ تعالى في مطلع قصيدته دعاءً حارّاً أن يُرْوِيَ ظمأ بلاده بالغيث شاملاً كاملاً . وقبيل اختتام قصيدته بَثّ لنا ذكرياته الممتعة عن سني الأمطار الغزار التي سبق أن نعم بها الحجاز ، وبهذه المناسبة سمى أيضاً الديار التي هطلت عليها تلك الغيوث ، وعَدّ لنا منها (الْحِجْر) قال :

رُوِيَتْ مِنْ بَعَاعِهَا الْعِيصُ فَالرَّ
سُّ سُيُولاً ، فَالْمَرْوَةُ الْبَيْضَاءُ
وَأَرَبّتْ[1] تَنْصَبُّ فِي (الْحِجْرِ) وَالْوَ
دِّ كَمَا صُبَّ فِي الْحِيَاضِ الدِّلاَءُ

جبال الْحِجْر :

وإن تعجب فعجب من التصحيف الذي يعتري أعلام الأمكنة في المراجع العربية ، فيضيع حقائقها ويجعلها مضطربة لا يَقَرُّ لها قرار .. فقد ورد في كتاب (جغرافية شبه جزيرة العرب) لعمر رضا كحالة المطبوع في دمشق الشام أن اسم هذه الجبال هو (الأشالب) بشين معجمة بعد الهمزة .

وورد في كتاب (تقويم البلدان) لأبي الفداء صاحب حماة (طبعة باريس ١٨٤٠ م) ما نصه : «وتُسَمّى تلك الجبال الأثالب» [2] بثاء

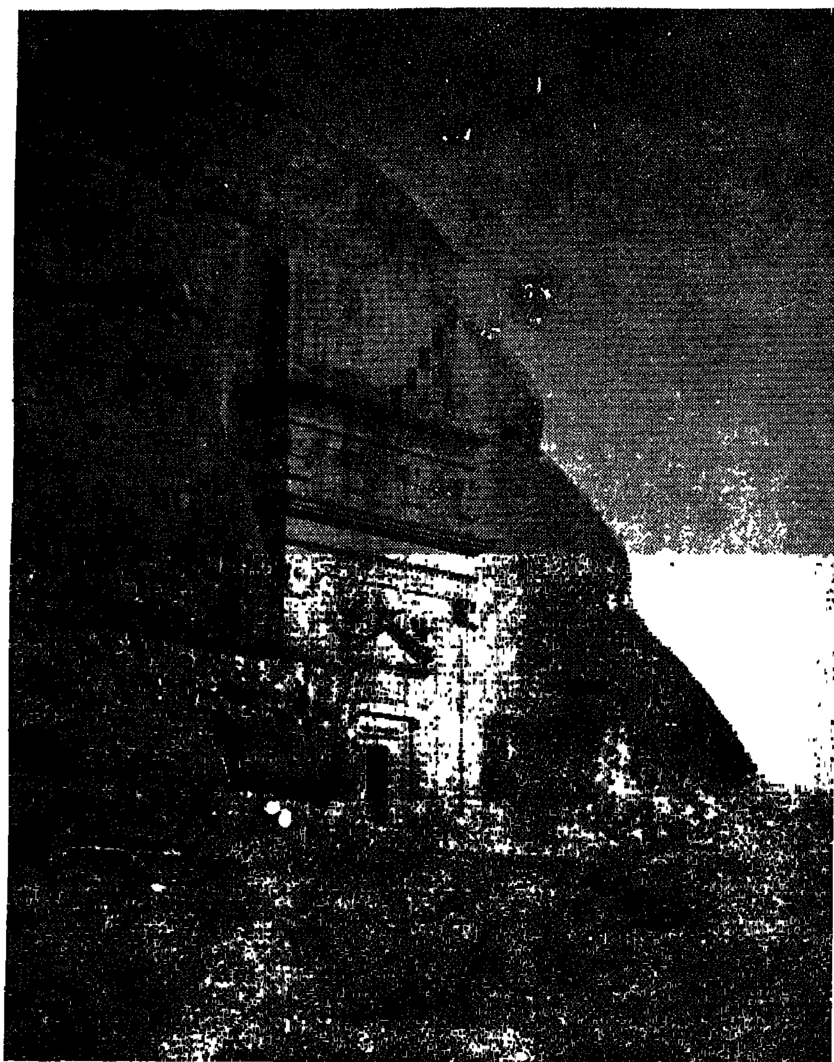
---

[1] أربت : بمعنى أقامت ومكثت ، والضمير يرجع إلى الأمطار الغزيرة . وهذا (الحجر) هو مدائن صالح بدليل ذكره العيص قرب وادي القرى : صفة جزيرة العرب ، ص ١٣١ ، طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٥ م .

[2] ص ٨٩ ، ج ١ .

مثلثة بعدها ألف فلام فباء تحتية موحدة .

وجاء في (معجم البلدان) لياقوت الحمويّ (طبعة بيروت) أنها



بعض البيوت الأثرية في مدائن صالح

(الأثالث) [1] بثائين مثلثتين .

ويبدو لي أن ما جاء في معجم ياقوت هو الصواب ، حسب ما كنتُ أشرتُ اليه فيما سبق .

وهكذا تضيع معالم الحقيقة في الأسماء غالباً .. من جراء تحريف الطابعين وقد سبقهم إلى ذلك الناسخون .. ولا يزال الاثنان كذلك .

الخط الثمودي :

يصف الدكتور جواد عليّ ، الكتابات الثمودية بأنها قصيرة ومجرد أسماء في كثير من الأحوال دُوِّنَتْ للذكرى ، فتراها على هذا النحو : « لوهب بن رفد » أو « لشهري بن رفد » أو « لغصن بن اسله » . وهي تفيدنا من ناحية الإحاطة بأسماء الجاهليين ، ولكنها لا تفيدنا من ناحية قواعد اللغة . فنصوصٌ كهذه ليس في وسع أحد استخراجُ قواعــدَ مُفَصَّلَةٍ منها . ولهذا كانت معَارِفُنَا بنحو هذه اللهجة وصرفها ضيقةٌ محدودةٌ . ويقول جواد علي : إن الخط الثموديّ كالخط المسند ، والخط اللحياني ، خالٍ من الشكل ومن التشديد ومن الإشباع وعلاماتِ الحركات [2] و [3] .

وهذا الذي يقوله الدكتور جواد علي هــو حقيقة واقعة . فإن الخط العربي الذي نكتبه الآن كان في أيام نَشْأتِهِ في الجاهلية القريبة من الإسلام ، وفي عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه خالياً من النقط والشكل والتشديد وبعض علامات المد .. وقد زيدت فيه هذه

---

١ ص ٨٩ ، ج ١ .
٢ ص ٨٩ ، ج ١ .
٣ ص ٨٩ ، ج ١ .

الأشياء في العصر الإسلامي حينما أصبح خطاً علمياً عالمياً واسع المدى .
وأما ما يقوله من جهلنا بقواعد لغة ثمود فالذي يبدو لي أن هذا من آثار أوهام المستشرقين وتوهماتهم الداخلة على علماء العرب وإلا فالثمودية هي العربية نفسها وقواعدها هي قواعدها بدليل أن أسماءها هي أسماؤها، على انه لا بد من وجود اختلافات في اللجهة بين العربيتين كما نراه حتى اليوم ، من وجود بعض الاختلافات في لهجة أهل اليمن وحضرموت من جهة ، ولهجة الحجاز ونجد من جهة ، خاصة وان الثموديين هم في الأصل يمانون ، نزحوا من جنوب الجزيرة إلى شمالها كما يفعل الجنوبيون إلى اليوم .

ويميل جواد عليّ إلى أن أصل الخط الثمودي هو المسند اليمني . فيقول : « وقد مر القلم الثمودي في أدوار ، تحرر فيها شيئاً فشيئاً من أشكال حروف المسند ، فكان كلما مَرّ دورٌ ، خرجت بعض حروفه بمميزات وبعلامات فارقة ، ولكنها مع ذلك لم تتمكن من أن تباعد بين المسند وحروف القلم الثموديّ بوجه عام ، بُعـْداً كبيراً . والقارئ إذا ما أبصر الكلمتين فسرعان ما يدرك وجه الشّبه ووَحْدةَ الأصل بين القلمين ، فيحكمُ بأن القلم الثمودي من ذلك القلم العربي القديم [1] .

وهذا الذي يقوله جواد عليّ ، يدعم لنا بطريقة حديثة أن أصل ديار ثمود تقع في جنوب المملكة ، وأنها كانت تُعايش وتُساكن عاداً ، وأن حرباً بينهما طاحنة نشبت ، هزَمت فيها عادٌ ، ثمودَ ، واستولت عاد على زمام الزعامة في الجنوب عنوة ، ومن ثم اضطرت ثمود إلى الهجرة إلى الشمال من أرض المملكة حيث اختارت لإقامة دولتها الصناعية والزراعية الحديثة ، منطقة مدائن صالح ، ونالها غَضَبُ الرب لما استهانت

---

١ المصدر السابق .

بأوامره وطغت وبغت على نبيه صالح عليه السلام .. فأصبحت ديارها خالية تنعي من بناها إلى يوم الناس هذا . فوحدة الخطين : الثمودي والمسند تدل على أنّ مَنْشأهُمَا واحد وهو الجنوب . ومن يُدْرينا فقد تكون القبيلتان عاد وثمود ابْنَتيْ عَمٍّ ، تنافستا على الزعامة كما هو دَأبُ قبائل العرب المتساكنة في جاهلية وفي إسلام ، فأدّى تنافسهُما إلى اقتتالهما ، وإلى دحر إحداهما الأخرى ، فاستبدت القبيلة الغالبة بمقدرات المغلوبة واستولت على زمام الأمر والزعامة بدلها فاضطرت المدحورة إلى أن تهاجر إلى بلد بعيد عن الغالبة القاهرة لها .

ونذكر من هذا القبيل فيما قبل التاريخ حَوادِثَ طسم وجديس ، وفيما قبيل الإسلام حُروبَ بُعَاث بين الأوس والخزرج ، وحُرُوبَ داحس والغبراء .. الخ ... ثم حروب بني حرب اليمانين مع الربيعة التي اضطرت (حرباً) إلى الجلاء عن صعدة في سنة ١٣١ هـ إلى الحجاز واستقرارهم فيه حتى اليوم [١] .

وتدلنا البحوث وما عثر عليه من خطوط ثمودية في أنحاء الجزيرة ، على أن هذه القبيلة العربية أو الدولة العربية (ثمود) قد انتشرت في أنحاء كثيرة من بلاد العرب في الحجاز ونجد واليمن ، غير الْحِجْرِ ومدائن صالح ... وحقيقة أحوالها وانتشارها إنما تُسْتَكْشَفُ بإجراء التنقيبات الأثرية العلمية في مظانّ وجودها مُسْتَمَدّاً ذلك من كتب التاريخ ، ومن الأثريات المعثور عليها نفسها .. فالآثار تدل على بعضها .

أسماء الاشخاص الثموديين :

وأسماء الأشخاص الثموديين لا تخرج غالباً عن الأسماء العربية المألوفة

---

١ الإكليل للهمداني ، ج ١ ، ص ٣٠٧ و ص ٣١٧ ، طبعة مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م .

في الجاهلية القريبة من صدر الإسلام ، والمعروفة المستعملة في كثير من الأحيان في الإسلام : صبحه ، وظهره ، وحاضره . ومن تلك الأسماء الثمودية التي وصلت الينا : (أَوْسٌ) و (سَعْدٌ) و (عَفِيرٌ) و (أَسْعَدُ) و (إِياسُ) و (قَيْسُ بْنُ وَائِلٍ) و (بَارِحٌ) — و (مَالِكٌ) .. وغيرها ... وهي أسماء لا يزال كثير منها مستعملاً ، وكذلك : (أحمد) و (صهيب) و (مهلهل) و (هلال) و (كعب) و (حزم) و (يعلى) و (علي) و (جلال) و (أمية) .

ونرى أن بقاء استعمال هذه الأسماء إلى الآن يدلنا على أن عربية الثموديين لا تبعد كثيراً عن عربية الجاهلية القريبة من الإسلام كما يحاول المستشرقون أن يصوروه ويدعموه إن لم تكن هي بذاتها .

كما يدلنا تتبعها من مظانها على أن ذلك تم لها حينما تحررت في آخر الأمر من « تَبَعِيَّةِ » لَهْجَةِ اليمن . فلا نرى فيها (ذو) ولا (أم) بل (ال) .. لقد عدلت لهجة ثمود بحكم المجاورة والامتزاج — إلى لهجة حجازية نجدية ثمودية ، ثم اندمجت الاندماج الأكبر في العربية القرشية وغيرها منذ فجر الإسلام .. وذابت مع مثيلاتها من اللهجات إلى حَدٍّ ما ، في بوتقة هذا التراث القيم الزاخر بالقوة واللمعان .

أسماء الآلهة الثمودية :

وعدد لنا جواد علي ، أسماء الآلهة لدى ثمود .. (رضا) و (صلم) و (ود) و (جدهدد) و (شمس) و (عزيز) و (نعرجد) و (مناة) و (نهى) و (ايل) و (اللات) و (عترسم) و (عترسمين) و (كاهل) و (ملك) و (مالك) وبعض هذه الأسماء تتفق مع أسماء الله جل وعلا وصفاته

في العربية الإسلامية .. فالله ملك ومالك وعزيز [1] .. بيد أنهم كانوا قد أشركوا به تعالى غيره من الأوثان وسموها بهذه الأسماء .. وذلك شأن الجاهلية المتخبطة في أودية الجهالة والضلالة ...

الشهور الثمودية :

إن وجود التاريخ عند قوم أو أمة يدل على أنها ذات مدنية .. وقد أورد لنا التاريخ العربي أسماء الشهور الثمودية .. ومن كان ذا مدنية زاهرة باهرة مثلهم فلا بد أن يكون له تاريخ يستعمله في أعماله الخاصة والعامة ومعاملاته وأعمال ديانته وحكمه وإدارته ..

وهذه هي أسماء شهورهم الاثني عشر :

موجب ، وموجر ، ومورد ، وملزم ، ومصدر ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وديمر ، ودابر ، وحيقل ، ومسيل .

وموجب هو المحرم ، وموجر هو صفر . ويبدأ تاريخهم السنويّ في تقويمهم بديمر الذي هو شهر رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم [2] .

وأنا حينما أتأمل صيغ هذه الشهور أجد فيها رسيس لغة عربية صافية يمت أقلها إلى اليمن ، مما يدل على أن أسماء الشهور بقيت في الأقل على ما كانت عليه ، أيام كينونة ثمود في الجنوب ، وأغلبها شمالية

---

١ لعل معنى « كاهل » في الثمودية هو : « المعتمد عليه » ، ولذلك وصفوا الآله به .. وفي العربية الجاهلية القريبة من الإسلام ما يدل على هذا المعنى لهذه الصيغة . فقد ورد في تاج العروس شرح القاموس : « ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : هل في أهلك من كاهل ؟ » أي من تعتمده للقيام بشأن عيالك الصغار ممن يلزمك عوله .

٢ المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٥ .

السِّمات .. فموجب ، من كلمة (أوجب) ، و (موجر) من (أوجر) و (مورد) من صيغة (أورد)) و (ملزم) من (ألزم) و (مصدر) من (أصدر) . أما (هوبر) و (هوبل) و (موها) و (حيقل) فهي على ما يبدو لي لم تُعدّل ولم تُصْقَلْ بَعْدُ .. لقد بقيت على طابعها الجنوبي القديم الذي طبعت عليه ، أيام استيطان الثموديين الجنوب و (ذيمر) كذلك جنوبية الطابع على ما يظهر لي .. فإن علامة (ذي) موجودة فيها وهي جنوبية . و (دابر) من أدبر ضد (أقبل) و (مسيل) من (سال) أو (أسال) .

حضارة ثمود :

هذا ولعدم استكشاف حضارة ثمود إلى اليوم ، فان العالم لا يعلم عنها سوى نُتَف .. وأهمّ ما لدينا عنها ما ورد في « الذكر الحكيم » الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .. وقد كان لجهود الرحالين المسلمين القُدامى ، ومَنْ جاء بعدهم من المستشرقين المغامرين أثرٌ في استكشاف مفردات وبعض تراتيبَ مـــن حياتهم وطقوسهم ، ولكنها لا تتناول صميم تاريخ وجودهم كدولة لا في ابتداء ولا في انتهاء ، ولا تتناول النُظُم الدينيةَ والسياسيةَ والقضائية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والزراعية السائدة لديهم ، إذ لم تجر تنقيبات علمية واسعة النطاق في بلادهم بَعْدُ ، ولم يبحث العلماء عن الدفائن المطمورة في باطن أرضهم طبق ما اتّبِعَ في حفائر الفراعنة في مصر والأشوريين في العراق وغيرهم من بوائد الأمم . وعسى أن تقوم المديرية العامة للآثار التابعة لوزارة المعارف وجامعةُ الرياض وجامعة الملك عبد العزيز الاهلية بجدة بالشيء الكثير من هذا القبيل ، فتَسُدّا هذه الثغرة الكبيرة ، وتُطْلِعا العالَمَ على حضارة ضخمة سالفة مجهولة الحقائق من حضارات العرب في شمال المملكة العربية السعودية وشرقها وجنوبها وغربها إن شاء الله .

بيوت مدائن صالح

عقب قيام (نادي البحر الأحمر) في جُدة برحلته إلى مدائن صالح في أواسط عام ١٣٨٤ هـ ـ الموافق لآخر عام ١٩٦٤ م ـ عاد أعضاء النادي إلى جُدّة ، وتحدّث بعضهم عن نتائج الرحلة وما شاهدوه هناك من الآثار الخالدة . وكتب بعضهم ، في بعض الصحف المحلية آراءهم المبنية على المشاهدة والمطالعة ، فذكر أن منحوتات مدائن صالح لم تكن منازل للأحياء السكّان ، وإنما كانت مساكنَ لأمْواتهم : أي مقابرَ ومدافن وأضرِحةً .

واستند في إثبات هذه النظرية على ضيق البيوت المنحوتة ، وعلى ما أورده بعض المستشرقين الرحالين الذين شاهدوها فيما قبلُ ، وكتبوا عنها ما كتبوه إذ ذاك .

وعقب ذلك كَتَبْتُ « افتتاحية » في مجلة (المنهل) لعددها الصادر في شهر رمضان عام ١٣٨٤ هـ ـ يناير عام ١٩٦٥ م ، تحت عنوان : (الحجر أو مدائن صالح) [١] .. وقد رأيت من باب توسعة معلومات القراء عن هذا التراث الكبير ، أن أضَمّـِن مقالي هذا ، نظريات مؤرخي الإسلام ورَحّاليه وعلمائه عن هذه البيوت المنحوتة .. كما رأيتُ أن يشتمل على مُلَخّص لآراء الرحالين الغربيين أيضاً ، جمعاً بين العلم القديم والعلم الحديث ، وعرضاً للنظريات جمعاء في هذا الميدان .

كان مؤرخو الإسلام ورحالوه وعلماؤه يرون أن البيوت التي نُقِرَتْ في جبل أو جبالِ مدائن صالح هي بيوت كانت معمورة بأحياء الثموديين الذين نحتوها .. وبذلك فسروا قوله تعالى : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

---

١ هي الفصل الذي سبق هذا الفصل مباشرة في هذا الكتاب مع بعض تعديل .

خَاوِيَة بِمَا ظَلَمُوا » .. وبذلك فسّروا الآية الكريمة الأخرى : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بيوتاً » .. فخواؤها أي فراغها منهم بعد هلاكهم دليل صارخ على سكناهم فيها في حياتهم .

بل إن الرحالة المؤرخ الإسلامي الإصطخري ، صرح بأن بيوت مدائن صالح هي مثل بيوتنا وذلك عقب مشاهدته لها ..

أما الرحالون والمستشرقون الغربيون فرأيهم كان خلاف ما ذكر .. إنهم يرون أنها كانت مقابر للأموات ، ولم تكن مساكن للأحياء ... وقد أخذ برأيهم مَنْ جاء بعدهم من مؤرخي العرب وكتّابهم ، معرضين عما أجمع عليه علماء ومؤرخو أسلافهم .

وكما قلتُ آنفاً : إن بعض أعضاء النادي البحري الذين شاهدوا البيوت من كثب وعادوا مقتنعين بأنّها مقابرُ وأضرحة لا بيوت سكنٍ ، يستندونَ في إثبات رأيهم هذا على الضيق الموجود في تلك البيوت ، ثم بما أورده الرحّالون الغربيون في كتب رحلاتهم ، ومقالاتهم .

وكنتُ قد ناقشتهم في هذا الرأي ، من ناحية الضيق ، ومن ناحية رأي من سبق هؤلاء الرحالين الغربيين من مؤرخي العرب وعلمائهم الذين هم أعرف بديارهم وبآثارها وأسلافهم وأخبارها ، وألصق بهما وأقرب رُحْماً ، وقلتُ لهم فيما قلتُ : إن ضيق المنزل لا يقتضي بطبيعته أن لا يكون منزل أحياء . ففي المدن المكتظة بالسكان وغير المكتظة ، اليوم ، نرى مثل هذا الضيق . وفي المدينة المنورة ، في بناياتها القديمة التي لا يزال بعضها قائماً في حيّ « الأغوات » مثلاً ، وفي « زقاق الحمزاوي » شيء من ضيق الغُرف يتبرم به الساكن . وفي أنقاض مدينة

الفسطاط بمصر ، ما يثبت هذه النظرية ، فإن الأنقاض الباقية تدل على ضيق شديد في الغُرَفِ . والمسألة إذن مسألة اقتصاد ، وفنّ ، وذوق ، ومقتضى حال وعصر ، ولنا خير مثال في بعض شقق[1] العمارات السكنية اليوم بالعالم الحديث .

وقد كنتُ ، زيادة في تنوير الموضوع من جميع جوانبه ، قد أبديتُ لمحدّثي أني إنما أحدّثه بما قرأته . والاقتناع بحقيقةِ كونها بيوتَ أحياءٍ أو أمواتٍ هو رهن بقراءة جميع العبارات التي دُوّنتْ فيها وعنها ، ثم بحفر الحفائر في السهل المجاور لها .. وذلك لأنّ (البيت) في اللغة العربية يشملُ بَيْتَ الحيّ والميْتِ معاً ، ولأنّ جورجي زيدان ينصّ على أنّ العبارات المنقوشة لم تُقرأْ كلّها في المدائن ، حسب النص الذي في كتابه .. ذلك ما كان إذ ذاك .. ثم أراد الله أن يقع في يدي كتابُ (آثار الأردنّ) تأليف (لانكستر هاردنج) مدير دائرة الآثار الأردنيّةِ لمدة عشرين عاماً ، إلى عام ١٩٥٦ م . ولانكستر هاردنج هو أحد خبراء الآثار العالميين ، فقد عمل في الأحافير أولاً مع (السير فلندرز بتري) سنة ١٩٢٦ م ، وظل يعمل حتى سنة ١٩٣٢ م ، في منطقة غزة من فلسطين . ثم عمل مدة أربع سنوات مساعداً لمدير بعثة (ول كم) للتنقيب عن الآثار في الشرق الأدنى . وقد عملت هذه البَعْثَةُ في (تل الدوير) حتى عام ١٩٣٦ م وفي العام نفسه عيّن مفتشاً للآثار في إمارة شرقيّ الأردن (المملكة الأردنية الهاشمية) الآن ، وعندما استقلت الأردن عام ١٩٤٦ م ، وأصبحت تُعرف باسم المملكة الأردنية الهاشمية أبْدِلَ اسمُ وظيفة (هاردنج) فأصبح (مُدِيرَ الآثار) . وفي عام ١٩٤٨ م ، بعد نكبة

---

[1] الشقة في اللغة العربية (بضم الشين) ومن معانيها القطعه المشقوقة من أي شيء كان .. ويصح على هذا تسمية جانب من البيت والعمارة السكنية باسم الشقة على ما عليه عرف الناس اليوم .

فلسطين ، أضيفت آثار الضّفّةِ الغربية إلى المنطقة التي تشملها مسؤوليات (هاردنج) .. ومن جملتها : خرائب (قمران) ، والكهوف التي اكتشفت فيها (مخطوطات البحر الميت) . ولا يزال هاردنج يعيش في لبنان قريباً من منطقة تجاربه وإدارته فيما سبق . وقد أخذنا هذه المعلومات عنه — من الكتاب الذي ألّفَهُ هو نفسه والذي ترجمه إلى اللغة العربية سليمان موسى ، ونشرته اللّجْنَةُ الأردنية للتعريب والترجمة والنشر ، وتولّت إخراجَه مجلةُ (رسالة المعلم) بالأردن وهو كتاب (آثار الأردن) . وقد طالعت الكتاب من أوله إلى آخره ، فإذا هو دسم مشحون بالمعلومات القيمة التي تُهِمّ معرفتها العالم الأثري العربيّ ، ولا سيما إذا كان من أهل هذه البلاد . لأنه يستنشق من خلالها روائح التاريخ العريق للجزيرة في شمالها المتصل ، طَبَيْعِيّاً ، بغربها وشرقها وجنوبها قديماً وحديثاً ، بما يلمسه في ثنايا فصول الكتاب عن آثار شرق المملكة الأردنية الهاشمية من وُجودٍ مماثلٍ لما في شمال المملكة العربية السعودية من آثار وأعمال وحياة ومجتمع عريق .

وقد ألفيتُ في الكتاب ما أكّدَ لي صحة ما ذهب اليه قدامى مؤرخي الإسلام وعلماءِ العرب من أن بيوت مدائن صالح هي بيوت سَكَنٍ لأحياء الثموديين الشماليين ، خُلَفَاء العاديين : الجنوبيين الذين هم (عاد) وجيران النبطيين الذين يقطنون بشمالهم أيضاً .

ولقد تحدث المستر (هاردنج) مرتين في كتابه المذكور عن بعض البيوت المنحوتة في (النبطية) بجبال الأردن ومدائنه . وكانت أولى المرتين في الصفحة (١٠٧) أثناء حديثه عن (خربة التنور) النبطية ، ووصف لنا (التل العالي) الذي يوجد على قمته هيكل نبطي يُدْعَى اليوم باسم (خربة التنور) . وصخور هذه المنطقة من النوع الجيري ، الذي يشبه صخور مدائن صالح تماماً .

أما قوله : « وينساب تحت الخربة جداولُ الماء على مدار السنة وترصع جنباته أشجار الدفلى » فهو تماماً كما ينساب الماء في جداول تحت صخور مدائن صالح في ذلك السهل المملوء اليوم ، بأشجار النخيل ، والذي لا ندري بماذا كان يمتلئ ، أيام عُمّاره الثموديين ، من الأشجار . . وإن كنا نرجح أنه النخيل ذاته مضافاً اليه مزارع القمح والفواكه والأزهار وغيرها مما يطعمون ويستنشقون ويعصرون . ويقول : « ويعود الهيكل — هيكل خربة التنور — إلى القرنين الأول ق. م. ، والأول ب. م. » . وكذلك تعود مباني مدائن صالح إلى وقت لا يبعد كثيراً عن ذلك التاريخ . فإنّ جرجي زيدان في كتابه (العرب قبل الإسلام) يقول : « إن مدائن صالح (الْحِجْر) دخلت قبيل تاريخ الميلاد في حوزة النبطيين سكان (بطرا) بدليل ما في أطلال هذه المدن من الكتابة النبطية »[1] .

ويقول هاردنج — وهو محل الشاهد — : « تنبسط أمامه ساحة خارجية مبلطة يقوم في زاويتها الشمالية الشرقية مذبح كبير ، وإلى الشمال والجنوب عدد من الحجرات الصغيرة يُعْتَقَدُ بأنها كانت منازل لكهنة الهيكل » .

وإذن فالحجرات الصغيرة التي بمدائن صالح لا يستحيل أن تكون منازل لثمود . فقد كانت الحجراتُ الصغيرةُ قرب البتراء منازل لكهنة الهيكل . إنّ ضيق المساحة يجمع بين هذه الكهوف المنحوتة والمدائن و (سلع) . ثم يفيدنا (هاردنج) بأنه يقوم على الجانبين عدد من الأضرحة يُمَيِّزُ أكثرُها بعلامة (خطوة الغراب) : شعار الأنباط التقليدي . ولكن يجب أن لا يسود الاعتقاد بأن كل كهف نُقِرَ في

---

[1] العرب قبل الإسلام ، ص ٧٨ ، طبعة مصر . ونرى جرجي زيدان يقول : « بطرا » وإنما هي « البتراء » بالتاء .

الصخر هو ضريح ، فكثير من هذه الكهوف كان يستعمل منازل ومساكن . حتى إن بعضها يتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق . » ص ١٢٨ .

وهذا النص من هذا العالم الأثري المعاصر الواقف على آثار الانباط وقوف الدارس الفاحص لها من كثب زهاء ربع قرن ، هو دليل واضح كفيل بهدم النظرية القائلة : (إن بيوت مدائن صالح مقابر) .. استناداً إلى ضيق مساحتها ، كما أن فيه إشارةً بتماثلها من حيث البناء الطبقيّ مع مساكن مدائن صالح . فبعضُ كهوف سَلْع أو البتراء على طابقين ، وبعضها على ثلاثة ، كما هو الشأن في كهوف مدائن صالح على ما بَلَغَنا [١] .

وأيّاً ما كان نوع صخور جبال البتراء ولونها ، فلا بد أنها هَشّةٌ من النوع القابل للتكييف والنحت كما هو الشأن في صخور مدائن صالح . فكلها في شمال الجزيرة متجاورة ، والمنطقة تكاد تكون واحدة إن لم تكن واحدة فعلاً . وقد شاهدنا جبال تيماء وما قبلها من الجبال في الشمال فاذا هي كلها من هذا النوع الجيريّ الهش ، وكذلك نلاحظ هنا أن الأنباط قد بسطوا سلطانهم على مدائن صالح قبيل تاريخ الميلاد كما رواه جرجي زيدان في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) ، كما نلاحظ تشابه النحتين ، في وضع شعار الأنباط التقليدي على منحوتات كهوفهم في (سَلْع) ، تماماً ، كما وضع الثموديون والانباط مِنْ بَعْدِهِمْ ، الشعارات على منحوتات كهوف مدائن صالح . وكما تسرب الوهم العلمي إلى أنّ منحوتات مدائن صالح ، مقابرُ كذلك تطرق الوهم

---

١ قد لا يكون من باب التخمين الأجوف أن وراء الأمكنة الظاهرة للعيان المنقورة في الصخور بمدائن صالح أماكن أخرى لم تستكشف بعد ، والأحافير العلمية كفيلة باظهار الحقائق المجهولة اليوم .

إلى كهوف سلع . وقد رفع غطاءَ هذا الوهم عنا (هاردنْجُ) وأوضح لنا أن كهوف سلع ، هي مساكن لقومٍ أحياء ، وما الذي يمنع أن تكون كهوف مدائن صالح كذلك ؟..

و (البتراء) في اللغة اليونانية بمعنى (سلع) في لغة الأنباط ، وكلتاهما بمعنى (الصخرة) أو الشّق في الصخرة ، في اللغة العربية . وهو اسم ينطبق على المسمى تماماً . وهي من هذه الناحية شبيهة بمدائن صالح . وهكذا نتوصل من هذا النص الأثريّ الذي عثرنا عليه أخيراً — لخبير أثريٍّ معاصر — إلى دَعْمِ النظرية الإسلامية القائلة إن بيوت مدائن صالح هي مساكن أحيائهم .

وأضيفُ إلى ذلك ، من عندي — من باب التوفيق بين النظريتين : الإسلامية العربية ، والغربية — أنّ هذه الكهوف بمدائن صالح ، ربما تكون قد عادت بعد أمد وبالتدريج ، إلى مساكن أمواتهم ، الذين كانوا يقطنون فيها وهم أحياء ، ومِنْ ثَمّ نُقِشَتْ عليها العبارات والشعارات الباقية إلى اليوم التي تدل على أنها مقابر لهم . وهذه نظرية أعتقد أن فيها كثيراً من التوفيق العلميّ بين الرأيين القديم والحديث في هذه المسألة إن شاء الله .

موطن شعيب عليه السلام

شعيب في القرآن المجيد :

كلمة « شُعَيْب » : تصغير واضح لكلمة « شَعْب » بفتح الشين أو كسرها ، أو أشعب . ولِشَعْب — مفتوحة الشين — معانٍ نورد بعضها فيما بعد . ولِشِعْب — مكسورة الشين — معان أخرى سيأتي بعضها في محله .

ومشتقات مادة : « شعب » كثيرة . وقد دونت في « معاجم » اللغة ومنها « الشِّعْبُ » بمكة معروف — وسمى العرب « شعبة » : المغيرة ابن شعبة ، و (أشعب) . وفي اليمن قبيلة اسمها من هـذه الصيغة .

ولشعيب قصة رائعة من قصص بسالة الأنبياء المرسلين في تبليغ رسالات ربهم . وكانت قصته ، مع قومه « مَدْيَنَ » . وفي هـذه القصة التي كررها القرآن ليتمكن الاعتبار بها في نفوس المشركين من العرب وغيرهم ورد اسم « شعيب » عشر مرات : في سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء .. وينبغي أن نلاحظ أن هذه السّوَر كلها « مكّية النزول » .. وفي كل مرة يذكر اسمه مجرداً عن ذكر أيّ شيء من نسبه اللهم إلا أنه كان أخا مدين . و « مَدْيَنُ » تعني في أكثر الآي القرآنية : القبيلة التي بعث الله شعيباً اليها .. وهناك آية بسورة « التوبة » يبدو من سياقها أنها تعني بمدين : المدينة التي كانت تقيم فيها قبيلة مدين — من باب المجاز المرسل — إذ في هذا ، إطلاق اسم الحالّ على المحلّ . ومثلها اسم « يثرب » الذي كان علَماً على المدينة المنورة قبل الإسلام . و « مِنىً » في رأي بعض علماء الآثار .

وقد ورد اسم « مدين » عشر مرات في القرآن ، تماماً ، كما ورد اسم « شعيب » فيه عشر مرات . وينص القرآن على حمل شعيب لرسالة ربه إلى قومه .. فآمن به فريق فنجوا ، وكذب به قوم فأهْلِكُوا بعذاب

من الله جل وعز .

والآي القرانية الكريمة التي تحدثت عن قصة شعيب وقومه هي خمس وثلاثون آية .. منها تسع آيات في سورة « الأعراف » وقد بُدئت بقوله تعالى :

« وإلى مَدْيَنَ أخَاهُم شُعَيْباً قَالَ يَا قَومِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِن آلهٍ غَيْرُهُ » ..

واثنتا عشرة آية في سورة (هود) وقد بُدئت بقوله تعالى أيضاً :

« وَإلى مَدْيَنَ أخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ آلهٍ غَيْرُهُ » ..

وأربع عشرة آية في سورة « الشّعراء » وقد افتتحت بقوله تعالى :

« كَذّبَ أصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ألاَ تَتّقُونَ » ؟..

مَدْيَنُ في القرآن :

في ست سور كريمة ورد اسم مدين .. هي سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة التوبة ، وسورة طه ، وسورة الحج ، وسورة الشعراء . وكلمة : « مدين » في كل هذه السور — ما عدا سورة التوبة — تعني — على ما نرى — قبيلة مدين .. بدليل قوله تعالى : « وَإلى مَدْيَنَ أخَاهُمْ شُعَيْباً » أي : وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً .

أما مدين « في سورة التوبة » فيبدو من سياقها ، كما أسلفنا ، أنها تعني (مدينة قبيلة مدين) ونص الآية : « ألَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إبْرَاهِيمَ وَأصْحَابِ مَدْيَنَ » الآية (٧٠) .

ومن رأيي أن مؤلف كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» جواد علي ، لم يحسن التأمل في هذه الآية الكريمة حينما قال : «إنــه ورد اسمهم — أيْ قبيلة مدين — في سورة التوبة [1] » . ففيما يبدو جلياً إن المراد بمدين في هذه الآية بالذات هو «المدينة» أو الماء . على ما ذكره ابن الجوزي في تفسيره ، لا «القبيلة» . وبدليل إضافة صيغة (أصحاب) إلى (مدين) فيها . وكلمةُ (أصحاب) هذه إذا أضيفت إلى اسم فهي غيره [2] .. فإذا كان ، مكاناً ، كانت إضافتها إلى ذلك المكان ، وإذا كان اسماً أو علماً عـلى شخص كَمُوسَى كانت تؤدي معنى الانتساب اليه وهي غير المضاف اليه على كل حال .. (ومدين) القبيلة ليست عَلَماً على شخص في عهد رسالة شعيب ، فتَعَيّنَ أن تكون وهي بعد كلمة (أصحاب) اسماً للمدينة أو الماء ، ولا يصح أن نؤولها بمعنى القبيلة .. إذَنْ لاختَلّ المعنى .. وصار هكذا : (أصحـــاب القبيلة) وأصحاب القبيلة شيء آخر غير القبيلة .. وليس هذا هو المراد طبعاً ... وإنما المراد — والله أعلم — بالأصحاب ، هم قبيلة مـــدين ذاتها . ونسبة (أصحاب) الذين يُعْنَى بهم القبيلة إلى (مدين) يجعل (مدين) لا محالة اسماً للمدينة التي هم أصحابها أي أهلها وسكانها ، أو اسماً لمائهم . قال تعالى في مثل هذا المعنى : «وَأولَئكَ أصْحَـــابُ النّارِ» .. «كَمَا لَعَنّا أصْحَابَ السّبْتِ» .. «أولَئِكَ أصْحابُ الْجَنّةِ» .. «وَنَادَى أصْحَابُ الأعْرَافِ» .. «أمْ حَسِبْتَ أنّ أصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرّقِيمِ» .. «فَأنْجَيْنَاهُ وَأصْحَابَ السّفِينَةِ» «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أصْحَابَ الْقَرْيَةِ» .

---

[1] ص ٣١٦ ، المجلد الأول .

[2] هذا التحليل من عند مؤلف هذا الكتاب .

شعيب .. ومدين .. في تفاسير القرآن :

في تفسير «ابن كثير» أن (قوم شعيب وشعيباً هم من سلالة «مدين» بن ابراهيم ، وان مدين تطلق على القبيلة والمدينة ، وانها بقرب معان[1] من طريق الحجاز ، وقال عن (أصحاب الأيكة) في قوله تعالى عن رحلة موسى : «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ» : قال : إنهم هم أصحاب الأيكة والأيكةُ — لغةً — الغيضةُ .

وفي تفسير «البغوي» أن (شعيباً كان أخاهم في النسب لا في الدين) وساق نسبه هكذا : «شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم وأم ميكائيل بنت لوط» .

ومن رأي الدكتور جواد علي في كتابه : «تاريخ العرب قبل الإسلام» أن هذه النسبة أخذها العرب المسلمون عن غيرهم .

وفي تفسير «المراغي» عكس رأي «البغوي» ، فهو يقول : إن شعيباً ليس من مدين في النسب . وهذا الرأي ربما كان يوصلنا إلى التواؤم في بعض النقط مع رأي «الهمداني» في «الإكليل» الذي يجعل شعيباً يماني الأصل .

شعيب ومدين .. في مراجع اللغة :

إذا رجعنا «شعيباً» إلى «الشَّعْبِ» — بفتح الشين — فهو عربي فصيح وأصيل . وكذلك الأمر إذا أعدناه إلى «الشِّعْبِ» مكسور الشين . أو إلى «أشعب» . ومن معاني الشَّعْب — بفتح الشين — :

---

[1] الحقيقة أنها بقرب العقبة . ومعان بعيدة عنها .

أبو القبائل ، أو ما تشعب من القبائل قديماً ، والأمة المتكاملة حديثاً :
ومن معاني الشَّعْبِ – بالفتح – أيضاً : الإصلاح والتفريق [1] . ومن معاني الشِّعْب – بكسر الشين – الطريقُ في الجبل .

ومعلوم أن « الشُّعْبَةَ » و « الشُّعَيْبَةَ » موضعان معروفان في هذه البلاد . وشعَيْب عليه السلام وقومه ومدينتهم (مَدْيَنُ) أو ماؤهم من أهل هذه البلاد . كما سيأتي بيانه .

ويقول صاحب « القاموس المحيط » : إن « شُعَيْباً ، من الأنبياء »[2] .
ويقول « تاج العروس » في شرحه لما ذكره صاحب القاموس هنا :
إن شعيباً اسم عربيٌّ يمكن أن يكون تصغير أشعب كما قالوا في تصغير « أسود » : سُوَيْدٌ . وهو تصغير الترخيم .

ويقول صاحب « لسان العرب » : إن مدين اسم أعجميّ ، وإن اشتققته من العربية فالياء زائدة .. ومَدْيَنُ : اسم قرية » شعيب » [3] .
وفي القاموس : (مَدْيَنُ قرية شعيب) .

وفي « معجم متن اللغة » ان (مدين قرية شعيب [4]) .

شعيب ومدين .. في المراجع التاريخية :

في تاريخ (الطبريّ) : أن شعيباً بُعِثَ بعد النبيّ أيوب ، من أحفاد إبراهيم عليه السلام . وساق نسبه هكذا : « شعيب بن صيفون

---

[1] لسان العرب ، ص ٤٩٨ ، المجلد ١ ، طبعة بيروت .
[2] ص ٩٢ ، المجلد الأول ، مطبعة مصطفى الحلبي .
[3] لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٤٠٣ .
[4] ص ٢٦٤ ، مجلد ٥ ، وهذا المعجم هو تأليف أحمد رضا .

ابن عنقاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم» . وأشار الطبري إلى الاختلاف الواقع في عمود نسب شعيب . ونعطف على ذلك القول بأنه اختلاف شديد وبارز السمات ، جداً .. مما يدلنا على عدم الدقة في ضبط سلسلة هذا النسب .. فبعض المؤرخين يعيد نسبه إلى العرب ، ويسمي آباءه بأسماء عربية كالطبري والهمداني والزركلي .. وبعضهم يوصل هذا النسب إلى غير العرب ويسمي آباءه بأسماء عبرانية : يثرون ، ميكائيل .. والظاهرة الجلية في هذا كله هي عدم استقرار المؤرخين على حقيقة نسب شعيب إلى جِذْمٍ واضح حتى من يسمون آباءه منهم بأسماء عربية هم شَدِيدو الاختلاف في هذه الأسماء .. فهل شعيبٌ النبيّ العربيّ غير شعيب : (يثرون) ؟

أما قول (الطبري) : إنه كان ضرير البصر أو ضعيفه على رواية ، استناداً إلى قوله تعالى عنه على لسان قومه : «وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً »[1] .. فنحن لا نرى هذا الرأي ، ونرى أن « ضعف شعيب» الذي يلمزه به قومه هو «ضَعْفُ حالة اجتماعية وقَبَلِيّة لا ضعفُ بَصَرٍ . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وقد جاء فيه في آية أخرى : «وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» .

ومعنى هذا أنهم يرونه مستضعفاً فيهم بالنسبة لقوتهم الاجتماعية ، ولنفوذهم .

ويقول الهمداني صاحب «الإكليل» : إن شعيباً النبيّ ينتمي إلى أرومة اليمن .. فهو من قوم صاحب الإكليل نفسه . وعزا الهمداني إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه أبياتاً ، نسب فيها شعيباً إلى بني قحطان

---

١ تاريخ الطبري ، ص ٢٢٨ ، المجلد الأول ، مطبعة الاستقامة بمصر ، سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م .

باليمن هي :

فنحن بنو قحطان والملك والعلا
ومنّا نبيّ الله هودُ الأخاير
وإدريس ما إن كان في الناس مثله
ولا مثل ذي القرنين أبناء عابر
وصالح والمرحوم يونس بعدما
ألاتَ به حوتٌ بأخلب زاخر
« شعيب » والياس وذو الكفل كلهم
يمانُونَ [1] قد فازوا بطيب السرائر

ونلاحظ على هذه الأبيات أموراً ، منها أن أسلوبها ليس قوياً . ووردت فيها كلمة « المرحوم » والمفهوم أنها « مولدة » فإن كان هذا الشعر ، شعر حسان بن ثابت حقاً ، فهو نص على أصالة الكلمة ، وصحة التعبير بها .. وليست هذه الأبيات في ديوان حسان المطبوع والموجود لدينا . ولا نتهم الهمداني بالتقول على حسان ، ولكن السهو والانتحال موجودان في الرواة من قديم الزمان ... فقد تكون الأبيات رُويَتْ عن حسان للمؤلف ، وهي منحولة ، ولم يمحص الهمداني نصها ولم يفحص رواتها لأنها وافقت مبدأً له .. والإنسان بَشَرٌ يخطئ ويصيب على كل حال .

والهمداني ينسب « شعيباً » هكذا : « شعيب بن مهدم بن ذي مهدم ابن المقدم بن حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن يسدد بن زرعة ، وهو حمير الأصغر » .

---

1 اعتاد الكتاب حديثاً أن يكتبوا جمع « يماني » هكذا : « يمانيون » بالياء.. والفصيح في هذا حذف الياء الأخيرة فيقال : « يمانون » . يمانين . الكتاب لسيبويه .

ويضيف الهمدانيُّ (لسانُ اليمن) إلى ما ذكر أن بخت نصر كان أخذ بثأر نبيّ الله شعيب من العرب في غزوه لبلادهم .. ولا ندري أيّ ثأر يقصد ؟ فهل قتل العرب شعيباً في مدين أو في مكان آخر من ديارهم ؟ ومن هو هذا النبيّ الذي قتله العرب ؟ وهل لبختنصر صلة ما بشعيب النبيّ ؟ أو بقومه ؟..

والوارد في القرآن المجيد أن ُشعيباً سلم مع من آمن به من هلاك يوم الظّلّةِ وهلك الكافرون به وحدهم .. والمذكور في التاريخ انه توفي ودُفِنَ في قرية الحيارة أو خربة شعيب أو مغاير شعيب .

ويعود الهمداني فيؤكّد لنا في الجزء الثاني من كتابه: (الأكليل) نسبة شعيب إلى اليمن فقبيلته عنده : (الأوزاع) . وسلسل شجرة نسبه هنا — نازلاً — من أعلى حتى أبيه ، بعدمـــا سلسلها فيما تقدم ، منه — صاعداً — إلى الجد الأعلى قال : « قال أبو نصر : وأولد المقدم بن حضور ، ذا مهدم بن المقدم . غيره وخولان بن المقدم .. فولد خولان النسيء والكبار والأجراد . وأولد ذو مهدم بن المقدم : مهدم بن ذي مهدم فأولد مهدم بن ذي مهدم : شعيباً النبي صلى الله عليه وسلم ابن مهدم بن ذي مهدم . ومسجده اليوم في رأس جبل حدة » .

ونظرية الهمداني هذه أو روايته تتفق من وجه مع رواية من يقول : إن شعيباً لم يكن من أحفاد إبراهيم ، لأنه بمقتضاها — قحطاني ، أي من العرب العاربة لا المستعربة التي جدّها إبراهيم عليه السلام .. على أن أولئك الذين يرون هذا الرأي يختلف معهم الهمداني في نقطة حساسة .. ذلك أنهم يرفعون نسب شعيب العربي من جهة أمّه إلى ابنة لوط .. ولهذه الجدة للأم صلة قرابة مع إبراهيم عليه السلام . وهذا إضافة إلى نسبته العمومية إلى إبراهيم فهو إذن عنده : ابن إبراهيم من أبويه : الأب والأم .

وإذا أخذنا بوجهة نظر الهمداني ، وهو رجل حصيف ، وإن كنا نأخذ عليه في مؤلفه « العنصريةَ » البارزة التي مَنَحَتْهُ أو مُنِحَ لأجلها لقب (لسان اليمن) .. فإنه بإمكاننا أن نجعل شعيباً أخاً مدين ، من مهاجرة اليمن .. أي من مهاجري الجنوب إلى الشمال من بلاد العرب .. وقد كان المَدْيَنيّون أيام هجرتهم ، ذوي قلة وضعف ماديّ أشار اليهما القرآن ، حيث كَثّرهم الله وأغناهم ، فبغوا في الأرض فساداً ، وكفروا بالله وبأنعمه عليهم .. فأنذرهم رسولهم وأخوهم شعيب بوخيم مغبة كفرهم وفسادهم فلم يرتدعوا . فأنزل الله عليهم صاعقة من ظُلة أخذتهم بها رَجْفة ، فدمرتهم تدميراً .. وبقي المؤمنون منهم بمنجاة من هذا العذاب العظيم ، وعلى رأسهم النبيّ المرسل اليهم شعيب صلى الله عليه وسلم . وقص الله علينا قصتهم للاعتبار والادكار .

و (يمانيةُ شُعيبٍ ومَدْيَنَ) لا يناقضها ما جاء في كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » من أن التوراة لم تبين مناطق إقامتهم ، حيث غيروها مراراً[1] ، ومما يلفت نظر المؤرخ إلى أن المدينين كان عدم الاستقرار يلازمهم ، ثم لمّا استقروا واستثمروا خيرات البلاد طغوا وبغوا ، فكان عليهم ما كان ...

ولخير الدين الزركلي في (الأعلام) رأيٌ في نسب (شعيب) وفي أصله فهو عنده عربي صميم ، من نسل إبراهيم عليه السلام .. ومعنى ذلك أنه من العرب المستعربة . ويتفق في رفع نسبه إلى إبراهيم مع رأي ابن كثير والبغوي وابن الجوزي في تفاسيرهم ، ومع الطبري في تاريخه ، ويختلف جداً ، مع الهمداني ، الذي يرى أن شُعيباً قحطانيٌّ .

يقول خير الدين الزركلي : « إن شعيباً كان بعد هود وصالح وقبل

[1] وربما لم تتعرض لهم التوراة أصلا ، فما كل شيء تعرضت له .

أيام موسى » . وكونه بعد هود وصالح قد دلت عليه نصوص هـذه الآيات القرآنية الكريمة : « وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » (سورة هود) .. وأما أنه كان قبل أيام موسى فلا يتفق مع تفاسير أغلب المفسرين ولا مع أقوال المؤرخين ، وإن كان قال به بعضهم .

هذا وقد وردت في (الأعلام) شجرة نسب جديدة لشعيب غير ما سبق وروده .. فهو (شعيب بن نوفل بن رعبيل بن مر بن عنقاء) . أسماء عربية صريحة .. ولكنها بمَنأىً عن أسماء آباء شعيب التي ساقها الهمداني في (الإكليل) .

وتتلامس آراء (كلاسر) و (خير الدين الزركلي) و (الهمداني) في أن مدين قبيلة عربية ... ويختلفون في مَنْشَئِها ، أو هكذا يبدو . فعند كلاسر ، هم (دوحة من الهكسوس) أو قبيلة من قبائل المعينيين . والمعينيون يمانون . وعند الهمداني أن شعيباً يماني أو زَاعيّ . وعلى هذا يمكن أن نقول تَبَعاً لهذه النظرية : إن (مدين) يمانية إذا ثبت أنها قبيلة شعيب .. وهو ثابت بنص القرآن .. وعند الزركلي أن شعيباً عربي بدون تفصيل .. وهذا يحتمل أن يكون يمانياً وغير يماني .. وقد يرجح كونه يمانيّاً هنا ما نعلمه من استمرار هجرة اليمانين خاصة والجنوبيين عامة من العرب ، على وجه العموم ، إلى شمال الجزيرة خلال القرون حتى عصرنا الحاضر .. بأسباب ودَوَاعٍ شتى ، ليس هذا محل الخوض فيها ...

وهناك (نقش لسرجون العراقيّ) يذكر فيه أسماء القبائل العربية ، بتخوم الشام التي غزاها فنال نصراً حاسماً عليها ، ومنها قبيلة تنزل

منطقة مدين على ما خمنه الباحثون [1] .

هذا وقد زاد عبد الوهاب النجار شقّة الخلاف سعة في أصل شعيب وموطنه إذ أورد في آخر الفصل الذي عقده له من كتابه : « قصص الأنبياء » قوله : « وبقيت مسألة وهي أن حضرموت بها قبر يقول أهل البلاد إنه : قبر شعيب عليه الصلاة والسلام ، وهو يقع في شبام ، يبعد عنها ساعتين بعد أن يمر السائر اليه بوادي ابن علي ، ويخلص السائر إلى سهل بعد الوادي ، وليس بجانبه عمران . ولا يُقْصَدُ ذلك القبر إلا للزيارة . وشبام تقع في غربيّ مدينة سَيْوُون) . ويعطف النجار على هذه الرواية بقوله : (وإني أشك في أن القبر لنبي الله شعيب) [2] .

ويرى ابن خلدون أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم عليهما السلام وزوج ابنة مدين بن إبراهيم فكان منهما أهل مدين الأمة المعروفة [3] وولد مدين عيفا وعيفين الخ ... من زوجته قنطور ابنة لوط [4] وقد غلب بنو عيصو بني مدين على بلادهم إلى أيلة [5] .

وهكذا نجد شخصية (شعيب) عليه السلام ، وشخصية قبيلته (مدين) يكتنفهما اضطراب روايات المؤرخين في حقيقتهما وأصلهما ونسبهما وموطنهما الأول .. فشعيب عند أكثر المفسرين ينتمي إلى قبيلة مدين ابن إبراهيم عليهما السلام . وعند بعض المؤرخين ينتمي إلى اليمن ، وعند الحضارمة حضرميّ المدفن . ومدين عند بعضهم ، وهو (يوسفوس)

---

١ تاريخ الجنس العربي : لمحمد عزت دروزة ، ج ٥ ، ص ٣٣٤ ، المطبعة العصرية ببيروت.

٢ قصص الأنبياء ، ص ١٣٠٢ ، مطبعة مصر .

٣ تاريخ ابن خلدون ، المجلد الثاني ، ص ٦٨ ، طبعة بيروت .

٤ نفس المصدر ، ص ٧٠ .

٥ نفس المصدر ، ص ٧٩ .

إنما استقروا في منطقتهم المعروفة بعد ضعفهم ، وهم عند « كلاسر » دوحة من الهكسوس أو قبيلة من قبائل المعينيين (الجنوبيين) . ولم يختلف أحد من المفسرين والمؤرخين في أنّ موطن قبيلة مدين هو بشمال المملكة وفي داخل حدودها الحالية بالذات .

هل موطن شعيب في المملكة العربية السعودية ؟

ذكر ابن هشام في سيرته ، مدينة (مدين) في معرض حديثه عن غزوة زيد بن حارثة لجذام في حسمى [1] .

وكرر جواد علي ما أورده الهمداني والسمهوديّ من أن مدينة مدين كانت في صدر الإسلام من مناطق جُذام ، وأنها كانت أكبر من تبوك ، وأن بها البئر التي استقى منها موسى ، وأنه كان بمدينة مدين في عَصْرِ كُثَيِّرِ عَزّةَ الشاعر ، جماعةٌ من الرهبان يتعبدون ويبكون من حذر العقاب [2] .

ويروي جواد علي ، عن المؤرخ يوسفوس أن «موسى ذهب إلى مدينة (MADIANA) . ومعنى هــذا أن مدينة كانت موجودة في القرن الأول للميلاد ، تعرف باسم مدين» . وهذه الرواية تنقض ما جاء في كتاب (الأعلام) للزركلي من أن شعيباً كان قبل موسى عليهما السلام حسب ما نقلناه آنفاً .

ولنا ملاحظة منصبة على تعليق المؤلف على قول يوسفوس : « بأن مدينة مدين كانت موجودة في القرن الأول للميلاد) . وتعليقنا على

---

١ حسمى : موقع في تلك الجهة معروف الآن .

٢ تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣١٧ و ٣١٨ ، المجلد الأول .

تعليقه هو : أنّ هذا ربما كان سهواً من جواد علي — فلا يمكن أن يكون موسى عليه السلام قد زار هذه المدينة في القرن الأول للميلاد . للبون الشاسع بين زمن موسى وزمن عيسى عليهما السلام كما هو معروف في التاريخ ، فمعلوم أنّ موسى كان قبل ميلاد عيسى بقرون وبالتالي لا يدل ما ذكره يوسفوس على بقاء مدينة مدين إلى القرن الأول للميلاد .

ويقول ابن خلدون عن مدين القبيلة التي تنتسب إلى مدين بن إبراهيم: (فكان منهم — من أولاد مدين — أمة كبيرة ذات بطون وشعوب ، وكانوا من أكبر قبائل الشام وأكثرهم عدداً . وكانت مواطنهم تجاور أرض معان من أطراف الشام ، مما يلي الحجاز ، قريباً من بُحَيْرَةِ قوم لوط . وكان لهم تَغَلّبٌ بتلك الأرض فعتوا وبغوا وعبدوا الآلهة، وكانوا يقطعون السُّبُلَ ، ويبخسون المكيال ، وبعث الله فيهم شعيباً ، نبياً ، منهم . وهو ابن نويل بن رعويل بن عيا — عيفا — ابن مدين .. قال المسعودي : مدين هؤلاء من ولد المحضر بن جندل ابن يعصب بن مدين ، وان شعيباً أخوهم في النسب ، وكانوا ملوكاً عدة يسمون بكلمات أبجد إلى آخرها . وفيه نظر . وقال ابن حبيب : في كتاب البدءِ : هو شعيب (بن نويب) بن أحزم بن مدين . وقال السهيلي : شعيب بن عيفا ويقال ابن صيفون . وشعيب هذا هو شعيبُ موسى الذي هاجر اليه من مصر أيام القبط ، واستأجر موسى على إنكاح ابنته إياه على أن يخدمه ثماني سنين ، وقال الصيعمري : الذي استأجر موسى وزوجته هو بثر بن رعويل . ووقع في التوراة أن اسمه يبثر ، وأن رعويل أباه أو عمه هو الذي تولى عقد النكاح . وكان لمدين هؤلاء مع بني إسرائيل حروب بالشام ، ثم تغلب عليهم بنو إسرائيل وانقرضوا جميعاً [1] .

---

١ تاريخ ابن خلدون ، المجلد الأول ، ص ٨٠ و ٨١ ، طبعة بيروت ١٩٥٦ م .

وعَرّفَ ياقوت الحمويّ في « معجم البلدان » — مَدْيَنَ — هكذا : (مدين — بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحت آخره نون — قال أبو زيد : على بحر القلزم ، محاذية لتبوك ، على نحو من ست مراحل . وهي أكبر من تبوك . وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب . قال : رأيت هذه البئر مغطاة ، قد بُنِيَ عليها بيت ، وماء أهلها من عين تجري . ومدين : اسم القبيلة[1] .

هذا ولا نعلم شيئاً عن المكان الذي ولد به « شعيب » .. هل هو في أرض مدين أو في أرض اليمن ، كما يفهم من فحوى رواية الهمدانيّ ، أو في حضرموت كما يشم من رواية عبد الوهاب النجار .. أما عن وفاته فقال بعضهم — وهو ياقوت الحموي — إن قبره كان في « خيارة » : قرية قرب طبرية ، من جهة عكا ، قرب حطين[2] .. وقد أورد جواد علي في كتابه : (تاريخ العرب قبل الإسلام) إشارة إلى هذا الرأي .. وهذا ربما يومئ إلى أنه توفي بتلك القرية التي دفن بها .

كما أفادنا جواد علي ، بأن « بول » يرى أن المدفن المذكور لشعيب هو « خربة مدين » .. ولا نستبعد أن يكون مكان دفنه بقرية (خيارة) التي اعتراها الخراب فيما بعد ، فَدُعِيَتْ (خربة مدين) .. أو عرفت بهذا الوصف المنطبق على حالتها بعد خرابها ...

ونقتبس مما ذكره جواد علي عن « يوسفوس » من أن المدينيين إنما استقروا بعد ضعفهم في المنطقة الموجود بها مدينتهم (MADIANE) أي في القرون الأخيرة قبل الميلاد نقتبس من ذلك اعتباراً ما ، لهذه النظرية التي قد تكون مبنية على أساس هجرة المدينين من اليمن في عهد

---

١ المجلد الرابع ، ص ٤٥١ ، طبعة طهران .

٢ معجم البلدان ، المجلد ٢ ، ص ٥٠٣ ، طبعة طهران .

ليس بعيداً عن عهد شعيب بعد انقراض أسلافهم اللحيانيين ، حيث نرى لشعيب سائمة ترعاها بَنَاتُهُ على عادة القبائل العربية الرّحّل إلى اليوم .. فوجود الماشية والرّعاء .. كما نص عليه القرآن ، في (مدين) دليل قويّ على أنهم كانوا أعراباً أو ما زالوا شبه أعراب .. واسم (شعيب) واسم (مدين) كلاهما يدلان على عروبة المُسَمّى بهما .. إذ إنّ شعيباً من الشّعْب بفتح الشين أو الشّعْب أو أشْعب ، وكلها عربيّ فصيح ، كما قَدّمْناه .

ومدين من (مدن) بمعنى أقام .. في اللغة العربية الفصحى . ولعل بناءهم لمدينة (مدين) كان بعد فترة بداوتهم الأولى ، وبعد سأمِهم من عيشة البداوة ، وركونهم إلى رفاهية الحضارة ، ثم بقيت بَواقٍ منهم على حالة بداوتها .. وهم الذين استقى موسى من بئرهم لماشية شعيب .. أو أن شعيباً ومن كانوا يستقون من قومه مع بَنَاتِهِ ، من بئر مدين كانوا حَضَراً احتفظوا ببعض مظاهر حياتهم البدوية العريقة لهم لوجود ماشية لهم ، ورُعاةٍ يرعونها وهم منهم . كما شاهدنا مثله في كثير من قرى الريف العربية التي لا تزال ظلال البداوة تنعكس على طبائع سكانها حتى في عصرنا الحاضر ، الذي هو امتداد طَبَعِيّ للعصور الخوالي [1] .

---

١ يستأنس لذلك بما ورد في كتاب « أسماء جبال تهامة وسكانها » لعرام بن الأصبغ السلمي من أن جهينة كان قسم منها بادية في نواحي جبل « رضوى وعزور » حالما يسكن القسم الثاني منهم في المدر بينبع . وكذلك الأمر في مزينة ، فمنهم قسم متبد في جبل ورقان وجبال القدسين ونهبان ، وقسم منهم في الفرع ، ص ٥ إلى ص ٧ ، طبعة القاهرة . وكذلك يستأنس لما ذكرناه بما جاء في كتاب « الشعر عند البدو » لشفيق عبد الجبار الكبالي من أنه : « ما زالت قبائل بدوية في عهدنا الحاضر على هذه الشاكلة ، بعضها من أهل الوبر كقبائل الضفير والعجمان وعنزة . وبعضها من أهل المدر : العقيدات والعزة والعبيد .. كما يوجد من القبائل قبيلة واحدة ، قسم منها في المدر كقبائل شمر ، وقسم من أهل الوبر .. سكنة الصحراء » ، ص ١٩ ، طبعة بغداد . =

وممَّا يدلنا على أنهم جنوبيون من اليمن ، أهْلاً وَجِذْماً ، ممارَستُهُم للتجارة ، وبراعتهم فيها ، تماماً كبراعة القبائل اليمنية وذوي الحضارات اليمنية القديمة في فن التجارة .

وقد وصف محمد بن عبد الله الحسيني المدني المعروف بكبريت في كتابه : (رحلة الشتاء والصيف) ، مَدْيَنَ وحَفَائرَ شعيب عليه السلام ، وَصْفَ مشاهدة وتاريخ . قال : (ثم قمنا منه حتى أتينا على مغاير شعيب عليه السلام ، وهي حفائر حلوة تحكي النيل فيما قيل ، في وادٍ فيه نخل وأثل ومقل ، بين جبال متضايقة كثيرة المخاوف ، وفيه دار ، دارسة ، وأبنية متهدمة ، ورسوم ، يقال إنها (مدين) .

ثم نقل عن صاحب « تقويم البلدان » قوله : « مدين » على شاطئ بحر القلزم ، وهي خراب ، وأما البئر التي استقى منها موسى عليه السلام ، فقد بُنِيَ على أفنيتها بيت من صخر ، فيه كهف يسمى كهف شعيب عليه السلام ، وكانت تأوي اليها غنمه ، وحولها قبور منقورة في الصخر ، فيها عظام بالية كأمثال عظام الإبل ، ولا أثر لذلك الآن غير تلك الساقية التي بيد بني عطية ، وحُفَرِ الماء العذب . وفيها يقول ابن أبي حجلة :

ولما وردنا ماء مدين بكرة ..

وجدت عليه الناس يسقون بالقرب

فأطرب حادي الراقصات مسامعي

كما أطرب التشبيب من أعين القصب [1]

= وفي كتابنا هذا : « بين الآثار والتاريخ » قد ذكرت في « فصل الصويدرة» أن من قبيلة العجلان من قاموا بتعمير بليدة الصويدرة حديثاً واستوطنوا فيها وذلك بعد الخمسينات من هذا القرن الهجري .

١ ص ١٨ و ١٩ ، طبعة المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بدمشق .

ومحمد بن عبد الله « كبريت » هذا هو من أهل القرن الحادي عشر الهجري (١٠١٢ – ١٠٧٠ ﻫ) .

وفي التعريف بالطريق المسلوك من القاهرة إلى مكة يحدد لنا محمد كبريت ، تحديداً دقيقاً المسافة التي بين العقبة على ساحل البحر الأحمر (بحر القلزم) ، وبئر مدين التي بها « مغاير شعيب » ويعرفنا بأنهما مرحلتان . يقول : « ثم يرحل (أي الحاج) إلى أيلة في خمس مراحل . وبها العقبة العظمى ، فينزل منها حجز بحر القلزم ، ويمشي على حجزه حتى يقطع من الجانب الشمالي إلى الجانب الجنوبيّ ، ويقيم به أربعة أيام وبه سوق عظيم ، ثم يرحل إلى بئر مدين ، وبه مغاير شعيب عليه السلام ، وعلى مائها سقى موسى عليه السلام غَنَمَ بَنَاتِ شعيب »[1] .

وقد حدد لنا محمد صادق في كتاب رحلته الرسمية البرية حيث كان أميناً لصرة المحمل المصريّ – حدد لنا في رحلته : « مشعل الحج » – موقع (محطة مغاير شعيب) فقال ما ملخصه : إن ركب المحمل ارتحل من العقبة في يوم الاثنين ٦ ذي القعدة ١٢٩٧ ﻫ – ٢٧ سبتمبر ١٨٨٠ م في حجته البرية .. وفي يوم الجمعة ١٠ منه وبعد خمس وعشرين دقيقة من الساعة الأولى من النهار – ويبدو أنه يعني بذلك التوقيت العربي الغروبي – وصل أي ركبُ المحمل إلى محطة مغاير شعيب[2] .

وعلى هذا فيبدو أن مغاير شعيب تبعد بثلاث مراحل بسير المحمل الذي كان يرافقه أركان حرب الأميرالاي محمد صادق بك عن العقبة .

وقد زادنا المؤلف علماً بصفة أرض هذه المغاير فقال في رحلته :

---

١ نفس المصدر والطبعة ، ص ٦٧ .

٢ كتاب مشعل المحمل ، ص ١٠ و ص ١٤ ، مطبعة وادي النيل ١٩٢٨ ﻫ والنسخة توجد بمكتبة السيد عبيد مدني بالمدينة المنورة .

(وهو — أي مغاير شعيب — محل بين تلال يحدق به نخيل وعبل به حشائش ولا مساكن مبنية إلا زربيات [1] من جريد لسكنى العربان . ويتوصل إلى البحر من وادي مدين ، ولا يباع بهذه المحطة شيء سوى حشيش البهائم .. وبلغت الحرارة عند الزوال — أي في منطقة مغاير شعيب — ٣١ درجة [2]) .

وقد رسم لنا محمد صادق في كتابه ، خريطة سير المحمل برّاً من القاهرة إلى مكة وإلى المدينة فالقاهرة ، وبها بيان البلدان والمحطات والمحلات الشهيرة بالطريق ، ومن هذه الأماكن (مغاير شعيب) . وقد جعلها في منتصف الطريق بين قلعة العقبة وقلعة المليليح .

وإذا قارنا رحلة محمد صادق إلى الحج برحلة سلفه محمد كبريت المدنيّ فإننا نخرج بالنتائج التالية :

أولاً — إن محمد كبريت بدأ رحلته البرية مع الركب المصري من المدينة المنورة في ١٧ المحرم سنة ١٠٣٩ هـ قاصداً الديار المصرية .

ثانياً — إن محمد صادق بدأ رحلته البرية مع المحمل المصري من القاهرة صوب مكة ، في يوم ٢٢ شوال ١٢٩٧ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٨٨٠ م .

ثالثاً : واذن فشقة الزمن بين الرحلتين هي : (٢٥٨) عاماً قمرياً .

وحدد عبد الوهاب النجار في كتابه : (قصص الأنبياء) أرض مدين بأنها (بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية ، وشمال

---

١ أعتقد أن هنا خطأ مطبعياً .. حيث قدمت الباء الموحدة على الياء المثناة التحتية ، والصواب العكس أي زريبات — بدليل سياق الكلام .. فالزريبات هي الحظائر .. أما الزربيات فهي المفارش .. ومنه قوله تعالى « وزرابي مبثوثة » .

٢ نفس المصدر ، ص ١٤ .

الحجاز وجنوب فلسطين ، تنسب إلى مدين) . (وتقول التوراة : « مديان » بن ابراهيم عليه السلام سميت القبيلة باسمه ، وكانوا شاوية ، وفي الطبريّ عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين ثماني ليال ، وكانت مدين هي البلاد التي وقع اختيار موسى على قصدها والنزول بها ، ولعله راعى صلة القرابة بين مديان بن إبراهيم ، وإسحق بن إبراهيم الذي من ذريته موسى [1] .

ومن قوله : (شاوية) يُفْهَمُ أنهم كانوا رعاة غنم .. وعبد الوهاب النجار ، في هذا يؤكد وجود صلة قرابة قبيلة مدين بإبراهيم جَدِّ موسى ، وهذا هو رأي الطبري وابن كثير والبغويّ وابن الجوزي من كبار المفسرين .

ويقول (جورجي زيدان) عن أصل سكان مدين ما نصه : (ويظهر أن الشاسو — أي العرب الذين نزحوا من بلاد العرب إلى مصر — كانوا قبل نزولهم ، بادية مصر ، يقيمون في أرض مديان وراء جزيرة سيناء . لأن لفظ الشاسو يطلق أيضاً على تلك الأرض ، وهي قديمة التاريخ جاء ذكرها في آثار بابل سنة (٣٧٥٠) قبل الميلاد [2] .

وقبائل (مدين) حسب تحديد (موسل « كانت تقطن جنوب وادي العربة ، وإلى جنوب شرقي العقبة وتقع مدينتهم (مَدْيَنُ) — بفتح الميم وسكون الدال المهملة بعدها ياء مثناة تحتية فنون — في بادية الا (SARACENS) إلى شرق البحر الأحمر . ويعطف جواد علي ، على ذلك بأن هذا المكان ينطبق تماماً على موضع أرض مدين المعروفة في الكتب العربية [3] .

---

١ ص ١٩٨ ، طبعة مصر .

٢ العرب قبل الإسلام ، ص ٦٩ .

١ نفس المصدر ، ص ٣١٥ و ٣١٦ ، المجلد الأول .

هذا وقد ألقى الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري محاضرة في جامعة الرياض عن (اللحيانيين) وأشار فيها إلى أن مواطن اللحيانيين كانت في منطقة مدين نفسها .. وقال عن (خربة مدين) : (إنهـا كانت عاصمتهم . ولعلهم — أي اللحيانيين ، كانوا نزلوا هـذه الجهات وأثلوا فيها حضارتهم قبل المدينيين ، قوم شعيب . على أن اللحيانيين هم أيضاً جنوبيون .. فهم إذن عـلى كل حال نازحون من جنوب شبه الجزيرة العربية ، إلى هذه المواضع من شمالها) . وبهذا الرأي يأخذ الهمدانيّ على ما نقله عنه صاحب (تاج العروس) فهو يرى أن اللحيانيين من بقايا جرهم ، دخلت في هذيل [1] . وبنو لحيان الذين يتحدث عنهم كانوا يقيمون ببطن غران واد بين أمج وعسفان شمال مكة المكرمة [2] ولعلهم من بقايا بني لحيان القدماء انتقلوا إلى هـذا المكان .

وأرض مدين المعروفة في الكتب العربية ، تحاذي تبوك إلى ناحية البحر على نحو ست مراحل منها .

وهكذا يتأكد لدينا أن موطن شعيب وقبيلته كان في هذه المملكة العربية السعودية ، وفي الشمال منها بالذات ، قرب شاطئ البحر الأحمر ، وربما كانوا يستفيدون من البحر بعض غذائهم من أسماكه ، وبعض تجارتهم من السفن التي تمخر عبابه ، وتمر عليهم حاملةً ما لذ وطاب . كما يستفيدون من البَرِّ ، زراعته ورعي مواشيهم فيه فهم « بَرّيّون بحريون » في آن واحد .

ومما نلاحظه هنا أن مدينة (مَدْيَنَ) وما حولها ، هي من الأماكن

---

١ تاج العروس ، ص ٣٢٤ ، م ١٠ ، طبع مطابع دار صادر بيروت ١٣٨٦ — ١٩٦٦ م .

٢ مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لمحمد بن عبد الوهاب ، ص ٢٩٢ ، المطبعة السلفية بمصر .

الأثرية الهامة في بلادنا . فلو أن وزارة المعارف المنوط بها تنظيم مهمة الآثار ابتعثت بعثة أثرية إلى هذه المدينة وهذه المواضع ، ونقبت عن آثارها فلربما عرفنا من ذلك الكثير من العلم والآثار المهمة وربما استفدنا من ذلك بعض أو جلّ ما يخفى علينا من التاريخ القديم .

وبالمناسبة فإن الدكتور جواد علي ، مع سعة اطلاعه وكثرة نُقوله ، ومصادره ، لم يشر إلى رواية الهمداني عن أصل موطن شعيب عليه السلام ، ونسبه اليماني ، على حد رأي الهمداني . ونعتقد أن هذا يعود إلى عدم اطلاع جواد علي ، على الجزء الذي فيه هذا البحث من كتاب (الإكليل) — وهو الجزء الثاني — لأنه طبع مؤخراً .. وبعد طبع كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) لجواد علي ، بمدة من الزمن .. ولربما أنه لو اطلع عليه وعلى سابقه في الطبع (الجزء الأول منه) لَعَدَّلَ عن إمعانه في نقد روايات مؤرخي العرب عن تاريخ بلادهم وأصولهم ، ولَخَفَّفَ من غلوائه في الاعتماد الكُلّيّ على نظريات المستشرقين النابعة من بحوثهم الأثرية وفهمهم الذي قد يلتوي بالنسبة لآثار العرب وتاريخهم القديم .

هل الشيخ الكبير هو شعيب ؟

وردت في القرآن الحكيم قصة التقاء موسى في نزوحه عن مصر إلى مدين بشيخٍ كبيرٍ بَشّرَهُ آخر الأمر بالنجاة من القوم الظالمين .. وقَبِلَ أن يزوجه إحدى بناته ، لما شاهد فيه من الأمانة والقوة .

وملخص هذه القصة التي تبدأ من الآية ١٤ إلى الآية ٢٩ من سورة القصص هو : أن موسى عليه السلام ناصر أحد أتباعه على أحد أعدائه من القبط ، فقتل موسى ، هذا العدوّ القبطيّ ، بضربة من يده ..

واتفق أن رآه ذلك الصاحب الذي استنصر موسى بالأمس ، فاستنصره مرة أخرى على قبطيٍّ آخر يُعاركه ، فأراد موسى أن يبطشَ بعدوهما هذا ، فانزعج صاحبه ، وتَوهَّمَ أن موسى يريد أن يقضي عليه ، ففضحه وقال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ولما علم القبط بما فعل موسى بأحدهم ائتمروا على قتله ، فخرج من أرضهم إلى مدين . وعندما وصلها وجد أناساً يسقون على بئر ، سائمةً لهم ، وشاهد امرأتين تذودان غنمهما عن البئر ، فسألهما لماذا ؟ فأجابتاه بأنهما تؤخران عادَةً سَقْيَ غنمهما حتى يُصْدِرَ الرعاةُ مواشيهم عن البئر بعد ارتوائها ، وأبوهما شيخ كبير . فَرَقَّ موسى لحالهما ، فسقى لهما غنمهما ، ثم رجع إلى شجرة هناك ، فجلس في ظلها ودعا الله بأن يفرج عنه ، ثم ما لبث أن جاءته إحدى بنات (الشيخ الكبير) بعدما عُدْنَ من بيت أبيهن ، وقالت له : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقصَّ عليه قصة خروجه من مصر وأسبابها بَشَّرَهُ بالنجاة من طُغَاتها . وهنا تدخلت في الحديث إحدى البَنَاتِ الْمُعْجَبَاتِ بأمانة موسى وقُوَّتِه ، وقالت لأبيها : يا أبت استأجره فهو ذو قوة وهو أمين . فوافق كلامُها هَوىً في نفس أبيها (الشيخ الكبير) ، فعرض عليه أن يزوجه إحدى بناته — ولعلها المتكلمةُ — على أن يكون مهرها تأجيره لديه من ثماني سنوات إلى عشر ، وبَشَّرهُ بأنه سيجده — إن صاهره — رجلاً صالحاً . فوافق موسى على الزواج من ابنته ، وعلى الصداق ، ولكنه جعل الخيار لنفسه في أي الأجلين من مدة الإيجار يقضي ، فذلك يعود اليه .. وقضى موسى الأجل ، وانتهى عقد الايجار بينهما ، فذهب موسى بأهله حتى بلغ إلى مكان بقرب الطور ، فأنس من جانب الطور ناراً فأمر أهله : (زوجته) بالمكث انتظاراً لإيابه اليها ، ليأتي لها ، بخبر أو بقبس من النار لعلهم يستدفئون بها من البرد القارس . . مما يدلنا على أن رحيله عن صهره

بعد انتهاء أجل اجاره كان في فصل الشتاء الشديد القر .

هذا ملخص القصة القرآنية عن (موسى) عليه السلام وصهْـــره (الشيـخ الكبير) . ولم ينص القرآن على اسم الشيـخ .. ولكن يستدل من سياق الآيات أنه من قوم مدين ، فإن بَنَاتِـه كُنَّ يستقين من بئر مدين ذاتها التي يستقي منها أهل مدين .. وَجُلّ المفسرين يذهب إلى أنّ « الشيـخ الكبير » هو (شعيب) عليه السلام ، وبعضهم يذهب إلى غير ذلك .. ويقول إنه : (يثرون) أو (يثري) أحد أحفاد إبراهيم عليه السلام ، وهذه هي رواية التوراة ، فيكون المفسرون إذن قـــد أخذوها من التوراة .

والتوراة الموجودة محرفةٌ بنص الذكر الحكيم وباعتراف أهلها .. ويقول عبد الوهاب النجار في كتابه : « قصص الأنبياء » : إن الأدباء وأصحاب السير أولِعُوا بجعل صهر موسى ، أي (الشيـخ الكبير) شُعَيْباً . قالَ أبو العلاء المعري في مدحه لرجُلٍ عظيم زفّت إليـــه عروسه :

كنت موسى وافته بنت شعيب

غير أن ليس فيكما من فقير

وقد توقف الشيـخ عبد الوهاب النجار عن الأخذ بأحد الرأيين .. برغم ورود بعض الاحاديث النبوية التي تسميه شعيباً،إلا أنه طعن في بعض رُوَاتِـها بأن الراويَ (في حفظه سوء) وهو « عبد الله بن لهيعة المصريّ) .. ومما أورده النجار أن بعض المفسرين قال : إن شعيباً كان قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة (وهذا يتفق مع رأي الزركلي في كتابه : الأعلام) . وقد سبق لنـــا أن قلنا اننا نرى عكس ذلك استناداً إلى فحوى الآية التي استند أولئك المفسرون اليها ، وهي قوله تعالى : « وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ

أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » .
فالآباء الثلاثة الذين كانوا بين شعيب وإبراهيم – على رأي من قال بذلك – تجعل المسافة الزمنية قريبة جداً بينه وبين لوط الذي أهلك قومه ، والذين ذكرهم شعيب لقومه في معرض الاعتبار بعذاب الله لمخالفي الأنبياء الذين كان زمنهم قريباً من زمن أولئك القوم وخاصة قوم لوط .

خلاصة ما سبق :

ويمكننا أن نستخلص مما سبق بيانه ما يأتي :

أولاً : إن شعيباً عربيّ الأصل ، والاسم ، والقبيلة ، والموطن ، في رأي أغلب المفسرين والمؤرخين والأثريين .

ثانياً : إن قومه مدين هم عرب نزحوا من الجنوب مباشرة .

ثالثاً : إن شعيباً أخاهم ، هو رسول من الله عز وجل اليهم . ولقد حذرهم وأنذرهم فآمن به بعضهم فنجا من عذاب الله ، وكفر به بعضهم فهلك بعذاب الله تعالى .

رابعاً : إن اسم (مَدْيَنَ) كما يطلق على القبيلة يطلق على مدينتهم .

خامساً : إنّ مَدَنِيَّتَهُمْ قد بادت وكذلك مَدِينَتُهُمْ قد خربت واضمحلت .

سادساً : إنه كان يقطن بمواطنهم (لِحْيَانُ) وربما انقرضوا أو تشتتوا وذابوا في قبائل العرب قبل استفحال أمر (مدين) . وتوجد قبيلة معروفة في الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام تسمى (لحيان) تسكن قرب مكة ولا تزال .

سابعاً : إن مواضع قبيلة مَدْيَن وموقع مدينة مدين ، هي على ساحل البحر الأحمر .. (بحر القلزم) بداخل المملكة العربية السعودية في الشمال منها ، بالقرب من ميناء العقبة . وهي — أي مدين — إلى جنوب العقبة على الساحل حسب ما حدده المؤرخون القدامى والمحدثون .

الكُوَيْت
مَلامِحُ وآثار

الكويت بين التاريخ والسياسة

اذكر اني كنت قرأت في بعض الكتب الحديثة أن أصل صيغة «كُوَيْتِ» – بضم الكاف – برتغاليّ ، فهي دخيلة على اللغة العربية ومعناها (القلعة) .. وقد وَفَدَت مع هؤلاء المستعمرين العتاة ، الذين ذهب استعمارهم للشرق الأوسط ذهاب أمس الدابر ... وقد جرت بعدئذ على ألْسِنَةِ العرب ، كدأبهم في الاقتباس ودأب سائر الامم ، فسموا بها بعض مدنهم الحديثة إذ ذاك . وبمصغر الْكُوتِ : (الْكُوَيْت) سميت الكويت موضوع هذا البحث .

ومما يدل على أصلها البرتغالي أن سائحاً أوروبياً زار الكويت سنة ١٨٣١ م ، فذكر أن ميناء الكويت ربما كانت استعملت أو اتخذت قاعدة للبرتغاليين ، كما ذكر أن المدينة كانت تُحكَمُ بوساطة شيخ [١] .

وجاء في كتاب : «الكويت المدينة الفاضلة – سويسرا الشرق» أن الكويت تصغير الكُوتِ (بضم الكاف) . والكويت كلمة يطلقها أهل تلك النواحي على البيت أو عِدّةِ بيوت متجاورة لخزن الزاد والوقود وغيرهما . (وهذه الكلمة لم تنقلها القواميس العربية) . فيجمعونها على

---

١ جزيرة العرب : لحافظ وهبه ، ص ٨٧ ، الطبعة الأولى .

(أكْوَات) ويصغرونها على كُوَيْت .. ويرى أحد العلماء أنها إما أن تكون محرفة عن « القوت » ، بالقاف ، لأنها مخزن للأقوات . وقد يُبْدِلُ العرب القافَ كافاً .. فالنقطة تسمى « نكتة » ، والغسق يسمى « غسكاً » .. وفي « المزهر » للسيوطي شواهد كثيرة من هذا القبيل »[1] .

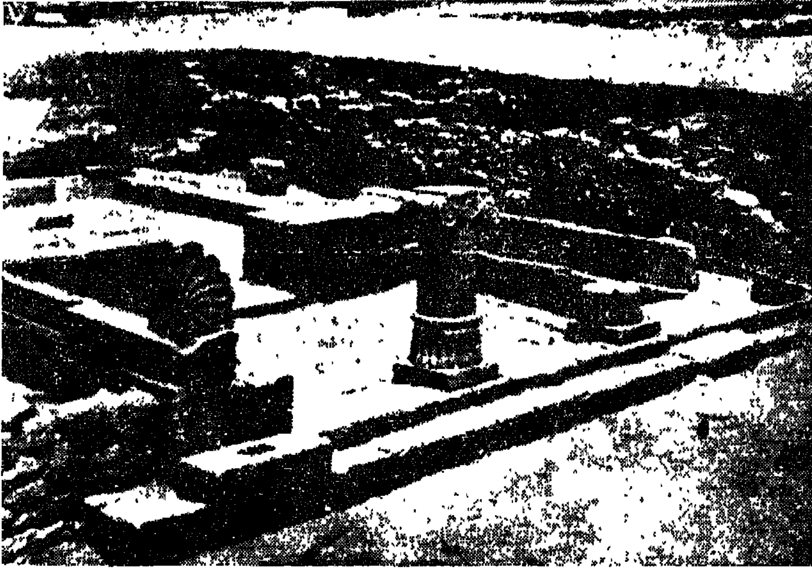
وأنا أميل إلى هذا .. حتى ولو كانت كلمة « الكوت » في اللغة البرتغالية بمعنى القلعة والبيت أو المخزن ، وأخذها العرب في تلك الجهة عنهم ، فلا غرابة في أن يكون البرتغاليون أخذوا هذه الصيغة من اللغة العربية أيام ازدهار الحضارة العربية في الأندلس ، ثم حرفوها إلى لهجتهم هكذا .. وقد رأينا لذلك نظائر ، فقد أخذت الفرنجة من العرب صيغتي « مخزن » و « دار صناعة » ، فحرفوهما إلى « مغازة » و « ترسانة » .. وعُدْنَا نحن العربَ فاخذنا هاتين الصيغتين كما حرفتها الفرنجة ... واستعملناهما وهجرنا الصيغتين العربيتين الفصيحتين حتى كأنْ لا وجود لهما في لغتنا .

والكويتُ — البلدُ والإمارةُ — أخذَ اسمها من اسم ذلك الحصن الصغير الذي بناه محمد بن عريعر زعيم بني خالد ، أو صباح الأول جد الأسرة الحاكمة في الكويت .. في المكان الذي وهبه له زعيم بني خالد حينما حل هو بالكويت . وقد ارتضته (أيْ صبَاحاً) القبائلُ ، حاكِماً لها فبايعوه ، ومن ثمَّ تسلسل الحكم في أبنائه[2] كابراً عن كابر ، حتى وصل لسمو الحاكم الأمير المرحوم الشيخ عبد الله السالم الصباح الذي ازدهرت الكويت في عهده ازدهاراً عظيماً ، نقلها من طور إلى طور .. بسبب استكشاف الزيت في تربتها بكميات غزيرة جداً .. فاتسعت العمارة ، وازدهرت التجارة والمعارف ، وعمّت

---

١ الكويت المدينة الفاضلة ص ٩ .

٢ جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص ٤٧٨ .



معبد سوتيرا الخرافي بفيلكا

الرفاهية البلاد ، حتى أصبحت الكويت معروفة بأنها من أغنى بلاد العالم اليوم .. وفي عهده نالت الكويت استقلالها ، وأصبحت دولة ذات سيادة .

وفي كتاب : «خمسون عاماً في جزيرة العرب» المطبوع سنة ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م بالقاهرة ، أن «الكويت اليوم بعد كشف منابع الزيت ، تختلف عن الكويت القديمة في كل شيء .. ففيها اليوم المدارس الكثيرة التي غصت بالطلبة العرب ، كويتيين وغير كويتيين ، وفيها المستشفيات ونُطُسُ الأطباء .. والواقع أن التطور عامّ في جميع البلاد العربية ، ولكن هذا التطور نجده ظاهراً أكثر في البلاد الصغيرة في حجمها مثل الكويت والبحرين وغيرها [1] .

---

١ خمسون عاماً في جزيرة العرب ص ١٣ .

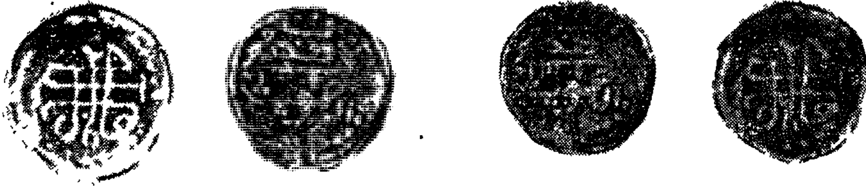
ويقول صاحب المنجد : « الكويت : مشيخة في الجزيرة العربية الشمالية الشرقية ، مساحتها (٥١٨٠٠) لـ م٢ ، وسكانها (٢٥٠٠٠٠) يحدها العراق شمالاً ، وغرباً ، والمملكة العربية السعودية جنوباً ، والخليج العربي شرقاً ، وتتاخمها منطقتان محايدتان جنوباً وغرباً ، أرضها في الإجمال جدباء إلا بعض الواحات والمزارع قرب الشواطئ .. أما جوف أرضها فغني بالنفط ، ترْبطُ الكويت بحكومة بريطانيا معاهدة صداقة . عاصمة المشيخة مدينة الكويت ، وسكانها (١٢٠٠٠٠) ، ولمرفئها شأن خطير في تجارة الخليج منذ أجيال[1] .

ومنطقة الكويت كانت معروفة في العالم القديم . فان الأحافير التي أجريت في جزيرة فيلكا — البعيدة بنحو ٣٠ كيلومتراً عن ساحل مدينة الكويت — ان الاحافير المشار اليها تدل على أن هذه المنطقة التي أجريت بها كانت معروفة في الزمن القديم .. وقد وجدت البعثة الدنمركية للآثار بجزيرة فيلكا ، أختاماً يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ ق. م. مما يدلنا على أن السفن التجارية كانت تمر بسواحلها ، كما وجدت بها تماثيل صغيرة منها رأس الاسكندر وتمثال افروديت .. وتؤيِّدُ ذلك أيضاً الروايات التاريخية القائلة بمرور الاسكندر على طريق الخليج العربي للسيطرة على الشرق .

وقد عثر في « تل سعد » بالجزيرة على أن حضارة هذه المنطقة ذات طابع خاص ، كما يفهم من الاختام المستديرة التي عثر عليها وهي مختلفة عن أختام العراق الاسطوانية ، وعن أختام الهند المربعة ، ويرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ ق. م.

والكويت مدينة حديثة في التاريخ العربي ، تقع بالقرب من موقع كاظمة ، وعندها وقعت معركة بين العرب بقيادة خـالد بن الوليد

[1] المنجد ص ٤٥١ .



الاختام المستديرة التي عثر عليها في احافير الكويت

رضي الله عنه ، والفرس بقيادة هرمز سنة ١٢ ه‍ (واسمها في المراجع : القرين) ، ولا يزال هذا الاسم يطلق على بعض المواقع في أطرافها وفي جزيرة فيلكا . واسم الكويت الحالي هو تصغير لصيغة (كوت بمعنى القلعة) . وتصنع الكويت المراكب الشراعية المتينة من خشب الساج [١] .

وتقع مدينة الكويت العاصمة ، على الساحل الجنوبي من خليج الكويت ، وفي الجنوب الشرقي من البصرة ، وتبعد نحو (٨٠) ميلاً . وفي الشمال الغربي من البحرين ، وتبعد عنها نحو (٣٨٠) ميلاً [٢] .

وكانت مبانيها قبل النهضة الحديثة من اللّبِن — بكسر الباء — أو من الصخور البحرية . ولها مقاطعات تتبعها ، من أشهرها : الباطن ، وهي ملتقى الحدود العراقية والنجدية [٣] .

وتتبع العاصمة مُدُنٌ من أهمها الجهرة .. وكانت مسكونة قبل الإسلام . وهي أعظم قرية زراعية في الكويت [٤] .. وقد لا نعرف من أين أخذ صاحب كتاب « جغرافية البلاد العربية » الذي قررت وزارة معارفنا تدريسه بالسنة الرابعة الثانوية .. ومؤلفه الاستاذ صلاح عبد القادر البكري ، تسميتها

---

١ الكويت حقائق ومعلومات : لوزارة الارشاد والآثار الكويتية ، من الصفحة١١ إلى ص ١٤.

٢ ملوك العرب : للريحاني ، ص ١٥٩ .

٣ جغرافية شبه جزيرة العرب : لعمر رضا كحالة ، ص ٤٩١ .

٤ المصدر نفسه ، ص ٣٩٣ .

في كتابه المذكور باسم « الجمصرا » ان لم يكن هذا من الأغلاط المطبعية الشائعة فلعل صحة الاسم : (الجهرة)[1] .. ولم يذكر ياقوت في « معجم البلدان » اسم مدينة (الجهرة) هذه ، مما يدل على انها لم تكن مدينة في عهده ، أو إنه لم يسمع بها ولم يقرأ عنها .

ويقول كتاب « الكويت المدينة الفاضلة » : لم تكن الكويت معروفة قبل ٥٠٠ سنة .. على أن هناك قولاً راجحاً ، وهو أنها كانت موجودة قبيل سنة ١١٣٥ هـ ، حيث إن آل الصباح الذين نزحوا إلى تلك البلاد من الحجاز هم الذين أنشأوا الكويت .. وقد كان أولَ حاكمٍ لها صباح الأول ، وقد توفي سنة ١١٩٠ هـ .. ويمت آل الصباح بصلة إلى آل خليفة حكام البحرين وإلى آل سعود حكام نجد والحجاز ، فهم ينتسبون إلى قبيلة عنزة التي تنقسم إلى بيوت وعشائر من بينها شملان التي منها آل الصباح .. وقد مر آل الصباح خلال هجرتهم إلى هذا المكان الذي سُمّي بالكويت — بِقَطَر وقَيْس والصبية ، وهي أرض قريبة من الكويت ، ثم نزلوا الكويت وتوطنوا بها[2] .

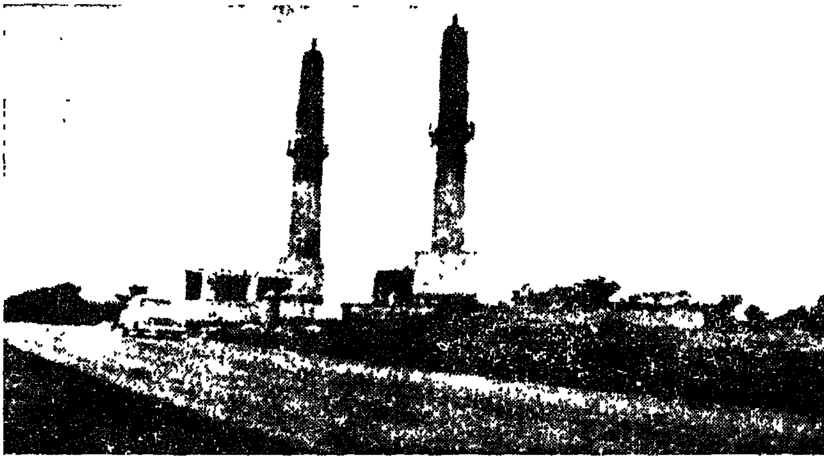
ومن هذا يبدو لنا أن المؤسسين الفعليين لمدينة الكويت هم آل صباح .

وفي ظل حكم آل صباح حافظت إمارة الكويت على كيانها العربي الذاتي فلم تندمج فيما تحكمه في الدولة العثمانية برغم المكايد والضغط اللذين أحاطتهما بها هذه الدولة ، فقد تمكن مبارك الصباح حاكم الكويت من أن يحبط مؤامرات الأتراك ضد إمارته ، وهكذا انفلت بها من الكماشة الكبيرة بدهائه ولباقته .

---

١ جغرافة البلاد العربية ص ١٩ .

٢ ص ٩ .



جامع سوق الخميس بالبحرين

وفي هذا يقول حافظ وهبة : « لقد حاول الأتراك في سنة ١٨٩٧ م – ١٣١٥ هـ) أن يستولوا على الكويت وينفوا الشيخ مباركاً إلى الآستانة ، ولكنه أحبط هذا المشروع ، بما بذله من المال في البصرة وبغداد ، غير أنه في سنة ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ) أرسل اليه الأتراك وفداً من كبار الموظفين وبعض أعيان البصرة على إحدى السفن الحربية القديمة ، لنقله إلى الآستانة ، حيث عين عضواً في مجلس شورى الدولة ، فالتجأ إلى الانكليز ، فأنقذوه من الأتراك »[١] .

وفي سنة ١٣٧٣ هـ زار الأمير عبد الله الجابر الصباح رئيس المعارف الكويتية القاهرة .. وفي إحدى الحفلات التكريمية التي أقيمت له قال : « نحن والحمد لله عرب بكل ما في كلمة العروبة من معان سامية ، ومسلمون بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معان وآمال ، وإن أحكامنا كلها تسير وفق الشريعة السمحة .. كما أننا مستقلون ولا يـد

---

١ ص ٩٩ من كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين ، الطبعة الأولى .

للأجنبي علينا »[1] .

وهذا الذي يقوله الأمير عبد الله الجابر الصباح ، في سنة ١٣٧٣ ﻫ على مشهد من الناس ونُشِرَ ، هو ما أجمع عليه المؤرخون الحديثون من أن الكويت العربية المسلمة لم ينل من عروبتها وإسلامها الاستعمار ... فقد ظلت ثابتة على دينها وعروبتها برغم الصلة المباشرة للمستعمرين بها ، من طريق المعاهدة المبرمة .. كما أن الأتراك المسلمين لم يؤثروا على عروبتها .

أما الآن ، وقد أعلنت الكويت الاستقلال ، بعد عهد الحماية الذي وَلّى إلى غير رجعة إن شاء الله ، فَأحْرِ بالكويت المستقلة أن تندفع صعداً إلى الأمام في نهضة عربية إسلامية عميقة الجذور .

والكويتُ العربيةُ المستقلةُ رِبْحٌ للعرب والعروبة ، وكسبٌ للإسلام والمسلمين .. فقد أصبح لنا صوت عربيٌّ جديد ، في أروقة هيئة الأمم المتحدة ، وفي المحافل الدولية الأخرى ، وازداد أعضاء الجامعة العربية عضواً عربياً غنيّاً في مبادئه ومادته .

والكويت — في تاريخها البعيد والقريب — ذات علاقة وشيجة بالمملكة العربية السعودية .. ذلك أن البيت الحاكم في الكويت هو من « عنزة » التي تنحدر من بكر بن وائل .. والبيت الحاكم في المملكة السعودية كذلك ينحدر من « عنزة » نفسها التي هي من بكر بن وائل . ومن الكويت كانت انطلاقة مؤسس هذه الدولة المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود لانشائها وتوحيدها تحت راية التوحيد الخفاقة .

---

١ كتاب الكويت المدينة الفاضلة ، ص ١٨١ .

الأرْدُنّ
مَلامِحُ وآثار

كهف اهل الكهف

منذ وعينا قصة أهل الكهف الواردة في الذكر الحكيم ، ونفوسُنا تتطلع إلى رؤية هذا الكهف الذي أوى اليه الفتية الاطهار الذين آمنوا بربهم وهربوا من جحيم الوثنية والطغيان في أيام دقيانوس .

وتمضي السنون ، وتُهَيّءُ الأقدار لنا رحلة إلى الأردن . وإذا بنا في أصيل يوم من أيام جمادى الآخرة ١٣٨٦ ه يطلب منا مندوبا الحكومة الأردنية الهاشمية المرافقان لنا أن نستعد لزيارة الكهف الواقع قريباً من عَمّانَ بجنوبها .. وهكذا امتطينا السيارتين اللتين جعلتهما وزارة الاعلام الأردنية تحت تصرفنا ، واتجهنا صوب الكهف .. وفي نحو ربع ساعة كنا قد بلغناه .

وصف الكهف وما حوله :

وهذا الكهف هو غير مرتفع ويقع في داخل سفح جبل ، ويدخل اليه الإنسان من فتحة مرتفعة بعض الشيء ، وسقفه ليس بالواطئ ولا بالعالي . هو بَيْنَ بَيْنَ .. وبه نقوش رومانية منقورة في داخله على بعض الصخور العظيمة المكونة لجدرانه . وتوجد « كُوّةٌ » مفتوحة إلى

السماء في داخل الكهف القصيّ ، تهبط منها أشعة الشمس محصورة ، فتُدخل شيئاً من النور إلى الكهف إذا توسطت الشمس كبد السماء ، فهو متنفس علويّ للكهف . أما المتنفس الثاني والأهم فهو بابه المتجه صوب الشمال .

وفي مدخل الكهف « بَهْوٌ » أشبه شيء بالدهليز كما يُدْعَى لدينا سابقاً ، وبالصّالة كما يُعرف الآن . والدهليز أقرب مكان إلى الباب دائماً . وهناك في داخل الكهف توابيتُ ضخمة قيل لنا إنها كانت أضرحة أصحاب الكهف السبعة . وفي خارجه مسجد ذو منبر مكشوف قيل لنا إن صلاح الدين بن أيوب [1] بناه أو جدده ، ومئذنة تعلو الكهف من جانبه ، ومجرى ماء صناعي قديم . وإلى الغرب من الكهف بمسافة ليست بعيدة جداً يقوم جبل تعلو قِمَّتَه وسفحَه بيوتٌ وأكواخ مسكونة من قبل أهل بادية متحضرين ترعى أغنامهم فيما حولهم . وقيل لنا إن اسمه (الرقيم) وأرانا المرشدُ ، عزّ الدين التل ، كيف أن الشمس إذا طلعت صباحاً تميل عن داخل الكهف جهة اليمين ، وإذا غربت تعدل ذات الشمال .. وأهل الكهف اللاجئون اليه والراقدون في وسطه بمنجاة عن أشعة الشمس المحرقة حالما يهب عليهم النسيم البارد كل وقت من مدخل الكهف الشماليّ . و « الدهليز » الذي مر بك وصفه يبدو — كما رواه لنا عز الدين — أنه هو « الوَصِيدُ » المقصود في القرآن .. لأنّ من معاني الوصيد ، البابَ الذي يوصد ، قال تعالى : « وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » .

والمسجد المبنيّ حالاً بجوار الكهف لم يكن — فيما أرى — المسجد

---

[1] يقع كثير من الكتاب والمؤرخين في خطأ تاريخي، إذ يكتبون « صلاح الدين الأيوبي »، نسبة لصلاح الدين إلى أيوب .. مع انه ابن ايوب ، مباشرة ، أي ان اسم أبيه أيوب ، فلا يصح على هذا أن يقال له الأيوبي .

المذكور في القرآن المجيد : « قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً » . ذلك لأن طراز بنائه إسلامي ، وربما كان يقوم على أساس المسجد الأول أو بالقرب منه .

من كل ما سبق بيانه يتراءى لكاتب هذه السطور — علمياً — أن « كهف أهل الكهف » هو هذا المكان بالذات . ذلك لأن الله تعالى أكد لنا في محكم كتابه أن ما يقصه علينا من نبئهم هو الحق الذي لا مرية فيه : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ » . ونضيف إلى ذلك ما توصلنا إليه من دراسة التاريخ واستقراء قصص القرآن الحكيم من أنه إنما كان يتحدث في قصصه لعرب الجاهلية المعاصرين للرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، عن الأمم الخالية ومواقعها التي يعرفها الْمُخَاطَبُونَ ، وتنحصر دائرتها الكبيرة في المنطقة التي تقع في شمال شبه جزيرة العرب ، ابتداء من مشارف الشام على حدود الحجاز ، وبشماله حتى أقصى حدود الشام العربية . ويدخل في محيط هذه الدائرة كل من الحجاز والأردنّ وفلسطين وسورية ، ويندرج في محيط الدائرة بالتبعية بلادُ مصر .. بالنسبة لأنّ ما رُوِيَ من قصص موسى ويوسف عليهما السلام وفرعونِ موسى ، في أرض مصر هو في الأساس منبثقٌ من أرض الشام ، لأن هذين النبيين : موسى ويوسف هما في الأصل من سكان فلسطين . وفرعون موسى أصله عربيّ من الهكسوس الذين هاجروا إلى ديار مصر واستوطنوها ثم حكموها فترة من الزمن القديم .

دوائر أثرية أخرى :

وهناك دائرة صغيرة أخرى أيضاً تحدثت عنها قصص القرآن وهي جَنوبُ الجزيرة العربية .. بما بُعِثَ فيها هودٌ إلى قومه عاد ، وبما ذُكر عن أصحاب الأخدود في نجران ، وبما ذُكر عن تُبّع وسبأ في

اليمن . ودائرةٌ أخـــرى وردت في القرآن وهي (بَابِلُ) بالعراق . وكل هذه الجهات هي من بلاد العرب ومما يعرفه العرب المُخاطَبُون في القرآن . ولا يدخل في معلوماتي أن القرآن تحدث عن غيرها ، اللهم إلا أن يكون عن فارس « إشارة » لا صراحة ، و « الروم » ، وهما يمثلان الامبراطوريتين اللتين كانتا تجاوران بلاد العرب من شرق وشمال ، وتحتلان بعض مدنهم وأريافهم إذ ذاك . ومن هذه الجهة عرفوهم ، ومن هذه الجهة تحدثت قريش وجادلت الصحابة فيمن يفوز منهما بالظفر في المعارك الطاحنة الدائرة بينهما أيام ظهور الإسلام . فبشر الله المؤمنين في مكة بأنه سينصر حتماً الرّومَ أهلَ الكتاب على فارس الوثنية ، وفي ذلك بشارة معنوية بنصرة الإسلام على الشرك . وقد عبر القرآن خير تعبير وأبلغه عن تحقيق النصر آخر الأمر كذلك للمؤمنين على المشركين في مكة المكرمة ، وتحقق وعدُ الله الصادقُ بفتح مكة و « بِأنْ نَصَرَ الرّومَ على فارس » . كما تحدث القرآن عن ذي القرنين ووصوله إلى بلاد يأجوج ومأجوج لأن ذا القرنين من العرب على راجح الأقوال ومن جنوب بلادهم بالذات [1] .

أما الأقطار النائية عن بلاد العرب كالقسطنطينية وما حولها التي لا صلة كبيرة لهم بها فلأنها لم تكن مواطن رسالات أنبياء الله إلى خلقه فيما أعلَمُ لم يتحدث عنها القرآن المجيد — فيما أعلم أيضاً — ولا أنبأنا بما سبق أن جرى عليها من أحداث خطيرة وحروب مبيدة مثيرة .

---

١ في « صفة جزيرة العرب » للهمداني : « فأوطان عسير إلى رأس تية وهي عقبة من أشراف تهامة وهي أبها وبها قبر ذي القرنين فيما يقال عثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة » ، ص ١١٨ . وفي « الآثار الباقية عن القرون الخالية » لأبي الريحان البيروني : « أن ذا القرنين من حمير ، والدليل على أنه حميري أن « الأذواء » إنما يعرفون في بلاد حمير دون بلاد اليونان وهو من الدولة الحميرية التي حكمت من سنة ١١٥ ق. م. إلى ٥٥٢ ب. م. من الطبقة الثانية منها وملوكها يسمون التبابعة وأحدهم تبع » .

عَوْدٌ على بدء :

والصفة التي شاهدناها في الكهف هي مطابقة لما جاء عنه في القرآن الحكيم . فباب الكهف شمالي ، وإذا طلعت الشمس على مَنْ هم بداخله ، لا تصل اليهم . إنها تميل ذات اليمين . وإذا غربت تميل ذات الشمال (وَهُمْ في فَجْوَةٍ مِنْهُ) وهذه هي الفجوة نراها رأي العين . وكلبهم حارسهم كان مربضه بهذا الدهليز الذي هو مدخل الكهف . وكأني أراه باسطاً ذراعيه بالوصيد . والوصيد هو « الباب » في اللغة العربية ، لأنه يوصد أي يغلقُ . وهذا هو جبل الرقيم بجانبنا نراه رأي العين . واسمه لا يزال كما كان يعرفه العرب قديماً هو (الرقيم) . وها هو ذا المسجد إلى جانب الكهف ، ولعله بني على أسسه بناءً إسلامياً .

وعلى ضوء هذه الدراسة المزدوجة نستطيع أن نقول مرة أخرى بدون تحفظ : إن هذا هو « الكهف » وهذا هو « الرقيم » . والرقيم كما ذكره ياقوت في معجمه جبل يعرفه العرب القدامى بهذا الاسم[1] وقال فيه كثير يمدح يزيد بن عبد الملك :

يَزُرْنَ على تنائيــه يزيداً بِأَكْنَافِ الموقّرِ والرّقيم

مناقشة لياقوت الحموي :

ومع أن ياقوتاً — في مادة الرقيم — بالمجلد الثاني من « معجمه » رَكَنَ إلى أن الكهف ليس هو القريب من عَمّانَ ، وإنما هو في بلاد الروم بين عمورية ونيقية ، وبينه وبين طرطوس عشرة أيام أو أحد عشر يوماً ، ودليله على ذلك ما رواه محمد بن موسى المنجم في

---

١ معجم البلدان ، ص ٨٠٤ ، المجلد ٢ طبعة طهران .

بعثة الواثق ، له ، إلى بلاد الروم ، عن أهل تلك المنطقة ، وما رواه عبادةُ بن الصامت في بعثة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، له ، إلى بلاد الروم ، لدعوة ملكهم إلى الإسلام – فإن تلك الروايات هي مأخوذة من روايات مجردة عن الدلائل ، فقد رُوِيَتْ عن سكان المكان من الروم . وقد لا تعدو روايتهم هذه أن تكون قابلة للتحريف والتضليل ، لا سيما ونحن نشاهد اليوم كثيراً من المآثر المزعوم أنّها إسلامية مقدسة ولا أثر من الصحة لذلك ، وما هي سوى (مصايد وأشراك) ينصبها النفعيون لجلب المادة ليس غير .

وياقوت نفسه روى لنا أن من الرواة من يرى أن الكهف والرقيم هما بالأندلس ، وأن طليطلة هي مدينة دقيانوس الذي فرَّ في زمنه أصحاب الكهف من بلدهم إلى الكهف . وهذا تخالُفٌ في الرواية والرأي . ونلاحظ أنه قد رجع آخر الأمر إلى الرأي الذي يقول : إن الكهف والرقيم هما بقرب عـمّانَ ، بدليل أنه في المجلد الثالث وفي مـادة (عـمّانَ) قال ما نصه : « وقيل إن عمان هي مدينة دقيانوس ، وبالقرب منها الكهف والرقيم معروف عند أهل تلك البـلاد ، والله أعلم »[1] .

وكان هذا هو ختام مباحثه عن الكهف والرقيم ، وبعد أن كتب ما كتب في هذا المجلد وفي سابقه الذي هو المجلد الثاني من كتابه ، ولم يعقب عليه بشيء . فالذي يفهم من سياق كلامه وفحواه اقتناعه آخر الأمر بأن هذا الرأي هو أقرب للصواب من سابقه أو سوابقه .

الكهف في كتب الآثار الاردنية الحديثة :

ولم يتعرض كتاب (آثار الأردن) تأليف لانكستر « هاردنج » ، وترجمة

١ معجم البلدان ، ص ٧١٩ ، المجلد ٣ ، طهران .

الأستاذ سليمان موسى لذكر شيء عن الكهف والرقيم ، مع إسهابه في ذكر آثار الأردنّ قاطبة ، ومنها عَمّان العاصمة ، وَعَقْدِهِ فصلاً خاصاً بآثارها الأخرى كالمدرج الروماني الكبير وآثار جبل القلعة وما إلى ذلك . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن لانكستر « هاردنج » لا يميل أو لا يرى أن الكهف والرقيم يقعان قرب عمان . وقد قال بهذا القول من قَبْلِهِ ، غيرُه من علماء الإسلام ومؤرخيهم . ولكن لانكستر هاردنج لم يفصح لنا عن رأيه الخاص . ولعل ذلك أو لعل دراسات خاصة هي التي أوحت إلى عالم آثار الأردن الاستاذ محمود العابديّ بالقول بأن هـذا المكان القريب من عمان ليس هو الكهف المراد في القرآن المجيد ، وإنما الكهف في آسية الصغرى . لقد صرح لنا بذلك ونفى نفياً باتّاً أن يكون هذا المكان هو الكهف . وذَاكَرْتُه وسُقْتُ له بعض أدلتي ، ولكنه لم يقتنع .. وقال : إن هذا المكان مكان روماني قديم أو معبد لهم .

أما أنا فما زلت أرى أن هذا هو الكهف ، وأن هذا هو الرقيم . وأهل مكة أدرى بشعابها . وأهل البلاد القدامى الذين روى عنهم ياقوت أن هذا هو الكهف . وهذا هو الرقيم بجانبه قرب عمان هم أعرف بآثارها . وتتسلسل معرفتهم لها ، من جيل إلى جيل ، خاصة وقـد أثبت العلم والبحوث الأثرية أن كثيراً مما رواه مؤرخو العرب وعلماؤهم عن ماضي بلادهم وآثارها العريقة هو حقيقة واقعة ، وأن مجرد نفي ذلك لمجرد أنه روايات عربية أو إسلامية لا تستند إلى بحوث أثرية أو كتب مدونة موغلة في القدم ، لم يستطع أن يزحزح حقيقة وقوعهـا قيد شبر .

هذا وقد علمتُ أنه يوجد في عمان أستاذ يرى رأينا ، وقد ألّفَ كتاباً وطبعه في هذا الموضوع . ولكننا لم نتمكن من الاجتماع به ولا

الوصول إلى تأليفه ، لا حينما كنا بالأردن ، ولا بعد أن غادرناها إلى هنا [1] .

* * *

هذا وقد نشرتْ جريدة (الحياة) البيروتية في عددها الصادر في ٢٦ شهر رمضان ١٣٨٧ هـ ــ ٢٧ كانون الأول ١٩٦٧ م تحت عنوان : (كهف أهل الكهف) رسماً يَدَوِياً للكهف ، وكُتِبَ تحته ما نصه : (واجهة الكهف بعد كشف الأتربة عنها وتنظيفها) ، ثم نشرت تحت عنوان : (إقامة مسجد بالقرب من عَمّان في موقع كهف أهل الكهف) ما نصه :

عمان ــ ٢٦ ــ مكتب الحياة : تقرر إنشاء مسجد في موقع «كهف أهل الكهف» في منطقة عمان ، وذكر أن الملك حسين سَيُرْسِي حجر أساس المسجد الجديد الذي سيقام على الموقع الأثريّ التاريخيّ الذي يقع على بُعْدِ ثمانية كيلومترات جنوبيّ مدينة عمان ، وذلك يوم الاحتفال بعيد الشجرة في الخامس عشر من شهر كانون الثاني القادم .

ومعروف أن قصة أهل الكهف وردت في القرآن الكريم ، وفي عدد من الكتب الدينية المسيحية ككتاب « أوقات الصلاة » و « فوز الشهداء » . وأهل الكهف هم تلك الفئة من الناس الذين ورد أنهم ناموا قرابة ثلاثة قرون ، ثم أفاقوا على دنيا غير الدنيا التي كانوا يعرفونها .

وقد اكْتُشِفَ «الكهفُ» أثناء الحفريات التي قام بها رفيق وفا

---

[1] في رحلتي إلى الرياض لسنة ١٣٨٦ هـ ، عثرت على الكتاب المشار اليه في إحدى مكتبات الرياض التجارية فاشتريته . واسمه : « اكتشاف كهف أهل الكهف » ، وهو تأليف الاستاذ رفيق وفا الدجاني وهو يؤيد وجهة نظرنا تماماً .

الدجاني ، المساعد الفنّي لدائرة الآثار العامة في الأردن ، حيث عَثَرَ على بقايا مسجد كان قد أقيم زمن عبد الملك بن مروان ، كما عثَر على بقايا كنيسة ترجع إلى القرن الخامس للميلاد . وقد وَضَع بعد ذلك كتاباً أورد فيه جميع النصوص والمراجع المتعلقة بقصة «أهل الكهف» والمثبتة لصحة المكان الحالي لموقعه .

البتراء
المدينة الوردية الرائعة

بالإمكان أن نعتبر « مدينة البتراء » الرابضة بجانب الطريق الصحراوي الممتد من عمّان إلى معان ، فالعقبة — من أعظم مدن العالم التاريخية جمالاً ، سواء في أيام إنشائها وازدهارها ، أم فيما بعد ذلك في آثارها وأطلالها . وتتمثل عظمة البتراء في دقة فنّ النحت وفن التصوير ، وروعة الهندسة المعمارية فيها ، مما قام به أولئك الأنباط العربُ الذين قدّوا أبنيتها الفارعة الرائعة من الصخر الأصم الأشم .

أسماء البتراء :

وأرى أن الاسم الأصليّ للبتراء ليس هو « البتراء » الذي اشتهرت به مؤخراً ، نقلاً عن المستشرقين ، وإنما هو « سَلْعٌ » . وقد سماها بذلك ناحتو بيوتها ومنشؤوها من النبط ، اقتباساً لهذا الاسم من موقعها الذي هو هذه الجبال أو هذه الشقوق في الجبال .. فكلا المعنيين لسلع وارد في اللغة العربية .. وفي بلاد العرب جبلان آخران سُمّيا باسم « سلع » . أحدهما يقع بقرب المدينة المنورة عن شمالها ، والثاني في بلاد هُذيل .

ومما يؤكد لي أن اسم المدينة الأصلي العربي هو (سلع) قولُ ياقوت الحمويّ في « معجم البلدان » : « وسلع أيضاً حصن بوادي موسى عليه السلام بقرب بيت المقدس » . فلا مرية في أن ياقوتاً إنما يعني بهذا ، مدينة البتراء ، وقد سماها حصناً ، لأنه لم يهيأ له التجوالُ في ربوعها ومشاهدة قصورها ومعابدها وأسواقها وملاعبها ومقابرها وشارعها العظيم . ولعله أراد بالحصن ، الحصن الذي أقامه الصليبيون فيها ، فذكره دون غيره مما هو أهم وأعم وأطمُّ . وباسم « سلع » سماها شاعر العرب المرحوم فؤاد الخطيب في قصيدته العصماء فيها ، إذ قال :

هِيَ سَلْعُ والْبَتْراءُ تَرْجَمَةُ اسْمِها
نُسِجَتْ عَلَيْهِ عَناكِبُ الإهْمَالِ

ويفيدنا فؤاد الخطيب في ديوانه ، وهو شاعر لا يجارى وعَالِمٌ غزير العلم ، بأن للبتراء اسماً ثالثاً هو (وادي موسى) . وقد مر بنا قول (معجم البلدان) إن (سلعاً) التي هي البتراء نفسها حصن بوادي موسى وإذن فيكون هذا من المجاز المرسل ، من باب تسمية الحالّ ــ بتشديد اللام ــ باسم محله .

هذا ومما ينبغي التنبيه اليه أن اسم « البتراء » بالصيغة نفسها قد ورد في كتب السيرة ومعاجم البلدان والتاريخ ، العربية ، وهو ليس مطلقاً « بَتْراءَ » وادي موسى » . وقد لَخّصْتُ من مراجعاتي لما ورد عن البتراء هذه التي لا تَمُتّ إلى « مدينة الأنباط » موضوعِ هذا المقال ــ بأية صلة ــ أنهما بتراوان ، إحداهما : البتراء الواقعة على نحو مرحلة من المدينة المنورة ، وقد سلكها النبيّ عليه الصلاة والسلام في غزوة بني لحيان ، مورياً بأنه يريد الشام . والثانية : تقع قرب تبوك ، في بلاد بني الحارث بن كعب ، وقد مر بها النبيّ صلى الله عليه وسلم أيضاً في طريقه إلى تبوك ، وبنى فيها مسجداً ، والمسجد يقع في طرف

البتراء من ذنب كواكب أو كوكب : جبل هنالك .

الشعر يصف البتراء :

وفي وصف مدينة البتراء ، موضع البحث يقول فؤاد الخطيب :

وشهدتُ فيه مدينةً منحوتةً
في الصخرِ نَحْتَ مُشَيَّدِ التمثالِ

موصولةٌ حُجُراتُها بِفِنائها
نَقْراً على عَمَدٍ لَهُنّ ، طِوالِ

وكأنّ ساطِعَ نقشها وطلائِها
لَهَبٌ تَوَهّجَ ، لا بريقُ صِقالِ

والقصرُ نحو القصر ينظر شامخاً
نظر المُدلّهِ ، مؤذناً بزيالِ

بلدٌ كأن يداً دَحَتْهُ ، فَخرّ مِنْ
قُلَلِ الجبال مُمَزّقَ الأوصالِ

فَهُنَا الصخورُ على الصخور تحطمت
وهناك منه حقيقةٌ كخيالِ

ومن قول « فؤاد الخطيب » عن نفسه : (شهدتُ فيه مدينة منحوتة الخ) نَفْهَم أنه زار البتراء وتجول فيها ، وتأملها بعين الشاعر العالم النفاذة ، وبعد ذلك كله نظم درته الفريدة فيها نَظْمَ شاعرٍ مُشاهدٍ متأثر بما شاهد .

ملاحظة لغوية :

تبدت لي ملاحظة جانبية حول ما يتعلق بأصل اسم « البتراء » وهذه

الصيغة بالذات ، فاننا إذا رجعنا إلى مادة « بَتَرَ » في اللغة العربية فاننا نجد من معانيها « القطع » ومنه السيف الباتر أي القاطع .. (إنَّ شَانِئَكَ هوَ الأبْتَرُ) أي هو المنقطع عنه العَقِبُ أو الخير .. والبتراء المدينة النبطية هي مقطوعة القصور والدور والحوانيت من جبالها الصم . أفلا يصحُّ إذنْ أن يكون اسم « البتراء » عربياً ، ومن هذه الصيغة العربية الصميمية ؟

موقع البتراء :

تقع مدينة البتراء على مسافة ٢٧١ كيلومتر ، من العاصمة الأردنية : « عَمّان » ، وتختبئ في تجويفة منحرفة واطئة شديدة الانحدار ، بوادي موسى بالجانب الأيمن من الطريق الصحراوي الذي يسير بجانب هذا الوادي صوب مَعَان والعقبة .. ومدخلها هو « مسيل وادي موسى » الشديد الضيق والانحدار ، والمملوء بالصخور والأتربة والفجوات والحجارة والتعاريج ، والمعروفُ باسم « السِّيق » . وفي مدخل وادي موسى الذي تقع مدينة البتراء في أواسطه وأواخره ، رأينا الحدائق الغُلْبَ ، من عنَبٍ وتين ، يسقيها ماء سلسبيل يهبط عليهما من نبع من جبل هو أقربُ إلى الطريق الصحراوي بالنسبة إلى داخلية الوادي ، وإلى مدينة البتراء . ويُرْوَى أن هذا النبع الفياض ذا الماء النمير هو الذي كان موسى عليه السلام فَجّرَهُ اثنتي عشرة عيناً ، حينما ضرب بعصاه الحجر هنا . ولا أستبعد ذلك فالموقع يدل عليه . كما أن الضريح المنسوب إلى موسى عليه الصلاة والسلام لا يبعد كثيراً عن هذا المكان ، وهو على ربوة عالية بجانب الطريق الصحراويّ الممتد بالإسفلت اليوم إلى مدينتي مَعَان والعقبة . كما أن ضريح أخيه ووزيره « هارون » يقال بوجوده أيضاً قرب هذا المكان .

النثر يصف جمال البتراء :

ونعود إلى وصف فؤاد الخطيب في شعره للبتراء ، فنخاله من أوائل من قاموا بهذا الوصف الرائع ، شعراً ، لمدينة البتراء . وكما أسهم « الشعر العربي الحديث » في وصف محاسن البتراء ، فَمثَّلَ صنيعه صنيعَ النثرُ العربيّ الحديث ، فجاء في مقال لكاتب معاصر قوله : (تعتبر البتراء تحفة نادرة من الجمال والروعة ، وتتشابك فيها الألوان الحمراء والصفراء والسوداء والبيضاء فتختلط وتتماوج ، كأنها البحر الذي كان يغطيها من عصر التاريخ الأول) .

وهذا الوصف النثريّ في قطعة نثرية هو أشبه بمقطوعة شعرية رائعة ، وهو مطابق تماماً لما شاهدناه من تماوج الألوان في مدينة الأنباط الوردية وبالأخص في القصر المعروف « بالخزنة » الذي لا يزال براقاً كما كان .

وقفة أمام الخزنة :

والواقع أننا كُنّا أمام « الخزنة » هذه ، مشدوهين بعظمة فن النحت العربي القديم ، وبجمال قوام المبنى ، وبرشاقته ، وتماوج الألوان الطَّبَعيِّة فيه ، بما يفوق الوصف ويفوت على الاستيعاب . ومع أن « الخزنة » في ألوانها المتشابكة هي طَبَعيّة فلكأنها قطعة فنية استعمل فيها الفنان عشرات الألوان الممتزج بعضها ببَعْض . ويتجسد كل هذا الجمال الفنّي في « الخزنة » حينما تشرق ذُكَاءُ على وجهها الورديّ المشرق . فتستحيل حمرتها الوردية إلى حمرة خد الحسناء الجميل في الصبح المتفتح الجميل .

ومع أن الجبل الذي نحتت فيه « الخزنة » ليس قوياً صلداً ، فقد تمكنت من النجاة والبقاء إلى هذا اليوم ، وربما يعود بعض ذلك إلى

حسن اختيار موقعها الذي تَزّاوَرُ عنه الشمس طرفي النهار ، وتحيد عنه العواصف . وقد بنوا أمام الخزنة دكة عالية وواسعة ، وربما كانت مجلس سَراةِ القوم في الأسمار وطرفي النهار . ولهذه الدكة فوائد جزيلة تتمثل في حماية « الخزنة » نفسها من جوارف السيول في هذا المسيل الهدار . وقيل لنا : إنّ تحت هذه الدكة خزانَ ماء كبيراً قد يكون امتلاؤه من مياه المطر المارة « بالسيق » كل عام ، وهكذا تكون الدكة مزدوجة الفوائد . مما يدل على براعة فائقة وعقل راجح في فن العمارة لــدى الأنباط .

مرقص البتراء :

وبعد « الخزنة » شاهدنا المبنى المعد للرقص ، وهو دكة واسعة ، وبها بعض الجدران التي بنيت بالجنادل . وقد اخترقت بعضَها شجرةُ « البُطْمِ » [1] . والبطم : شجرة ضخمة الساق ، منحنية إلى الأمام . وأوراقها غير كبيرة ، وتميل إلى الاخضرار : وقيل لنا : إن لها من العمر الآن نحو ١٨٠٠ عام .

لمحات من تاريخ البتراء :

ويقول لنا متتبعو تاريخ البتراء أو سلع : إن أول من سكن البتراء هم « الحوريون » سكنة الكهوف ، وذلك لملاءمة طبيعة المنطقة لهم . ثم

---

١ ورد تعريف شجرة البطم هذه في الموسوعة في علوم الطبيعة : لادوار غالب ، فقال عنها ان مهد هذا الشجر الهند وبعض مناطق الشرق الأوسط ، شجرته فرعان ، تعلو من مترين إلى ستة أمتار ، أوراقها كبيرة دائمة الخ ، ص ١٥٢ ، م ١ ، طبعة بيروت . ولشجرة البطم ذكر في تاج العروس شرح القاموس ، مادة بطم .

حل الأنباط العرب مكانهم ، وشادوا من جبال المنطقة المتدانية المتقابلة . هذه المدينة الضخمة حول هذا الشقّ أو « السيق » كما يطلق عليه الآن . ولا أدري هل هم شقوه أو وجدوه مشقوقاً بطبيعته وقد شادوا مدينتهم هذه في موقع حصين لا يصل اليه الغُزاةُ إلا بعد جهد جهيد . وقد تمكن الأنباط من مد رواق ملكهم إلى شرق وغرب وإلى جنوب وشمال وضربوا النقود الذهبية والفضية وأقاموا دولة ذات كيان مستقل لها كل مقومات الدولة المنظمة . وكذلك بنوا المراكب البحرية واستقبلوا القوافل البرية التجارية المحملة بمختلف السلع من مختلف أقاصي البلدان وكان لهم خطهم الذي به يتكاتبون . ومن خطهم اشتَقّ عرب الجاهلية الأخيرة في مكة المكرمة هذا الخط العربي الذي نكتب به إلى اليوم . ومما دلنا على عروبتهم أسماء ملوكهم ، فمنها الحارث الأول ، ومالك الثالث ، الذي كان يعاصر الإمبراطور الرومانيّ الطاغية « نيرون » محرق روما . ومنها أيضاً زئبال ، « والزئبال » في اللغة العربية من أسماء الأسد .

وبعد تأخر أوضاعهم دخل مدينتهم غيرهم ممن استهواهم جمالها ، وحصانة موقعها ، وربما بقيت فيها بقايا من الأنباط اندمجوا فيما بعد بهؤلاء الداخلين ثم ذابوا كما يذوب الملح في الماء ..

وأول من غزا البتراء واستخلصها من الأنباط ، الرومانُ ، وتلاهم غيرهم من الأمم . وللرومان آثار ضخمة في البتراء مما يدلنا على نجاحهم في إقامة كيان لهم بها وطول مكوثهم فيها . وحينما ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي ، كانت البتراء معمورة ومأهولة . وتقلبت بالبتراء حوادث الزمن ، فَنُسِيَتْ ، لأن موقعها المختفي وراء أسوار الجبال النائية عن العمران سَهَّلَ لها ذلك الاختفاء في عصور الاضطراب . وحينما قدم غزاة الصليبيين رأوا في البتراء موقعاً حصيناً يُمَكِّنُهُمْ من صد هجمات المسلمين . ورأوا فيها خط دفاع يتحكم في الطريق الصحراوي الممتد بين عمان والعقبة . فاتخذوها مقرّاً لهم ، وأقاموا بها حصناً لم

نشاهده لاشتغالنا بتتبع آثار الانباط والرومان طيلة النهار . فالبتّراء مدينة واسعة ولا بد لزائرها من جولاتٍ فيها تستغرق معظم وقته ، ولا يمكنه مع ذلك ، الوقوف على كل آثـــار الأنباط والرومان بها ، لتقاصيها عن بعض ، ولعدم تمكن استعمال السيارات فيما بينها لوعورة السّبل في داخلها ، ولأن أغلبها واقع على قِمَمِ الجبال أو في سفوحها الدانية من هذه القمم . وفي الصعود اليها مشقة شاقّةٌ ، خاصة إذا لاحظنا العناء والجهد اللذين يلاقيهما زائر البتراء من طول «السّيقِ» الموصل اليها ، وصعوبة اجتيازه . وقد سَمّى الصليبيون قلعتهم باسم «سِيلْ» وهذا الاسم — على ما نرى — مأخوذ من اسم «سلع» العربي للبلد . وقد شوهته اللكنة الإفرنجية فكسرت السين وأتبعتها بياء ، وربما كانت مجرد علامة حركة الكسرة فقط ، وحذفوا العين في آخر الاسم لعدم وجودها في لغاتهم ، فصار اسم القلعة «سيل» . وهذه القلعة ، كما نرى ، هي التي وصف من أجلها ياقوت الحموي في معجمه ، البتراء كلها بأنها حصن . ولم يعلم أن الحصن المقام في عهد الصليبيين إنما أقيم على مدينة عربية موغلة في القدم ، وموغلة في الروعة والفخامة ، وهي «سَلْعٌ» وهي «البتراء» . ولم يعن ياقوت نفسه بالوصول إلى هذه المدينة أو لم يتمكن ، فاكتفى بمعلومات سطحية عنها . وبحسبه فخراً أنه ذكرها باسمها العربي ، وذكر الحصن الصليبيّ باسمه العربيّ الفصيح : «سلع» مما يدلنا على أن عرب ذلك الزمان كانوا يعرفون هذا الحصن الصليبي بهذا الاسم ، كما يدلنا على غياب المدينة النبطية عن أذهانهم لإيغالها في الإهمال والنسيان ، ولإغراقها في النأي عن مواقع السكان .

عودة الحياة إلى البتراء :

ومدينة البتّراء يراد لها اليوم عودةُ الحياة كتحفة عربية وأثرية عالمية باهرة ، وهي تستحق ذلك . وقد رُممتْ بعض قصورها ، وحُوّلَ

بعضها إلى استراحات جميلة جمعت بين روعة القديم وجمال الحديث ، كالمقصف الحديث الذي تناولنا فيه الشاي والمرطبات ، وشاهدنا في جنباته وعلى كراسيه ، مختلف السائحين ، يستمتعون بطيب هواء البتراء ويرتاحون فيه من عناء التجوال ، سيراً على الأقدام أو ركوباً على الخيل ، بين قصورها ونحائتها المثيرة للاستطلاع والوقوف والتأمل .

في مقصف البتراء :

وهناك في المقصف الأردنيّ الحديث المشار اليه ، استمتعنا بأحاديث فتىً بدويّ تسلق أمامنا واجهة الخزنة الخطيرة العالية بخفة متزايدة وبدون مبالاة كما يتسلق « اللّيمورُ » المدغشقريّ عاليات الأشجار بخفة وطيران . وقد أمْتَعَنا هذا الفتى بأحاديثه العذبة ، عن آثار البتراء فهو بها خبير ، وربما أخطأ في تاريخ بعضها فيراجعه عالم الآثار الأردنية محمود العابديّ الذي سَعِدْنَا بمرافقته في رحلتنا ، ويشرح لنا الحقيقة كما هي ، أو كما يراها هو ، مستمدة من علمه الغزير .

متحف البتراء :

وخلال مكثنا بالمقصف البديع لفت نظري منظر بناء منحوت ، فقصدته منفرداً ، وقــد صعدتُ إلى المبنى العالي من سُلّمٍ حَجَريّ متآكل رُمّمَ بعضه حديثاً ، وبقي بعضه على حاله . وهذا السلم مع تداعيه وتآكله ، هو من النوع العالي . وهو متعرج كذلك . وحينما بلغتُ المنزل ، وجدته ذا غرف واسعة منظمة ، وضع في بعضها الآثار المكتشفة بالبتراء من تماثيل ونقوش وأوانٍ فخّارية وغيرها .

وبعضُ هذه التماثيل رومانيُّ الأصل . وقد لحق بي في المكان ثاني رواد رحلتنا عز الدين التل ، ثم تركته يتجول وحده هنالك .

ما هو السّيق ؟

« السّيقُ » كما مر بنا هو الطريق الوحيد إلى مدينة البتراء ، ليس لها منفذ أو مدخل فيما علمتُ سواه . وربما كان من أسباب اختيار الأنباط ومَنْ قبلَهُمْ ومَنْ بعدَهم للإقامة في البتراء تحكّمُ هذا « السيق » أو هذا الشق ، أو هذا المَدْخلِ الوحيد ، في المدينة فلا يستطيع غازٍ أن يقتحمها بحال من الأحوال ما دام « السيق » في يد أهلها ، وما داموا يتحكمون في مدخلها الوحيد . إنها إذن مدينة محصنة تحصيناً طبَعيّاً محكماً بمعنى الكلمة . « والسيق » شق ضيق شديد التعرج والانحدار كثير الحجارة والجروف . وهو يخترق الجبال المحيطة به حتى يكاد المرء يتصور أو يتخيل أنه شق اصطناعيّ بسبب تقارب الجبال من حواليه تقارباً شديداً جداً مع علوها عنه عُلُوّاً شديداً ، ومسايرتها له في تعاريجه الوفيرة المثيرة . ويبلغ ارتفاع هذه الجبال عن هذا الشق من ٢٠٠ متر إلى ٣٠٠ متر . والجبال كلها يغلب عليها لون الورد الأحمر الداكن ، ولكنها لا تصل في الألوان إلى مستوى ألوان (الخزنة) الآنف ذكرها . وقد تذكرتُ — وأنا أجتاز هذا السيق وأشاهد ألوان جباله الداكنة — تذكرتُ سَمِيّ هذه الجبال — سَلْعاً — في المدينة المنورة ، لمشابهتهما لبعض في اللون تقريباً .

وقد أدركتُ من آثار تأمل أطراف السيق أن السيق هذا كان مبلطاً بالحجارة ، ولكن مرور القرون أتلف البلاط . وطول مسافة السيق كيلانِ . ويرى « لانكستر هاردنج » خبير آثار الأردنّ في كتابه : « آثار الأردنّ » الذي ترجمه الأستاذ سليمان موسى وزميله ،

أن السيق محرف عن صيغة الشق .

وأنا أرى رأيه ، نظراً لتقارب مخارج حروف الصيغتين ، وسهولة التحريف في مثلهما طيلة الأجيال .

من آثار البتراء :

وقد شاهدنا على جانبي سفوح جبال السِّيق محاريب صغيرة ربما كانت نماذج لمعابد الأنباط . كما شاهدنا قَنَوات مائية محفورة في سفوح الجبال ، لتروي سكان المدينة التاريخية ، وشاهدنا كذلك معبد (جوبيتر) ومحكمة رومانية عالية .

والبتراء مقسمة إلى مدينتين : مدينة الأنباط وهي التي تلي الطريق الصحراوي ، ومدينة الرومان ، وهي التي تقع بعدها إلى الداخل ، من ناحية المصرف المائي . لقد أراد الرومان أن تكون مدينتهم البتراوية ذات كيان مستقل متميز ، نوعاً ما .

وفي البتراء فندق مكيف بالهواء يربض فوق متن التل المشرف على مدخل « السيق » ، وهو استراحة أثرية قديمة حديثة معاً ، من النحائت النبطية التي كَشَفَتْ عنها الحكومة الأردنية وأعادتها كما كانت . وكنا نرى في البهو نحائت ربما كانت مقابر لأصحاب هذا المنزل أو هذا القصر ، ولكنها نظمت على نسق فني بديع جعلها من مفاخر البتراء العمرانية .

لبنانُ وسُوريَة
مَلامِحُ وآثَار

جولـــة *
« في ربوع لبنان وسورية »

طالما سمعت عن السرعة والراحة اللتين يلاقيهما راكب الطائرة النفاثة الحديثة المعروفة بالبوينغ ، ولذلك أزمعت امتطاءها في رحلتي إلى الخارج في هذه المرة .

وفي الصباح المبكر أُذن لنا بأن ندخل « مُدَرّجَ » الطائرات في جدة . فقد أقبلت « حافلة » ووقفت أمام باب الدخول ، وأقلتنا إلى حيث تجثم « البوينغ » بعيدةً عن الطائرات العادية ، ودخلناها فَوْجاً إثر فوج ، وجلسنا على مقاعدها الوثيرة الفخمة . وأزيح السلّم ، ثم أغلق الباب علينا ، ومن ثم بدأت آلاتها تزأر زئيراً خفيفاً أول الأمر ، فشديداً ، ثم دَلَفَتْ على أرض المطار ، كما تدلف القطاة .. وبعد هنيهة توقفت فجأة واشتد هدير آلاتها ثم أرقلت قليلاً ، وشاهدنا حَيْزُومها وهو يرتفع في قوة وتصميم إلى فوق ، فعلمنا أننا زايلنا أمّنا الأرض ، ودخلنا طبقاتِ الجو الأجنبية عنا . وتماسكتُ فإذا بي بعد لحظة قصيرة أراني ومن معي ، وقد علَوْنا على مدينة جُدة علواً شاهقاً ، واتجهت

(*) هذه الجولة كانت في سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

الطائرة بنا صوب الشمال ودخلنا بين زرقتين : زرقة البحر الهادئ تحتنا ، وزرقة السماء فوقنا ، واشتد ارتفاع الطائرة إلى عَلٍ ، دلنا على ذلك علوّ مقدمتها عن مؤخرتها حتى لكأنها تريد أن تقف على ذيلها .. وقد تحسستُ مشاعري عندها .. فوجدتُها كما هي على سطح الأرض قبيل بضع دقائق تماماً .. تقديراً وتفكيراً .

وحين نهضتْ الطائرة إلى الجو سمعنا « مذيعها » الجهير الصوت ، وكان ألثغَ — سمعناه وهو يُحيّينا ويقول لنا : « إننا الآنَ على متن الطائرة السعودية النفاثة « البوينغ » وإنها سترتفع بنا عن الأرض ٣٣ الف قدم ، وستصل إلى بيروت في ظرف ساعة وخمس وخمسين دقيقة » .

وكان حديثه هذا بالنسبة لي يحمل وجهين مزدوجين : وجهاً من بشارة ، ووجهاً من قلَقٍ .. فأما وجهُ البشارة فيتمثل في أننا سنصل بيروت في هذه المدة الوجيزة من الزمن ، وإن كانت الدقيقة الواحدة في نظر راكب الطائرة ، الذي هو أنا بالذات ، تزن ساعات طويلة مملة .. يُلزَمُ المرء فيها أن يظل حبيس مقعده الوثير ، مغلقاً عليه باب هذه الغرفة الكبيرة الجبارة التي تسبح في جو لا يمت اليه الإنسان بصلة بالنسبة لحياته المألوفة على سطح الأرض طيلة حياته ..

وأما وجه القلق فكان مبعثه قوله : إننا سنرتفع عن الأرض (٣٣) ألف قدم .. لقد حسبتُ المسافة بيننا وبين الأرض التي ألفنا الحياة على ظهرها فاذا هو بون شاسع وهوة عميقة .. ولُطْفُ الله أعظمُ من كل شيء ، ولا بد من الاستسلام للقدر .. على كل حال .. في مثل هذه المواقف .

ولقد لطف الله . فظلت « البوينغ » سابحة في « القضاء الداخلي » هادئة هادرة متزنة .. ولم يحدث فيها اضطراب ، ولا شعَرْنا بمطبات ولا بارتجاج ولا هزات .. ولقد صعدت فوق منطقة السحب ، فسلمت من

شر احتكاكها بها وشر اهتزازاتها وشر تقلبات جوها .. وحينما استوت على جوديّ الجو الشاهق لاحظنا تساوي مقدمتها وذيلها .. وحينئذ اعتدلتْ وأصبحت شبه ساكنة .. ولولا ضجيج أدواتها الجبارة ، ومرورنا السريع بمختلف المناظر النائية عنا جداً ، وتَغَيُّرُ موقعها أو موقعنا بالنسبة لهذه المناظر لقلنا تَجَوُّزاً : إن طائرتنا منطاد ساكن في الهواء غير متحرك وغير سائر .. فاذا قدر لأحدنا أن يطل على ما تحتنا فهو حينئذ يلمَسُ السرعة الفائقة والبون الشاسع والهوة العميقة التي تفصل بيننا وبين أمّنا الحبيبة : « الأرض » .

وأعتقد أننا تجاوزنا منطقة تحليق الشواهين والصقور والنسور وسائر الطيور .. فنحن الآن ، كما يتراءى لي وقتئذ .. قريبون أو غير بعيدين جداً من منطقة الفضاء الخارجي .

وبعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة على سيرنا من جُدة رأينا طائرتنا تنكس برأسها إلى أسفل .. ماذا حدث ؟ وبادرَنا مذيعُ أنبائها بصوته المجلجل الألثغ بقوله : (إننا الآن على مشارف عمان — عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية — وإن علينا أن نشد الأحزمة) .. وحينئذ كنت لا تسمع إلا طقطقة هذه الأحزمة ، تُشدّ من حولِ خصور الراكبين في حماسة بالغة وفرحة غامرة .. وبَدأنا نشاهد مناظر الأشياء على سطح الأرض مصغرة وضئيلة .. المزارع الخضر كرقع الشطرنج ، والبيوتُ تشبه عُلَبَ الكبريت ، والطرُق المسفلتة تمثـل منظرُها منظرَ الحِبال المفتولة الملقاة على سطح الأرض في غير احتفال والناس كالنِّمال الكبيرة . ثم أمعنت الطائرة في عملية الهبوط واشتد هبوط مقدمها ، وداخلها شيء خفيفٌ من الارتجاج ، وأمسك بعضنا بأطراف المقاعد ، وما هي إلا هنيهة حتى اتصلت عجلاتُها بأرض المطار .. مطار عمان ، وزافّتْ عندئذ على مُدَرّجه كما يزوف الطائر الضخم الهابط من مستوى عال بذيله الكبير ، ثم هدأت آلاتها عن العجيج ، ووقفت عجلاتها عن الدوران .. وقيل

لنا : «اهبطوا بسلام إلى عمان» ، فهبطنا ، وحمدنا الله على عودتنا إلى الأمّ الحنون بسلامة ، وشكرناه على سلامة المرحلة الأولى من رحلتنا الجوية إلى لبنان .

في مطار عمان

ومطار عمان مطار رائع .. مبني بالحجر الأبيض الرخو .. الذي يوجد بكثرة في منطقه الشمال . وقد تجولنا ما أمكنتنا الفرصة المهيأة لنا .. ثم قيل لنا أن نعود إلى جوف سمكتنا الفضية الكبيرة الطائرة ، لنستأنف الحُصَّة الثانية والأخيرة من ارحلة نحو الهدف المنشود الذي هو بيروت .. فدخلنا الطائرة جميعاً في شبه سباق إلى المقاعد ، فقد أنزلت بعض محمولها من الناس في عَمّان .. وأغلق بابها علينا بعد ما أزيح السُّلّم الأرضيُّ من جانبها .. وعجّتْ محركاتها من جديد صاخبة رزينة .. وما هي إلا هنيهة وإذا بها تعلو مرة أخرى في الجو بسرعة وبنظام واطمئنان . وعلونا فوق شواهق جبال الأردنّ ، الدّكْنِ الْجُرْدِ .. ونحن متجهون صوب الشمال .. إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وقد بدا لنا مُقدّم الطائرة في ارتفاع شديد .. ثم اعتدل وقتاً ليس بالمديد ، ثم بدأ ينخفض مرة أخرى على قدر ارتفاعه .. وبعد نصف ساعة من إقلاعها من مطار عَمّان ارتفع للمرة الثالثة والأخيرة صوت المذيع الجهير الألثغ يقول لنا : (إننا الآن على مشارف بيروت ، وإن علينا أنْ نَشُدّ الأحزمة).. وما استكمل حديثه أو بيانه العذب المحبب إلى النفوس حتى رأينا مناظر لبنان الجميلة تمر من تحتنا مر السحاب .. ورأينا غاباتها الصنوبرية الزاهية بجانبنا ، وداراتها المنسقة ، وطُرُقَها المعبدة الملتوية ، ثم أطّتِ الطائرةُ أطّةً شديدة .. فَنَالَنَا من ذلك بعضُ القلق ، وكان ذلك منها في

حقيقة أمره إيذاناً بإمعانها في عملية الهبوط السريعة ، وإشعاراً غير مباشر بقربها من أرض المطار ، ثم شاهدناها تعلو مطار بيروت الدوليّ ، فإذا بيروت حاضرةُ البحر قريبةٌ منا جداً ، وإذا هي تبدو لنا في ثيابها الزاهية وعماراتها الرائعة .. ثم هبطت الطائرة بالمطار .. مطار بيروت الدولي في رفق وسلام ونظام وأمان ..

ولقد حمدنا الله مرة أخرى على سلامة رحلة الذهاب وسألناه التوفيق والأمان في رحلة الإياب .

في بيروت

ومن مطار بيروتَ دخلتُ في جوف سيارة أجرة .. إلى فندق « عُمر الخيّام » .. وسيارات اجرة بيروت ذوات ألواح حُمْرٍ مستطيلة .. أمّا السيارات المملوكة للأفراد والمستعملة لركوبهم الخاص .. فهي ذاتُ ألواح سودٍ من نفس النوع .. والرقم المتسلسل يشمل جميع سيارات لبنان .. ولذلك لا غرو أن تركب سيارة اجرة رقمها مثلاً (٩٩٠٠٠) .. وترى سيارة خصوصية بجانبها ورقمها مثلاً (٩٨٩٩٩) .

وحينما زرت البحرين منذ ثماني سنوات رأيت ألواح سيارات أجرتها ذاتَ لون أصفر .. ولها رقم خاص ، وكذلك الشأن في ألواح سيارات أجرة المملكة السعودية ، ولِكُلٍّ ، أرقام خاصة ..

وذهبتْ بي سيارة الأجرة اللبنانية إلى الفندق مسرعة خفيفة . وقدّم لي السائق تعريفة الركوب الرسمية ، وهي التعريفة التي يجب أن يتقيد بها كل سائقي سيارات الأجرة في لبنان ، ولا يستطيع أحدهم أن يخالفها مطلقاً . ولعل الحكومة اللبنانية فرضت عليهم تقديمها في هذا الموقف للركاب ، لئلا يحدث منهم أي تلاعب في استيفاء اجرة تزيد عن الاجرة المقررة رسمياً .

ومكثت بالفندق بضعة أيام ، واتصلت في الهاتف بالصديق الشيخ هاشم دفتردار المدنيّ . وبعد اجتماع سعيد به استعدنا ذكريات الرحلة الماضية ، التي سافرنا فيها معاً إلى الشام .. ونزلنا بفندق أمية الخالي من الضيوف ، ونظمنا به أبياتاً خفيفة الروح والوزن أذكر منها قولنا :

فندقنا خال من الضِّيفـــان ولم يكن به سوى الشيخان

وقد تجولنا في بيروت .. في دواخلها وضواحيها ، تارة بالأقـــدام وتارات بالسيارات ..

وبيروت مدينة قديمة متجددة .. ترى في شوارعها الداخلية العمارات الاثرية القائمة منذ مئات السنين .. وإلى جانبها المنشآت الضخمة الحديثة . وترى في داخلها الشوارع المرصّفة بالحجارة الملس السود المربّعة على غرار رصيف شارع سُوَيْقَة العتيق في المدينة المنورة ، وفي ضواحيها عمارات كبيرة جداً من أحدث طُرُز العمارات .. حتى لكأنها نواطح السحاب ، خاصة في ضاحية « الروشة » . وأهل بيروت خاصة ، وأهل لبنان عامة ، نَشِطُون في الأعمال المالية والاقتصادية ، ويعرفون كيف يحصلون على النقد ، وكيف يفيدون من السياحة والسائحين ، ومن غير السياحة والسائحين ، لمصلحة بلادهم المتجددة النشطة المتعطشة إلى كل درهم ودينار . وهم قد حازوا قصب السبق ، في هذا الميدان ، على العرب ، وَوَفّقوا بين المتعارضات ، والمتناقضات ، بلباقتهم وحسن كياســتهم الاقتصادية .. فصارت لبنان مُنْتَجَعاً ، ومُتَفَسَّحاً ومُتَنَفَّساً للعرب على اختلاف نزعاتهم وميولهم ومذاهبهم السياسية .. واللبنانيون أهل رحلات واغتراب في سبيل ابتناء المجد وامتلاك الثراء .. تماماً كما كان أسلافهم الفينيقيون العرب .

وقد رأينا أن لا نضيع الوقت في بيروت وحدها .. فبيروت علاوةً على أنها في الصيف حارةُ الطقس ، ومكتظة بالسكان والمصانع ، فهي

ليست أجمل ما في لبنان .. لقد رأيتها بعين المتأمل فإذا هي « مُجَرّد سفح جبل » متجه وممتد إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، من سفوح جبال لبنان المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط ، أو من سفوح مجموعة من جبال لبنان رأى الفينيقيون أن يفيدوا منه فاتخذوا منه هذه المدينة الخالدة التي لهـــا مزية الجمع بين مواطن الانسان الثلاثة : « الجبل والسهل والبحر » .. في آن واحد ..

وقد استأجرنا سيارة وذهبت بنا إلى الجبال .. إلى عاليه ، وإلى بحمدون ، وإلى كيفون ، وإلى سوق الغرب ، وإلى بكفيا وإلى صوفر وغيرها . واجتمعت في كيفون بالصديق اللواء علي جميل . وفي عاليه بالشيخ محمد نصيف .

وأمتعنا أبصارنا بمنظر الجبال الطّبَعِيّ الأخاذ المتمثل في غابات أشجار الصنوبر ، وألوان أشجار الفواكه من تفاح وغيره .

الماء والكهرباء والأشجار .. هذه اللوازم الثلاث الحيوية المهمة في المخبر والمنظر تجدها في كل مكان ، من لبنان ، وأكاد أضيف اليها رابعاً : الطعامَ الشهيّ اللذيذ الرفيع الثمن ، وخاصة لونين منه : السمك الطريّ .. واللحم المشويّ . إن مطاعم لبنان تجيد جداً طهي هذين الطعامين اللذيذين .

وفي بَكْفيا .. وهي القرية الجبلية التي كان أحمد شوقي الشاعر المعروف يأوي اليها للاصطياف فيها ، شَعَرْتُ بشيء من البَرْد ذات أصيل .. وكان معي الصديق هاشم دفتردار .. أما هو فقد تَقَلّم [1] فلم يشعر بهذا الشيء الذي يسري في أوصال جسمي متسللاً اليه من الجو الناعم ، اللطيف ، وإنما كان يتصبب عرقاً خفيفاً .

في متحف بيروت :

وعرضت لي فكرة زيارة متحف بيروت .. فذهبت اليه في ذات

[1] أي صار متكيفاً بطابع الإقليم .

ضحوة ، وأخذتُ ورقة الدخول بدرهمات معدودة ، ودخلت المتحف ، وهو في دورين اثنين فقط ، وقد بُنِيَ بالحجر الجيري الأبيض الذي يكثر وجوده في هذه النواحي الشمالية ابتداء من مدائن صالح ومنطقة تيماء ، وإلى الأردن ، وإلى بيروت .

وقد تأملت محتويات المتحف .. من ألفها إلى يائها . فوجدتُ فيه آثاراً للفينيقيين وآثاراً للرومان ، وآثاراً لفراعنة مصر ، وآثاراً لمدينة آثينة ، وغير ذلك . والشيء الوحيد الذي أعياني العثور عليه في المتحف هو آثار العرب والمسلمين .. لقد خلا المتحفُ في جميع أرجائه وزواياه من أيّ أثر من آثار الحضارة الإسلامية العربية الخالدة .. فهل هذا شيء متعمد؟ أو هو وليد المصادفة ؟ ولكأن هذه البلاد لم تَمُرَّ عليها أيةُ فترة كان للعرب فيها ظل ظليل من مَدَنِيّةٍ زاهرة وارفة ، لا يمثلها الآن سوى بقايا مساجدها الأثرية ومبانيها العتيقة .

فكرة للتنفيذ :

وقد استعرضتُ مع أحد أهل بيروت فِكْرَةَ غرس أشجار الصنوبر المنتشرة في كل مكان هنا ، في السهل والجبل ، وعلى الصخور والرمال والسباخ وتحادثنا في كيفية نموها وإثمارها .. فحدثني بأن غابة أشجار الصنوبر التي هي في طريق مُطار بيروت ، فيما بينه وبين البلد ، هي من غراس محمد علي باشا والي مصر وجَدّ ولاّتها الخديويين . وقال لي : إنها كانت غابة كثيفة . ولما قررت الحكومة اللبنانية إيصال طريق الإسفلت ، بشقيه إلى المطار اضطرت عندها إلى قلع كثير من أشجار هذه الغابة الملتفة ، وسفلتة محلها . وهكذا مر بينها الطريق مستقيماً .. ولهذا ترى جانباً كبيراً منها في الجانب الأيمن ، وجانباً آخر مماثِلاً في الجانب الأيسر من الطريق . وأضاف إلى ذلك أن أشجار الصنوبر تقبل

بطبيعتها الغرس في كل مكان .. في سهلٍ وفي جبل وفي سبخةٍ وفي رملٍ . وقال : إنها تعيش مئات السنين ، وتُثْمِرُ « الصنوبر » المعروف ولا تحتاج إذا كبرت إلى سقيٍ ، إنها تشرب من جذورها .. أما إذا كانت صغاراً فلا بد من سقيها حتى تتماثل للكبر .. وهي تصلح في الجو الحار الرطب ، كجو بيروت مثلاً ، وفي الجو البارد الجاف كجو جبال لبنان .. وأراني غرسات غضة منه ، زُرِعَتْ على حافتي طريق المطار حديثاً ..

وعندها تذكّرتُ جُدة ، وحاجتها إلى غابات تحف بها من بعيد تلطف من جوها الحار ، وتمتص بعض رطوبتها . وتزين منظرها الأجرد وتفيد المواطنين من ثمارها .. ولأن هذه الخصال كلها مجتمعة في شجر الصنوبر فما علي اذا كتبت هنا مقترحاً غرس الصنوبر بمدينة جدة وما يماثلها من مدن المملكة خاصة وانه لا يحتاج الى مـــاء كثير ولا عناية بالغة ، وأوراقه لا تتساقط مطلقاً .. إنهـــا متماسكة ومتلاصقة ببعض دواماً ، وتشكل منظر « المظلات » الخضر المرتفعة في الآفاق ، من على قامات جذوعها المديدة حتى لا تكاد أشعة الشمس تنفذ من تحتها أو من خلالها إلى الأرض التي تظللها بظلالها الوارفة الناعمة .

وقلت في نفسي أيضاً : لعل استجابةً تحدث من الجهات المختصة للاقتراح .. وأملي وطيد في أن تعمل على جلب أغراس شجر الصنوبر المثمر الظليل ، بدلاً من هذه الأشجار العقيمة ، « اشجار النِّيمِ » لتظلل بها ، ولتفيد منها في ثمارها ، والاقتباسُ المفيدُ السليم للصالح العام هو أساس الحضارة ونبراس التقدم في كل بلاد العالم قديماً وحديثاً ...

النشاط الأدبي :

وعَجِبْتُ للبنان ، وعجبتُ منه .. فهو على شدة انهماك أهله في

الماديات وغرقهم فيها إلى آذانهم ، لم يُطَلِّقوا الأدب ولم يعافوا ورود مناهله العذبة . إنّ نشاطهم في هذا الجانب مشبوب وحماسيّ بالغ . إن إذاعة لبنان فيها أركان أدبية مصفاة عامرة ولذّة ورتيبة كلّ يوم .. وصحافة لبنان لا بدّ أن تحمل أعدادُها فكرة أو أفكاراً أدبية للقارئ العربي ، وتصدر في لبنـان الآن المجلاتُ الأدبية الخالصة ، وفي طليعتها مجلة الأديب لصاحبها ألبير أديب .. وكثير من الكتب الأدبية واللغوية والعربية تُطْبَعُ اليوم ببيروت .. وذلك كله يدل على ذوق أدبي عميق ورفيع .

بل إن بيروت تسعى جاهدة لتصبح « مطبعة الشرق العربي الحديث » وإن لدى لبنان الإمكانات التي تهيؤها لهذه الفرصة السانحة .

وفي بيروت رغب إليّ ابراهيم خوري ، كاتب « ركن الأدب » في مجلة الجمهور الجديد الأسبوعية في أن أدْليَ اليه بحديث عن أدب المملكة وأدبائها .. ففعلتُ ذلك بمحضر من ألبير أديب .. ووعد هذا بأن ينقل الحديث برمته إلى مجلته بعد نشره بالجمهور الجديد ..

إذاعتنا :

ومُنَاسِب أن أذكر هنا أن إذاعتنا السعودية لم أتمكن من الاستماع إلى صوتها الحبيب في بيروت برغم التحريات الدقيقة التي قمتُ بها عدة أيام [1] .. وهذا بخلاف الإذاعات العربية الأخرى فهي مسموعة في بيروت ، ما قرب منها وما كان أبعد كإذاعة الكويت مثلاً .

---

[1] كان ذلك سنة ١٣٨٣ هـ — ١٨٦٣ م أما الآن فان صوتها مسموع في بيروت بوضوح .

وعجبت من لبنان في ناحية أخرى غير ناحية الأدب . وهذه الناحية هي الناحية السياسية الخاصة والعامة .. فإن وزارة خارجيته قد أطْلِقَ عليها اسمُ : « وزارة الخارجية والمغتربين » .. ومعنى هذا أن اللبنانيين الذين اضطرتهم المقادير وظروفُ المعيشة إلى الاغتراب في الأمريكتين ، وفي إفريقية وغيرها من بلدان العالم لاتزول عنهم صفة اللبنانية ولاجنسيتها مهما يَطُلْ أمد غيابهم ، ومهما يكتسبوا من جنسيات أخرى .. إن لهم حق العودة والمواطَنَةِ وحُقوقها كاملةً بمجرد عودتهم إلى لبنـــان ، واستقرارهم في ربوعها . إنهم محسوبون على كل حال جزءاً لا يتجزأ من لبنان ..

ويُخَيَّلُ إليّ ، أن هذه الظاهرة تكشف عن سعة الأفق السياسي والوطني والاجتماعي اللبناني . فحبذا لو أرسيت هذه النظرية القانونية لدينا وعمل على ضوئها لحفظ كيان وحقوق المواطنين المماثلين لأولئك المغتربين عندنا ، وللافادة من إمكاناتهم بصفة مستديمة . ومن هذا القبيل ما نلمسه — مُقَدِّرين — من أن الحكومة العربية السعودية قد قررت إعادة السعوديين « المنقطعين » في بلاد الغربة إلى بلادهم على نفقتها ، هم وذراريهم وأُسَرهم مهما يتناسلوا ويتكاثروا ما داموا محافظين على جنسيتهم السعودية .

ماء بيروت :

ولقد لاحظتُ أن ماء بيروت ليس خفيفاً كل الخفة ، ولا عذباً تام العذوبة .. إنه لا يخلو من بعض ملوحة ، ولم أطلع على مصدر ذلك وأسبابه ، ولكنه أمر ملموس ، وهذا بعكس الماء في جبال لبنان ، فهو مثله في سورية وفي المدينة ومكة وجدة . إنه عذب خفيف .

ولقد أقر نظريةَ ثِقَلِ ماء بيروت ونقصِ عذوبته ، بعضُ البيروتيين والمُتَبَيْرِتين .

إلى سورية

لا بد في هذه الرحلة أيضاً من زَوْرَةٍ لسورية ، ومن شربةٍ ماء من نهر بردى .. وصلاةٍ في الجامع الأمويّ ، وجولةٍ في أسواق دمشق ، ورؤيةٍ «لمعرض دمشق الدولي» — هكذا صرخ بي الضمير .. فقررت فوراً تلبيةً ندائه المصمم .

وبرغم التحذيرات التي وُجِّهَتْ الينا في لبنان حيال زورتنا لسورية فإن العزم المصمم لم يُصْغِ مطلقاً إلى صوت هذه التحذيرات .. المرسل من أصدقاء وغير أصدقاء ..

وهكذا امتطينا سيارتنا الصغيرة : هاشم دفتردار وأنا ، بعد ظهر يوم الاثنين واتجهنا صوب دمشق . واستقبلتنا عمليات التفتيش الجمركي المعقدة في حدود لبنان وسورية معاً برغم شعار الوحدة العربية المرفرف فوقنا عند حدود سورية ، ودخلنا دمشق قبيل العشاء فاذا بها متلألئة الأضواء كاملة الزينة والبهجة .. وزاد أضواءَها اشراقاً ما نصب على المعرض بجوانبه من المصابيح الضخمة المتوهجة .

ونزلنا في فندق «سمير» ، وهو فندق حديث البناء يطل على ساحة المَرْجَة وعلى المعرض من بعيد وعلى شارع جمال باشا المعروف . وبعد أن وضعنا حقائبنا في غرفتينا بالطبقة الخامسة من الفندق هبطنا بالمصعد إلى المعرض ، وتجولنا في شوارع دمشق ، تارة على أقدامنا ، وتارة

على سيارة ، ثم تناولنا عشاء عربياً لذيذاً ، في مطعم فخم قريب من الفندق الذي نزلنا به ، وقد عُلِّقَتْ على جدرانه آياتٌ قرآنية ، وكلمات حِكميّةٌ ، باللغة العربية الفصحى ، وبالخط العربي الجميل ، وهذا بعكس ما كنا نشاهده في مطاعم بيروت المماثلة من نقوش الصّور والتماثيل الغربية في المطاعم الفخمة ، وفي غيرها .

ثم ذهبنا إلى المعرض .

واشترينا ما أردنا شراءه من حاجيات ، ولم نُقَابَلْ بسؤال من أيٍّ كان .. مع أن جوازاتنا كانت في جيوب معاطفنا ، من باب الاحتياط للسين والجيم المرتَقَبَيْنِ بين كل لحظة وأخرى ...

ثم قَفَلْنا راجعين إلى بيروت ، آمنين مطمئنين ، من نفس الطريق الذي سلكناه إلى دمشق ، حامدين الله جل وعلا على نجح الرحلة الشامية وسلامتها من الأكدار .

وحينما تمت العودة إلى لبنان كانت لنا فرصة طيبة لمزيد من التنقلات والنزهات ، استجماماً . ففي كل أمسية كنا نؤم أية جهة نريد إما بالسيارة أو على الأقدام ..

الفَهَارِسْ

فهرست الاعلام

غ

ف

ق

ن

فهرست الاماكن

ب

فهرس الصور والنقوش

فهرست المراجع

القرآن المجيد

تفسير البغوي

تفسير المراغي

سيرة ابن هشام

الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام للسهيلي

قصص الأنبياء : لعبد الوهاب النجار

صفة جزيرة العرب : للهمدني

الاكليل : للهمداني

تاريخ الطبري

تاريخ ابن خلدون

ديوان النابغة الجعدي

ديوان حسان بن ثابت

ديوان كثير عزة

الفهرست : لابن النديم

الكامل : لابن الأثير

التيجان في ملوك حمير : لعبيد بن شرية الجرهمي

المسالك والممالك : للاصطخري

المسالك والممالك : للبشاري

معجم البلدان : لياقوت الحموي

أسماء جبال تهامة وسكانها : لعرام بن الأصبغ السلمي

تهذيب اللغة : للأزهري

لسان العرب : لابن منظور الأنصاري

المخصص : لابن سيده

القاموس المحيط : للفيروزآبادي

تاج العروس : لمرتضى الزبيدي

المعجم الوسيط : لمجمع اللغة العربية بمصر

معجم متن اللغة : لأحمد رضا

المنجد : للويس معلوف

آثار البلاد والعباد : للقزويني

تاريخ هيرودوتس : لهيرودوتس
رحلة ابن جبير
رحلة ابن بطوطة
رحلة الشتاء والصيف : لكبريت
رحلة في بلاد العربية السعيدة : لنزيه العظم
مرآة الحرمين : لأيوب صبري
مرآة الحرمين : لإبراهيم رفعت
العرب قبل الإسلام : لجورجي زيدان
تاريخ العرب قبل الإسلام : لجواد علي
العرب في أحقاب التاريخ : لأمين مدني
تاريخ العرب (مطول) : لفيليب حتي
من الساميين إلى العرب : لنسيب وهيبة الخازن
الأعلام : لخير الدين الزركلي
جغرافية شبه جزيرة العرب : لعمر رضا كحالة
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام : لسعيد الأفغاني
وفاء الوفا : للسمهودي
الجزيرة العربية : لمصطفى مراد الدباغ
مشعل المحمل : لمحمد صادق
دائرة المعارف : لبطرس البستاني
ملوك العرب : لأمين الريحاني
جزيرة العرب : لحافظ وهبة
خمسون عاماً في جزيرة العرب : لحافظ وهبة
قلب جزيرة العرب : لفؤاد حمزة
بحث المعادن : لرشدي الصالح ملحس
صحيح الأخبار : لابن بليهد
آثار الأردن : لهاردنج ، ترجمة سليمان موسى
كهف أهل الكهف : لرفيق وفا الدجاني
النقوش والآثار بصخور الحجاز : لعثمان رفقي رستم — ترجمة — أحمد شطا
فصول من تاريخ المدينة المنورة : لعلي حافظ
الزراعة الوطنية : لصالح كمال المدني
في بلاد عسير : لفؤاد حمزة
في ربوع عسير : لعمر رفيع
تاريخ عسير : لهاشم بن سعيد النعمي
عنوان المجد في تاريخ نجد : لابن بشر
تاريخ نجد : لفيلبي
أرض الأنبياء : لفيلبي
تاريخ ابن غنام

تاريخ مدينة جدة : للمؤلف
تقرير البعثة الزراعية الامريكية
علوم الطبيعة : لادوار غالب
الكويت . حقائق ومعلومات : لوزارة الارشاد والآثار الكويتية
مجلة « المنهل »
الآثار الباقية عن القرون الخالية : للبيروني
آثار المدينة المنورة : للمؤلف
التحقيق المدعم في مسجد الراية وبئر جبير بن مطعم (مخطوط) للمؤلف
كتاب الصحراء الكبرى : لجيمس ويللارد
مذكرات محمد صالح باعشن (مخطوطة)
معلومات خاصة ومكتوبة من الشيخ محمد نصيف
معلومات أثرية من الدكتور عبدالرحمن الانصاري .

فهرس الموضوعات

صفحة

(آثار الرياض وما حولها)

(آثار جدة وما حولها)

(عسير : ملامح وآثار)

(الآثار شمال البلاد العربية السعودية)

(الكويت : ملامح وآثار)

(الاردن : ملامح وآثار)

(لبنان وسورية : ملامح وآثار)

(الفهارس)